وقفات مع السيرة النبوية

الجزء الأول

إعداد الدكتور

عبد العزيز بن عبد الله الحُمَيدي

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

والمدرس بالمسجد الحرام

ح عبد العزيز عبد الله الحميدي ، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحميدي ، عبد العزيز عبد الله
وقفات مع السيرة النبوية . / عبدالعزيز عبد الله الحميدي–ط٢..–
مكة المكرمة ، ١٤٣٢هـ
٢ مج .
ردمك ٥-٨٠٥٩-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
١-٨٠٦٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)
١- السيرة النبوية أ.العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٣٢/٧٧٢١

رقم الإيداع : ١٤٣٢/٧٧٢١
ردمك: ٥-٨٠٥٩-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
١-٨٠٦٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ/٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أوجد البشر في هذه الحياة الدنيا ولم يتركهم سدى، بل بين لهم سبيله الهادي إلى سعادة الدنيا والآخرة، فأرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين، وجعلهم قدوة لأممهم، ينفذون شريعة الله تعالى في الأرض، ويرفعون معالم الحياة الكاملة التي تجمع بين سعادة الدارين.

وصلى الله تعالى على سيدنا ونبينا محمد الذي أدى الأمانة وبلغ الرسالة وأقام التوحيد وهدم الشرك، وجاهد في الله حق جهاده، وبنى دولة الإسلام، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد..

فإن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي مادة مهمة في مجال العقيدة والأحكام والدعوة والجهاد والأخلاق وغيرها حيث إنه سجل حافل من مآثر سلفنا الصالح، فهو عبارة عن قوالب تختزن فيها وقائع تشتمل على نماذج حية من تطبيق الإسلام على هذه الأرض.

فالنصوص المجردة قد تتلقاها بعض النفوس بشيء من البرود وعدم التأثر، ولكن حينما تُروى ضمن وقائع حدثت فعلاً من رجال

سموا إلى المعالي، وتخلصوا من ضغط الجاهلية، وجردوا أنفسهم لما يحبه الله تعالى منهم، وأصبحوا يمثلون الإسلام الواقعي المطبق في الحياة وليس الإسلام المسطر في الكتب فحسب.. حينما تُروى على هذا النحو الحي المتحرك فإنها تهز الضمائر الحية وتدفع النفوس الأبية إلى التأثر ومحاولة التأسي بأولئك الأماجد الكرام.

لذلك اتجهت همة العلماء -رحمهم الله تعالى- إلى جمع سيرة رسول الله ﷺ وسير الصحابة ﷺ والمصلحين من بعدهم، واستفاد منها المربون عبر الأجيال في إصلاح النشء وتقويم السلوك.

ولما كان كل عصر له ملامحه الخاصة، من حيث تَغَيُّر أنماط الحياة الاجتماعية واختلاف موارد الثقافة، وتعدد المناهج السياسية والاقتصادية، وتنوع وسائل الغزو الفكري من الأعداء كان لا بد من إعادة دراسة سيرة السلف الصالح، ومحاولة الاستهداء بها في تقويم حياة المسلمين على ضوء الحياة المعاصرة.

وكان من طريقتي في إعداد هذه الموضوعات والكتابة عنها أنني أجمع مادة الموضوع الذي أريد الكتابة عنه من جميع الكتب التي تتيسر لي، ثم أختار الروايات الجامعة، وأشير إلى بقية الروايات غالبًا، وإذا كان النص يشتمل على بعض الأعلام فإنني أرجع إلى كتب التراجم ؛

حيث أحصل منها على فوائد في خدمة النص، وخاصة ما يتعلق بحكم العلماء على تلك النصوص، وكذلك فيما إذا كانت تشتمل على آيات من القرآن الكريم فإنني أرجع غالبًا إلى كتب التفسير بالمأثور، حيث يورد أصحابها أحيانًا تلك النصوص.

هذا ومن باب الاعتراف بالجميل فإنني أذكر بأن الأخ الدكتور يوسف بن عبد العزيز الحميدي قد قام بمراجعة كتبي التاريخية، وقد أفادني بتعليقات مهمة عن مواقع الأماكن التي جرت فيها الأحداث التاريخية، وذلك بالرجوع إلى المراجع القديمة والحديثة، فله مني الشكر الجزيل على هذه الإضافات التي أثرى بها هذه الكتب .

أهم المؤرخين في السيرة الذين اعتمدت كتبهم

ابن إسحاق الإمام في السيرة :

حيث إن ابن إسحاق هو أشهر من ألف في السيرة واعتمد العلماء على سيرته[1]،وحيث إننى أوردت من رواياته في هذا الكتاب كثيراً فإننى سأذكر له ترجمة موجزة أبين فيها مكانته العلمية وخاصة في السيرة.

فهو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المدني نزيل العراق مولى قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف[2].

ثناء العلماء عليه وتعديله :

قال الزهري :لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا - يعني ابن إسحاق!

وقال شعبة : محمد بن إسحاق أمير المحدثين، قيل له : لم؟ قال: لحفظه.

وسئل أبو زرعة عنه فقال : من تكلم في محمد بن إسحاق؟ هو صدوق.

---

(١) المبتدأ والمبعث والمغازي.

(٢) عيون الأثر ١/ ٨، وتقريب التهذيب ٢/ ١٤٤.

وقال ابن المديني : مدار حديث رسول الله ﷺ على ستة، فذكرهم ثم قال : وصار علم الستة عند اثني عشر أحدهم ابن إسحاق.

وسئل ابن شهاب الزهري عن المغازي فقال : هذا أعلم الناس بها ؛ يعني ابن إسحاق!

وقال الشافعي : من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق.

وقال أبو معاوية : كان ابن إسحاق من أحفظ الناس، فكان إذا كان عند الرجل خمسة أحاديث أو أكثر جاء فاستودعها محمد بن إسحاق، فقال : احفظها علي فإن نسيتها كنت قد حفظتها عليَّ!

وقال أبو زرعة ؛ عبد الرحمن بن عمرو النصري الدمشقي : محمد بن إسحاق قد أجمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه، منهم سفيان - يعني الثوري - وشعبة وابن عيينة والحمادان[1] وابن المبارك وإبراهيم بن سعد، وروى عنه من الأكابر يزيد بن أبي حبيب، وقد اختبره أهل الحديث فرأوا صدقاً وخيراً مع مدحة ابن شهاب له.

وقال البخاري : ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد!

---

(١) الحمَّادان هما حماد بن سلمة بن دينار ، وحماد بن زيد بن درهم .

وقال ابن معين : محمد بن إسحاق ثقة وليس بحجة.

وقال يعقوب بن شيبة : سألت ابن معين عنه فقلت : في نفسك من صدقه شيء؟ قال : لا هو صدوق.

وقال العجلي عن ابن إسحاق : مدني ثقة.

وقال ابن عدي : ولمحمد بن إسحاق حديث كثير قد روى عنه أئمة الناس ولو لم يكن له من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء إلى الاشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه ومبدأ الخلق لكانت هذه فضيلة سبق إليها.

وقد صنفها بعده قوم فلم يبلغوا مبلغه،وقد فتشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد فيها ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ أو يهم في الشيء بعد الشيء كما يخطيء غيره وهو لا بأس به.

وقال ابن حبان : ولم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه ولا يوازيه في جمعه، وهو من أحسن الناس سياقاً للأخبار.. إلى أن قال : وكان يكتب عمن فوقه ومثله ودونه، فلو كان ممن يستحل

الكذب لم يحتج إلى النزول، فهذا يدلك على صدقه [1].

ومع هذا الثناء الكثير على ابن إسحاق فقد اتهم باتهامات لا تصل إلى حد الجرح المؤثر وقد أجاب العلماء على تلك الاتهامات، ومن أفضل وأوسع ما رأيت في الجواب عنها ما ذكره الحافظ ابن سيد الناس في كتابه « عيون الأثر » فليرجع إليه من أراد معرفة ذلك [2].

وممن لخص القول في الإمام محمد بن إسحاق الحافظ ابن حجر حيث قال : محمد بن إسحاق بن يسار الإمام في المغازي مختلف في الاحتجاج به، والجمهور على قبوله في السير، قد استفسر من أطلق عليه الجرح فبان أن سببه غير قادح، وأخرج له مسلم في المتابعات، وله في البخاري مواضع عديدة معلقة عنه وموضع واحد قال فيه : قال إبراهيم بن سعد عن أبيه عن ابن إسحاق فذكر حديثًا [3].

ومن هذا العرض يتبين لنا أن علماء هذا الشأن قد قبلوا روايات ابن إسحاق، ومنهم من وثقه ومنهم من وصفه بالصدق، ومن الذين

(١) عيون الأثر ١/ ٨ – ١٣، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٩ – ٤٦.
(٢) عيون الأثر ١/ ١٣.
(٣) هدي الساري ٤٥٨.

وصفوه بالصدق مع وصفه بالإمامة في المغازي الحافظ ابن حجر حيث يقول فيه : إمام في المغازي صدوق يدلس(١).

وحكم الحافظ ابن حجر ونحوه على ابن إسحاق بالصدق فقط وعدم بلوغه عنده درجة الثقة إنما كان بناءً على مقارنة مروياته في الحديث مع مرويات الثقات، فهو كذلك بالنسبة للحديث أما بالنسبة للمغازى والسير فقد حكموا له بأنه إمام في هذا الشأن، ولا يصل إلى الإمامة في العلم إلا من كان ثقة فيما يرويه، وإذا قارنا بين مروياته في السيرة مع مرويات الآخرين ممن حازوا على التوثيق نجده موافقاً لهم في الغالب مع تفوقه بكثرة المرويات، ومن هذا الباب حاز على الإمامة في هذا المجال.

أما اتهامه بالتدليس فقد أجاب عنه الحافظ ابن سيد الناس بأن تدليسه ليس من النوع الذي يقدح في العدالة (٢)، ويقصد بذلك أن تدليسه ليس عن الضعفاء والمجاهيل.

---

(١) تقريب التهذيب ٢/ ١٤٤.

(٢) عيون الأثر ١/ ١٣، وقد توفي ابن إسحاق عام ١٥١هـ.

سيرة ابن هشام :

في هذا الكتاب يرى القارىء اعتمادي في سيرة ابن إسحاق على رواية ابن هشام(1) عن زياد البكائي (2)مع الاستشهاد برواية ابن جرير الطبري (3)بأسانيده عن ابن إسحاق،وذلك لأن سيرة ابن إسحاق لا توجد اليوم كاملة، وقد طبع جزء يسير منها بتحقيق محمد حميد الله.

وقد لقي تهذيب ابن هشام لسيرة ابن إسحاق قبولاً وإعجاباً لدى العلماء على مر الأجيال، وكان ذلك من عوامل الاحتفاظ بها والإكثار من نسخها حتى كاد ينسى أصلها.

وكان من أسباب الثقة بهذه السيرة أنها مرت على ثلاثة من

---

(١) هو عبد الملك بن هشام بن أيوب العلامة النحوي الإخباري أبو محمد الذهلي السدوسي وقيل الحميري. ذكر ذلك الإمام الذهبي وقال: الأصح أنه ذهلي كما ذكره أبو سعيد بن يونس، وقال : هذب السيرة النبوية، وسمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق- سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٢٨.

(٢) هو زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري البكائي، قال عنه الحافظ ابن حجر : صدوق ثبت في المغازي وفي حديثه عن غير ابن إسحاق لين- التقريب ١/ ٢٦٨.

(٣) هو الإمام في التفسير والتاريخ وسائر العلوم الإسلامية أبو جعفر محمد بن جرير الطبري،قال عنه الخطيب البغدادي:«كان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله،وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره» تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣.وقال عنه الإمام الذهبي:«كان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرة تصانيف، قل أن ترى العيون مثله»-سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧-.

الأعلام المعتبرين في هذا الشأن وهم ابن إسحاق صاحب السيرة وجامعها، وزياد البكائي راويها عنه، وابن هشام راويها عن البكائي ومهذبها.

وقد ذكر ابن هشام في مقدمة السيرة أنه أعرض عن أشياء لم ير قبولها، وأنه أعرض عن أشياء لم يقرها له البكائي[1] وهذا دليل على أن هذه السيرة قد تعرضت لاختيار ابن إسحاق أولاً ثم لاختيار البكائى ثم لاختيار ابن هشام، وذلك يعدُّ توثيقاً لها من هؤلاء الأئمة.

هذا إضافة إلى أن أصحاب الكتب المختارة الذين يدونون ما يرونه مقبولاً في بابه قد ارتضوا هذه السيرة وأودعوها أو بعضها في كتبهم وعلى رأس هؤلاء الحفاظ : ابن سيد الناس وابن كثير والذهبي وابن حجر، وكفى بذلك توثيقاً لهذه السيرة.

هذا ومن باب الاعتراف بالفضل لأهله فإنني أثبت أنني استفدت من التعليقات التي جاءت في هوامش الكتب التي أكثرت العزو إليها مثل صحيح مسلم وسيرة ابن هشام، وقد أشرت إلى بعض ذلك في مواضعه.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١١، وقد توفي ابن هشام عام ٢١٨هـ.

أخبار النبي ﷺ قبل البعثة

إخبار أهل الكتاب عن نبوته ﷺ قبل مولده

من ذلك ما أخرجه المؤرخ محمد بن إسحاق، من حديث سلمة ابن سلامة بن وقَش رضي الله عنه، قال : كان لنا جار من يهود في بني عبدالأشهل، قال : فخرج علينا يومًا من بيته، حتى وقف على بني عبد الأشهل، قال سَلمَةُ : وأنا يومئذ من أحدث من فيه سنًّا، عليَّ بُردة لي، مضطجع فيها بفناء أهلي، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، قال : فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت ؛ فقالوا له، ويحك يا فلان! أو ترى هذا كائنًا ؛ أنَّ الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ويجزون فيها بأعمالهم؟! قال: نعم، والذي يُحلف به، ولودَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار، يُحمونه، ثم يدخلونه إياه، فيطينونه عليه؛ بأن ينجو من تلك النار غدًا! فقالوا له : ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟ قال : نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن ؛ فقالوا : ومتى تراه؟ قال : فنظر إليَّ – وأنا من أحدثهم سنًّا – فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه، قال سَلَمة: فو الله ما ذهبَ الليل والنهار حتى بعث الله محمدًا رسول الله ﷺ وهو حيٌّ بين أظهرنا،

فآمنا به وكفر به ؛ بغيًا وحسدًا! قال :فقلنا له ويحك يا فلان! ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟! قال : بلى،ولكن ليس به[1] !

قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال لي : هل تدري عمَّ كان إسلامُ ثعلبةَ بن سعية، وأُسيد بن سعية، وأسد بن عبيد ؛ نفر من بني هَدَل إخوة بني قريظة، كانوا معهم في جاهليتهم، ثم كانوا في الإسلام؟ قال : قلت : لا والله؛ قال : فإن رجلاً من يهود من أهل الشام يقال له : «ابن الهيَّبان» قدم علينا قُبيل الإسلام بسنين، فحلَّ بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلِّي الخمس[2] أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطرُ قلنا له : اخرج يا بن الهيَّبان فاستسق لنا، فيقول : لا والله، حتى تقدموا بين يدي مَخْرجكم صدقة، فنقول : كم؟ فيقول : صاعًا من تمر، أو مُدَّين من شعير، قال : فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرَّتنا، فيستسقي الله لنا، فو الله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونُسْقَى،

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢١٤، وأخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي – المستدرك ٣/ ٤١٧، وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، مجمع الزوائد ٨/ ٢٣٠، يعني فالحديث حسن.

(٢) يعني أنه غير مسلم.

قد فعل ذلك غير مرة، ولا مرتين، ولا ثلاث، قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟! قال : قلنا : إنك أعلم ؛ قال : فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكفُ(١) خروج نبي قد أظلَّ زمانه، وهذه البلدة مُهَاجره، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسبقُن إليه يا معشر يهود، فإنه يُبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه، فلما بُعث رسول الله ﷺ، وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتية – وكانوا شبابًا أحداثًا – يا بني قريظة، والله إنه لَلنبيُّ الذي كان عهد إليكم فيه ابنُ الهيَّبان، قالوا : ليس به، قالوا : بلى والله، إنه لهو بصفته، فنزلوا وأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم(٢).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني – رحمه الله - : وروى يعقوب ابن سفيان بإسناد حسن، عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : «كان يهودي قد سكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ قال : يا معشر قريش، هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا : لا نعلم، قال : فإنه

(١) أي : أتحرَّى وانتظر.

(٢) سيرة ابن هشام : ١/ ٢١٥ – ٢١٧.

ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة، بين كتفيه علامة، لا يرضع ليلتين؛ لأن عفريتًا من الجن وضع يده على فمه! فانصرفوا فسألوا، فقيل لهم: قد ولد لعبد الله ابن عبد المطلب غلام، فذهب اليهودي معهم إلى أمه، فأخرجته لهم، فلما رأى اليهودي العلامة خرَّ مغشيًّا عليه، وقال: «ذهبت النبوة من بني إسرائيل، يا معشر قريش، أما والله ليسطونَّ بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب »[1]!

وفي هذا الخبر دلالة على دقة ما جاء في التوراة والإنجيل من الأخبار عن رسول الله ﷺ، حيث كان ذلك اليهودي يعلم الليلة التي سيولد فيها الرسول ﷺ.

وأخرج محمد بن إسحاق من حديث حسان بن ثابت رضي الله عنه قال : « والله إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديًّا يصرخ بأعلى صوته على أُطُمه[2] بيثرب : يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك! ما لك؟! قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به.

قال محمد بن إسحاق : فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان

---

(١) فتح الباري : ٦/ ٥٨٣.

(٢) يعني : على حصنه.

ابن ثابت، فقلت : ابن كم كان حسان بن ثابت مقدم رسول الله ﷺ المدينة؟ فقال : ابن ستين سنة، وقدمها رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين (١).

العلامات التي صاحبت مولده ﷺ

من ذلك ما أخرجه الحافظ الطبراني من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه عن أمه: أنها حضرت آمنة أم النبي ﷺ، فلما ضربها المخاض، قالت : جعلت أنظر إلى النجوم تدلَّى، حتى أقول لتقعنَّ عليَّ، فلما ولدت خرج منها نور أضاء له البيت والدار، ذكره الحافظ ابن حجر وقال : وشاهده حديث العرباض بن سارية، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبدُ الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدلٌ في طينته! وسأخبركم عن ذلك : إنِّي دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى بي، ورؤيا أمِّي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يريْن »، وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورًا أضاءت له قصور الشَّام، أخرجه أحمد، وصححه ابن حبان والحاكم، قال : وفي حديث أبي أمامة عند أحمد نحوه، وأخرج ابن إسحاق، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ نحوه، وقالت : «أضاءت له بُصْرَى من أرض الشام » (٢).

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ١٦٦.

(٢) فتح الباري : ٦/ ٥٨٣.

رضاعه ونشأته في بني سعد[(١)]

أخرج الحافظان إسحاق بن راهويه، وأبو يعلى، من حديث عبدالله بن جعفر، قال: لما وُلد رسول الله ﷺ قدمت حَليمة بنت الحارث في نسوة من بني سعد بن بكر، يلتمسون الرُّضَعاء بمكة، قالت حليمة : فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي قمراء [(٢)]، ومعي زوجي الحارث بن عبد العُزَّى، أحد بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة، قد أدمت أتاننا [(٣)]، ومعي بالركب شارف[(٤)]، والله ما تبضُّ[(٥)] بقطرة من لبن، في سنة شهباء[(٦)]، قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد، ومعي ابن لي، والله ما ينام ليلنا، وما أجد في يدي شيئًا أعلله به، إلا أنَّا نرجو الغيث، وكانت لنا غنم فنحن نرجوها، فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عُرض عليها رسول الله ﷺ فكرهته، فقلنا : إنه يتيم، وإنما يُكرم الظئرَ ويحسن إليها الوالدُ، فقلنا : ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جده؟! فكل صواحبي أخذ رضيعًا، فلما لم أجد غيره رجعت إليه وأخذته، والله ما أخذته إلا أنِّي لم أجد غيره!

---

(١) قبيلة بني سعد تقع جنوب الطائف بمسافة ٧٥كم .

(٢) أي : على حمارة لي، لونها أبيض بخضرة.

(٣) أي : جرحت في رُكبها من أثر المشي.

(٤) أي ناقة مسنة.

(٥) أي : ما تدرُّ.

(٦) أي : مجدبة ليس فيها مطر.

فقلت لصاحبي : والله لآخذن هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئًا، فقال : قد أصبت، قالت: فأخذته، فأتيت به الرحل، فو الله ما هو إلا أن أتيت به الرحل فأمسيتُ أَقبل ثدياي باللبن، حتى أرويتُه وأرويت أخاه! وقام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها فإذا هي حافل، فحلبها، فأرواني وروي، فقال : يا حليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله عليها ما لَم نتمنَّ، قالت : فبتنا بخير ليلة شباعًا، وكنا لا نام ليلنا مع صبينا، ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء، فحملتُه معي، فو الذي نفس حليمة بيده، لقطَّعت الرَّكْب[1] حتى إن النسوة ليقلن : أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا : إنها كانت أدمت حين أقبلنا، فما شأنها؟! قالت : فقلت : والله حملت عليها غلامًا مباركًا، قالت : فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيرًا حتى قدمنا والبلاد سنةٌ، ولقد كان رعاتنا يسرحون، ثم يريحون، فتروح أغنام بني سعد جياعًا، وتروح غنمي شباعًا بطانًا حُفَّلاً، فنحتلب ونشرب، فيقولون : ما شأن غنم الحارث بن عبد العزَّى وغنم حليمة، تروح شباعًا حُفَّلاً وتروح غنمكم جياعًا، ويلكم! اسرحوا حيث تسرح رعاؤهم، فيسرحون

(١) أي : سبقت حمارتنا الركب.

معهم، فما تروح إلا جياعًا كما كانت، وترجع غنمي كما كانت!

قالت: وكان يشبُّ شبابًا ما يشبُّه أحد من الغلمان، يشبُّ في اليوم شباب الغلام في الشهر، ويشب في الشهر شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة أنا وأبوه، فقلنا : والله لا نفارقه أبدًا ونحن نستطيع، فلما أتينا أمَّه قلنا: أيُّ ظئر! والله ما رأينا صبيًّا قط أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباءَ مكة وأسقامها، فدعيه نرجع به حتى تبرئي من دائك[1]، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهرًا ثلاثة أو أربعة، فبينا هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْم[2] له، إذ أتى أخوه يشتدُّ، وأنا وأبوه في البُدْن [3]، فقال: إن أخي القرشي أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذاه واضطجعاه، فشقَّا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتد، فوجدناه قائمًا قد انتقع لونه [4]، فلما رآنا أجهش إلينا وبكى، قالت : فالتزمتُه أنا وأبوه فضممناه إلينا، فقلنا: مالك بأبي أنت؟! فقال : أتاني رجلان وأضجعاني فشقَّا بطني، وصنعا به شيئًا، ثم ردَّاه كما هو، فقال أبوه : والله ما أرى ابني إلا قد أصيب، الحقي بأهله فردِّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوف منه،

---

(١) يعني : أن أمه كانت مريضة.

(٢) يعني : صغار الغنم.

(٣) يعني : في رعي الإبل.

(٤) أي : تغير من شدة ما أصابه.

قالت : فاحتملناه، فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: مارجَعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟! فقلنا: لا شيء، إلا أن قد قضى الله الرضاعة، وسرَّنا ما نرى، وقلنا: نؤديه كما تحبون أحب إلينا، قال : فقالت: إن لكما شأنا فأخبراني ماهو؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله لا يصنع الله ذلك به، إن لابني لشأنًا، أفلا أخبركما خبره؟ إني حملت به، فو الله ما حملت حملاً قطُّ كان أخف عليَّ منه ولا أيسر منه! ثم أُريت حين حملته خرج مني نورٌ أضاء منه أعناقُ الإبل ببصري [(١)]! أو قالت: قصور بُصرى، ثم وضعته حين وضعته، فو الله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمدًا بيديه على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء! فدعاه عنكما، فقبضته وانطلقنا [(٢)].

وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه، ورجالهما ثقات [(٣)].

شق صدره وغسله وذر السكينة فيه

أخرج الإمام أحمد من حديث عتبة بن عبد السُّلمي ﷺ أنه حدثهم أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، فقال: كيف كان أول شأنك يارسول الله؟ قال: « كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت

(١) هي بلدة في الشام.

(٢) المطالب العالية، للحافظ ابن حجر : ٤/ ١٦٧ – ١٧١، حديث رقم : ٤٢٥٢.

(٣) مجمع الزوائد : ٨/ ٢٢٠، ٢٢١.

أنا وابن لها في بهم لنا [١] ولم نأخذ معنا زادًا، فقلت : يا أخي، اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طيران كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا فابتدراني، فأخذاني، فبطحاني إلى القفا، فشقا بطني، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء ثلج، فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد، فغسلا به قلبي، ثم قال : ائتني بالسكينة، فذرَّاها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه : خِطْه، فخاطه، وختم عليه بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفًا من أمته في كفَّة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخرَّ علي بعضهم، قال: لو أن أمته وزُنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني، وفرقْت [٢] فرقًا شديدًا، ثم انطلقت إلى أمي [٣] فأخبرتها بالذي لقيته، فأشفقت عليَّ أن يكون أُلبس بي [٤]،قالت : أعيذك بالله، فرحَّلتْ بعيرًا لها، فجعلتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أو أديتُ أمانتي وذمتي؟ وحدَّثتها بالذي لقيتُ، فلم يرْعها

---

(١) أي: صغار الغنم.

(٢) أي : خفت.

(٣) يعني : إلى أمه من الرضاعة حليمة السعدية.

(٤) أي : أصابه مسٌّ من الجن.

ذلك، فقالت: إني رأيت خرج مني نورٌ أضاءت منه قصور الشام [(١)] .

وذكره الحافظ الهيثمي وقال : رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن [(٢)] .

وأخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي [(٣)] .

وأخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لامّه [(٤)] ، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره)، فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون..»، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره [(٥)] .

وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه له

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتًا

(١) مسند أحمد : ٤/ ١٨٤ – ١٨٥.

(٢) مجمع الزوائد : ٨/ ٢٢٢.

(٣) المستدرك : ٢/ ٦١٦ – ٦١٧.

(٤) أي : جمع بعضه إلى بعض.

(٥) صحيح مسلم، رقم : ٢٦١، كتاب الإيمان : ١٤٧.

حسنًا؛ لما يريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب.

وقال : حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أن أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت ورسول الله ﷺ ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قدمت به على أخواله من بني عدي ابن النجار تُزِيرهُ إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة [1].

قال : فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جَفْر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فو الله إن له شأنًا، ثم يجلسه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

وقال ابن إسحاق : حدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس، عن بعض أهله، أن عبد المطلب توفي ورسول الله ﷺ ابن

(١) قال ابن هشام : أم عبد المطلب بن هاشم سلمي بنت عمرو النجارية، فهذه الخؤولة التي ذكر ابن إسحاق لرسول الله ﷺ فيهم.

ثماني سنين.

قال : فكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب، وكان عبد المطلب – فيما يزعمون – يوصي به عمه أبا طالب، وذلك لأن عبد الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأم، أمهما فاطمة بنت عائذ بن عمران بن مخزوم.

قال : وكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جده، فكان إليه ومعه [1].

حفظه في شبابه من المخالفات السلوكية

عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمُّون به من الغناء إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الفتيان، فقال : بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفًا وغرابيل ومزامير، قلت ما هذا؟ قيل: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فو الله ما

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ١٧٣، ١٧٤، ١٨٣.

أيقظني إلا مسُّ الشمس! فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلةً أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمُر بمكة، ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فو الله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس! فرجعت إلى صاحبي، فقال : ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته بالذي رأيت، فوالله ما همَمْت ولا عُدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته »، ذكره المؤرخ محمد بن يوسف الصالحي الشامي وقال : رواه ابن إسحاق، وإسحاق بن راهويه، والبزار، وابن حبان، وقال الحافظ (يعني ابن حجر العسقلاني) : وإسناده حسن متصل [(١)].

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم، وصححه على شرط مسلم، وأقره الحافظ الذهبي [(٢)]، وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات [(٣)].

---

(١) سبل الهدى والرشاد : ٢/ ١٤٨.
(٢) المستدرك : ٤/ ٢٤٥.
(٣) مجمع الزوائد : ٨/ ٢٢٦.

شهوده ﷺ حلف الفضول

قال ابن إسحاق : تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان ؛ لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده : بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم ابن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تُرد مظلمته، فسمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي، أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري، يقول : قال رسول الله ﷺ : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حُمر النعم، ولو أُدعَى به في الإسلام لأجبتُ »[(١)].

وقال الشيخ الألباني – رحمه الله – : هذا سند صحيح لولا أنه مرسل، ولكن له شواهد تقويه، فرواه الحميدي بإسناد آخر مرسلاً أيضًا كما في (البداية : ٢/ ٢٩)، وأخرجه الإمام أحمد (١٦٥٥، ١٦٧٦) من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعًا دون قوله : « لو دعيتُ به في الإسلام لأجبتُ »، وسنده صحيح[(٢)].

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/ ١٤٣.

(٢) هامش فقه السيرة، للغزالي : ٨٤.

سفره إلى الشام وإخبار بحيري الراهب عن نبوته ﷺ

أخرج الحافظ المؤرخ محمد بن جرير الطبري، من حديث عبدالله ابن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري قال :

وكان عبد المطلب يوصي برسول الله ﷺ عمَّه أبا طالب، وذلك أن أبا طالب وعبد الله أبا رسول الله ﷺ كانا لأم، فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جده، وكان يكون معه، ثم إن أبا طالب خرج في ركب من قريش إلى الشام تاجرًا، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير ضبَّ [1] به رسول الله ﷺ فيما يزعمون، فرقَّ له أبو طالب، فقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا، أو كما قال، فخرج به معه، فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له : بحيرَى، في صومعة له، وكان ذا علم من أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة مذ قط راهب [2]، إليه يصير علمهم عن كتاب – فيما يزعمون – يتوارثونه كابرًا عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببَحيرَى صنع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ، وهو في صومعته، عليه غمامة تُظلُّه من بين القوم، ثم أقبلوا

(١) أي : تعلق به.

(٢) أي : لم تخل تلك الصومعة من الرهبان منذ دهر.

حتى نزلوا في ظل شجرة قريبًا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلَّت الشجرة، وتهصَّرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيرَى نزل من صومعته[1]، ثم أرسل إليهم فدعاهم جميعًا، فلما رأى بحيرَى رسول الله ﷺ جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده في صفته، فلما فرغ القوم من الطعام وتفرقوا، سأل رسول الله ﷺ عن أشياء في حاله ؛ في يقظته، وفي نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره ؛ فيجدها بحيرَى موافقةً لما عنده من صفته.

ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، ثم قال بحيرَى لعمِّه أبي طالب : ما هذا الغلام منك؟ قال : ابني، قال له بحيرَى : ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا! قال : فإنه ابن أخي، قال : فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال : صدقت، ارجع به إلى بلدك، واحذر عليه يهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفته ليبغنه شرًّا، فإنه كائن له شأن عظيم، فأسرِعْ به إلى بلده، فخرج به عمه سريعًا حتى أقدمه مكة[2].

---

(١) الصومعة هي مكان العبادة المنعزل عن الناس .

(٢) تاريخ الطبري : ٢/ ٢٢٧، ٢٧٨.

وأخرجه الحافظ الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري ﵁، وقال: هذا حديث حسن غريب،لانعرفه إلا من هذا الوجه [1].

وذكره الحافظ ابن حجر من رواية الترمذي، وقال : رجاله ثقات [2].

ونقل الشيخ الألباني تصحيح الجزري له وصححه [3].

خبر بنيان الكعبة وموقف الرسول ﷺ

أخرج الحافظ إسحاق بن راهويه من حديث أبي الطفيل عامر ابن واثلة الليثي ﵁، قال : كانت الكعبة في الجاهلية مبنية بالرَّخم ليس فيه مَدَر[4]، وكانت قدر ما يقتحمها العناق [5]، وكانت غير مسقوفة، إنما تُوضع ثيابها عليها، ثم يسدل سدلاً عليها، وكان الركن الأسود موضوعًا على سورها باديًا، وكانت ذات ركنين، كهيئة الحَلقة، مربعة من جانب ومدوَّرة من جانب، فأقبلت سفينة من أرض الروم،حتى إذا كانوا قريبًا من جُدَّة انكسرت السفينة، فخرجت

---

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب : ٥/ ٥٩١، رقم : ٣٦٢٠.

(٢) الإصابة : ١/ ١٧٩، رقم : ٧٩٥.

(٣) فقه السيرة، للغزالي : ٧٧.

(٤) أي : بالحجارة الكبيرة من غير طين بينها.

(٥) الأنثى من أولاد المعز قبل استكمالها السنة.

قريش ؛ ليأخذوا خشبها، فوجدوا روميًّا عندها، فأخذوا الخشب، فأعطاهم إياها، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي كان في السفينة نجارًا، فقدموا بالخشب، وقدموا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب بيتَ ربنا، فلما أرادوا هدمه، إذا هم بحيَّة على سور البيت، بيضاء البطن، سوداء الظهر، فجعلت كلما دنا أحدٌ إلى البيت ليهدمه أو يأخذ من حجارته سعت إليه فاتحة فاها! فاجتمعت قريش عند المقام فعجُّوا إلى الله، قال: وقالوا : رَبَّنا، لم تُرَعْ، أردنا تشريف بيتك وتزيينه، فإن كنت ترضى ذلك، وإلا فما بدا لك فافعل، فسمعوا خُوارًا في السماء، فإذا هم بطائر أعظم من النسر، أسود الظهر، أبيض البطن والرجلين، فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق بها يجرها وذنبها ساقط، حتى انطلق بها نحو أجياد! فهدَّمتها قريش، فجعلوا يبنونها بحجارة الوادي، تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعًا، فبينا رسول الله ﷺ يحمل حجارة من أجياد وعليه نمرة فضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمرة على عاتقه، فتُرى عورته من صغر النمرة،فنودي :يا محمد، خمِّر عورتك! فلم يُرَ عريانًا بعد ذلك، وكان بين بنائها وبين ما أنزل الله عليه خمس عشرة سنة [1].

---

(١) المطالب العالية : ٤/ ١٨٢ – ١٨٤، رقم : ٤٢٦٦.

وذكره الحافظ الهيثمي : وقال:رواه الطبراني في الكبير بطوله، وروى أحمد طرفًا منه،ورجالهما رجال الصحيح [(١)].

وعن علي ﷺ قال : لما أرادوا – يعني قريشًا – أن يرفعوا الحجر – يعني الحجر الأسود – اختصموا فيه، فقالوا : يحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، قال: وكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم، فجعلوه في مرط، ثم رفعه جميع القبائل كلها، ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب ؛ يعني قبل البعثة.

ذكره الحافظ ابن حجر من رواية أبي بكر ابن أبي شيبة [(٢)]، وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام أحمد، وجاء فيه: أنهم قالوا : اجعلوا بينكم حكمًا، قالوا : أول رجل يطلع من هذا الفجِّ، فجاء النبي ﷺ، فقالوا : أتاكم الأمين، فقالوا له : فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو ﷺ.

قال الهيثمي : وفيه هلال بن خباب، وهو ثقة، وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح [(٣)].

---

(١) مجمع الزوائد : ٣/ ٢٨٩.

(٢) المطالب العالية : ٤/ ١٨٥، رقم : ٤٢٦٧.

(٣) مجمع الزوائد : ٣/ ٢٩١، ٢٩٢.

خبر زواجه ﷺ بخديجة بنت خويلد

أخرج الإمام أحمد والطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ ذكر خديجة، وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه، فصنعت طعامًا وشرابًا، فدعت أباها ونفرًا من قريش، فطعموا وشربوا حتى ثملوا، فقالت خديجة: إن محمد بن عبد الله يخطبني فزوجني إياه، فخلَّقتْه وألبسته حلة، وكذلك كانوا يفعلون بالآباء، فلما سُري عنه سكره نظر فإذا هو مخلَّق وعليه حلة، فقال : ما شأني؟ ما هذا؟ قالت: زوجتني محمد بن عبد الله، فقال : أنا أزوج يتيم أبي طالب؟ لا، لعمري، قالت خديجة: ألا تستحي! تريد أن تسفِّه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران؟! فلم تزل به حتى رضي»!

ذكره الحافظ الهيثمي وقال : ورجال أحمد والطبراني رجال الصحيح [(١)].

قال المؤرخ محمد بن إسحاق : وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليه، قال: وهي خديجة بنت خويلد بن أسد

(١) مجمع الزوائد : ٩/ ٢٢٠.

بن عبد العزى بن قصي[1]؛ يعني أنها تلتقي مع رسول الله ﷺ في جده الخامس.

قال: فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم: القاسم، وبه كان يُكنى ﷺ، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، عليهم السلام.

قال: فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه ﷺ.

قال ابن هشام: وأما إبراهيم فأمه مارية القبطية؛ يعني الجارية التي أهداها إليه المقوقس حاكم مصر.

تسليم الحجر على رسول الله ﷺ

أخرج الإمام مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « إني لأعرفُ حجرًا بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث، إنِّي لأعرفُه الآن »[2]!

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ١٩٢، ١٩٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل: ١٧٨٢، رقم: ٢٢٧٧.

إشراقة النور الإلهي (بدء الوحي)

بينما كانت البشرية تعيش في دياجير الظلمات الحالكة، وتعاني من أنماط الحياة المهلكة، حيث خيم عليها الطغيان البشري الضاغط والجهل العالمي الجاثم، والاستسلام للشهوات المنحرفة من غير رادع ولازاجر، إذا بشعاع النور الإلهي يهبط فجأة من السماء لينير جنبات الأرض، يحمله الروح الأمين عليه السلام فيفاجئ به سيد المرسلين ﷺ وهو في غار حراء، قد خلا للتأمل والتعبد بعيدًا عن جلبة الناس وضجيجهم.

وإنَّ أفضل من يحدثنا عن هذا الحادث العظيم الذي تغير له وجه التاريخ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد، قبل أن ينـزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ.

قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد [1]، ثم أرسلني فقال : اقرأ. قلت : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال : اقرأ. فقلت : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ [2] فرجع بها [3] رسول الله ﷺ يرجف فؤاده.

فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال:زَمِّلوني زَمِّلوني، فَزَمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة : كلا والله لايخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ،وتَكْسِبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

---

(١) الغط بمعنى الضغط و المقصود منه تنبيه النبي ﷺ، ولئن كانت وسائل التنبيه عند العرب تتحدد بدلالات الألفاظ كالحض والاستفهام مثل قولهم هلا أنبئك وألا أنبئك، كما تتحدد بتغيير هيئة الجلوس، فإن الوسائل التي استخدمها جبريل عليه السلام كانت بالضغط الشديد ثلاث مرات، وماذاك إلا لإشعار النبي ﷺ بأن ما هو مقدم على سماعه وتبليغه أمر في غاية العظمة، وأن تلقيه يحتاج إلى تفريغ الفكر من كل العلائق الدنيوية ليكون في غاية الاستجماع والتركيز.

(٢) ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾،كما جاء في الروايات الأخرى، ومنها ما رواه محمد بن إسحاق من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما – البداية والنهاية (٣/ ١٢) .

(٣) يعني بأول سورة العلق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى – ابن عم خديجة – وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي فقالت له خديجة : يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: ياابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، ياليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيَّ هم؟ قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن تُوفي، وفتر الوحي (١).

لقد كانت الأرض كلها تعيش في ذلك الزمن في ظلمات الجاهلية، فكانت بداية انطلاق النور الإلهي في تلك اللحظة التي خاطب بها جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ.

ولقد حل ذلك النور في قلب رسول الله ﷺ حتى تحول إلى مصباح متحرك يضيء لمن حوله، وأصبح يراه من زالت عن عينيه

(١) صحيح البخاري – كتاب بدء الوحي – رقم ٣، صحيح مسلم – كتاب الإيمان – رقم ١٦٠.

الغشاوة فينجذب إليه ويترقى بهديه نحو الكمال.

لقد كان وقع نزول الوحي شديدًا على رسول الله ﷺ كما هو واضح من هذا النص على الرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلبًا كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله تعالى ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر.

ولقد كان موقفًا رهيبًا ومسؤولية عظمى لايقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرسالة وتبليغها.

ومما يصور رهبة هذا الموقف ماجاء في هذه الرواية من قول رسول الله ﷺ «لقد خشيت على نفسي» وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث « فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع».

ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ما أخرجه الإمامان البخاري ومسلم رحمهما الله من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : «ولقد رأيته – تعني رسول الله ﷺ - ينزل عليه الوحي في

اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عرقًا » [1].

وما أخرجه الإمام مسلم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كان نبي الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كُرب لذلك وتربَّد وجهه» [2].

---

(١) صحيح البخاري – كتاب بدء الوحي – رقم ٢، صحيح مسلم – الفضائل رقم ٢٣٣٣.

(٢) صحيح مسلم، الفضائل رقم ٢٣٣٤.

أول من أسلم

ذكرنا أن أول من أسلم على الإطلاق وآمن برسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ثم أسلم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كما أخرج ابن هشام من طريق البكائي، قال: قال ابن إسحاق: ثم كان أوَّل ذَكَر من الناس آمن برسول الله ﷺ معه وصدَّق بما جاءه من الله تعالى ؛ علَيٌّ بن أبي طالب ابن عبد المطلب بن هاشم، رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين.

وكان مما أنعم الله به على عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان في حِجْر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج، قال: كان من نعمة الله على عليِّ بن أبي طالب، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير ؛ أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه – وكان من أيسر بني هاشم - : يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً،

فنكْفُلهُما، فقال العبَّاس : نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له : إنا نريد أن نخفِّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما عَقِيلاً فاصنعا ما شئتما، قال ابن هشام : ويقال: عقيلاً وطالبًا.

فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل عليٌّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًّا ؛ فاتبعه عليٌّ رضي الله عنه ؛ وآمن به وصدَّقه، ولم يزل جعفر عند العبَّاس حتى أسلم واستغنى عنه.

قال ابن إسحاق: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج علي بن أبي طالب مستخفيًا من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يُصليان ؛ فقال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي، ماهذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال : « أي عمِّ، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم (أو كما قال رسول الله ﷺ) بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم، أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني

إليه وأعانني عليه »، أو كما قال، فقال أبو طالب : أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخْلَص إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ.

وذكروا أنه قال لعلي : أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟

فقال : يا أبت، آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته، فزعموا أنه قال له : أما إنه لم يدْعُك إلا إلى الخير، فالزمْه[1].

وأخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن إسحاق، وذكر مثله[2].

ولاشك أن دخول علي بن أبي طالب – على صغر سنه –في الإسلام الذي لم يكن يمثله إلا رسول الله ﷺ وخديجة، ومخالفته دين أبيه وأعمامه.. يُعدُّ موقفًا جليلاً.

ثم دخل في الإسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق : ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب ابن عبد العزَّى بن امرئ القيس الكلبي، مولى رسول الله ﷺ، وكان

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٠.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣١٣.

أول ذَكرٍ أسلم بعد علي بن أبي طالب.

ثم ذكر ابن هشام خبر استرقاقه ومصيره إلى رسول الله ﷺ، وإعتاقه وتبنِّيه إياه، وذلك قبل أن يوحى إليه[1].

فهؤلاء الثلاثة : خديجة، وعليٌّ، وزيد، هم أول من أسلم، وكلُّهم كانوا في بيت النبي ﷺ، أما أول من أسلم خارج بيت النبي ﷺ فهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كما سيأتي، وعلى ذلك يُحمل ما جاء من الأخبار عنه بأنه أول من أسلم، وذلك كالخبر الذي أخرجه الحاكم من حديث الشعبي قال : سألت ابن عباس – أو سئل – : من أول من أسلم؟ فقال : أما سمعت قول حسان رضي الله عنه :

إذا تـذكرتَ شـجوًا مـن أخي ثقة
فاذكـر أخـاك أبـا بكـر بما فعَلا
خـير البريـة أتقـاها وأعـدلُها
بـعـد النبي وأوفـاهـا بما حمـلا
الـثـاني التالي المحمـودُ مـشهده
وأول الناس منهم صدَّق الرسلا[2]

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٢.

(٢) المستدرك ٣/ ٦٤ وسكت عنه الحاكم والذهبي.

إسلام أبي بكر واهتمامه بالدعوة

أسلم أبو بكر رضي الله عنه بدعوة من النبي ﷺ في أوائل المرحلة السرية.

قال ابن إسحاق بعدما ذكر إسلام خديجة وعلي وزيد رضي الله عنهم: ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة.

قال : وكان رسول الله ﷺ يقول – فيما بلغني – : «مادعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ماكان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ماعَكَم حين ذكرته له وماتردد فيه».

وقوله «كبوة» أي امتناع ، و«عكم» أي تلبث [1].

وبعد أن أسلم أبو بكر دعا إلى الله في هذه المرحلة الحرجة ، حتى أسلم على يده شباب كان لهم دور كبير في مستقبل الجهاد والدعوة.

وقد ذكر محمد بن إسحاق رحمه الله شيئًا من مآثره في الدعوة حيث قال: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه – يعني لخاصة من يثق به – ودعا إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ ، وكان أبو بكر رجلاً مؤلفًا لقومه محببًا سهلاً وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٥.

كان فيها من خير أو شر ، وكان رجلاً تاجرًا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الله تعالى وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه.

ثم ذكر الخمسة الذين أسلموا على يديه في أول الإسلام ، وهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.

قال : فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلَّوا [(١)].

هذا النص يبين لنا شيئا من مآثر أبي بكر رضي الله عنه في الدعوة إلى الإسلام ، فهؤلاء الخمسة المذكورون الذين أسلموا على يديه كلهم أصبحوا من المبشرين بالجنة ، ومن أكابر أهل الحل والعقد في الإسلام وهم إضافة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهم كانوا أهل الشورى الذين جعل عمر رضي الله عنه الخلافة فيهم.

فكم هي فضائل أبي بكر رضي الله عنه ، وكم هي سوابقه على المسلمين!

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٤.

إنه لم يكتف بأنه غامر بنفسه فاتبع دينًا لايمثله خارج بيت النبي ﷺ أحد ، وفي ذلك مافيه من المغامرة ، بل صار يدعو من يثق بهم سرّا إلى اتباع هذا الدين الجديد ، فاستجاب له هؤلاء العظماء الذين صار لهم في مستقبل الإسلام شأن كبير.

ولاشك أن الذين أسلموا واتبعوا النبي ﷺ وهو وحيد ليس معه أحد أو معه النفر اليسير.. لاشك أن لهم مكانة وفضلاً كبيرًا في الإسلام ، فإن الإقدام على دين جديد يهدم الأديان السائدة في المجتمع أمر له خطورته ،وهؤلاء الذين أقدموا على الإسلام آنذاك يدركون خطر ماتوجهوا إليه، لذلك أمرهم النبي ﷺ بكتمان دعوتهم ، وظلوا يدعون إلى الله تعالى سرّا حتى أذن لهم النبي ﷺ بإعلان الدعوة بعد ثلاث سنوات من البعثة.

وإن استمرار هؤلاء الصحابة على دعوتهم السرية ومقدرتهم على كتمانها طيلة هذه المدة أمر يستحق الإشادة والتقدير ، والدراسة والتأمل ، خاصة مع ملاحظة عيشهم في مجتمع صغير بالقياس إلى حياة المدن في العصر الحاضر ، فكم هي الإحراجات التي مروا بها مع أهاليهم وقومهم! وكيف استطاعوا التخلص منها!

إن كتمان الدعوة يحصر انتشارها بلا شك ، وكان هذا واقعًا

اضطراريّا تمليه هيمنة الباطل ، ولكنه مع ذلك يصنع رجالاً كاملين في مواهبهم وقدراتهم ، لأنهم يحسون من أول خطوة في الطريق أنهم يواجهون معركة بعيدة المدى ، فيخرجهم هذا الشعور من حياة الدعة والسكون التي قد تعطل بعض المواهب والقدرات ، وهكذا تمت تربية أولئك العظماء في تلك الفترة.

وفي قولـه عن أبي بكر : «وكان رجال من قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته» إشارة إلى عامل مهم من عوامل نجاح الداعية ، وهو أن يكون متعدد المواهب، له مشاركة في عدد من الجوانب التي تربطه بالمجتمع ، فيأتي إليه في كل جانب طائفة من الناس، فإذا توافر لديه مع ذلك الدافع القوي الذي يجعله يبذل كل طاقته في سبيل دعوته فإنه يعمل عمل عدد من الناس، وينجح في اجتذاب الكثير منهم.

هذا وقد بذل أبو بكر ماله في سبيل خدمة الدعوة الإسلامية ، كما جاء في خبر ذكره الحافظ ابن حجر عن يعقوب بن سفيان بإسناده عن عروة بن الزبير ﷺ قال : أسلم أبو بكر وله أربعون ألفًا فأنفقها في سبيل الله... » ثم ذكر المماليك السبعة الذين أعتقهم [1].

---

(١) الإصابة ٢/ ٣٣٤.

دعوة بني عبد المطلب
(وموقف لعلي رضي الله عنه)

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن علي بن أبي طالب ﵁ قال : جمع رسول الله ﷺ ، [أو قال دعا رسول الله ﷺ] بني عبد المطلب ، فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرَق [(١)]!

قال فصنع لهم مُدًّا من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا ، قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمسَّ، ثم دعا بغَمْر [(٢)]، فشربوا حتى رَوُوا ، وبقي الشراب كأنه لم يمس ، - أو قال: لم يُشرب- فقال: يا بني عبد المطلب ، إني بُعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة ، وقد رأيتم من هذه الآية مارأيتم ، فأيُّكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟ قال: فلم يقم إليه أحد ، قال: فقمت إليه وكنت أصغر القوم، قال: فقال: اجلسْ قال: ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لي اجلس ، حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي [(٣)].

وهكذا بدأ النبي ﷺ بعشيرته الأقربين فدعاهم إلى الإسلام

---

(١) الجذعة الشاة الصغيرة ، والفرق بفتح الراء مكيال يتسع لستة عشر رطلاً ، وقوله «كلهم» أي كل واحد منهم.

(٢) يعني بشراب كثير.

(٣) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر٢/ رقم ١٣٧١،وقال أحمد شاكر رحمه الله : إسناده صحيح. وذكره الإمام الهيثمي من رواية الإمام أحمد وقال:رجاله ثقات – مجمع الزوائد ٨/ ٣٠٢.

وحماية دعوته فلم يستجب منهم غير علي بن أبي طالب ﷺ على الرغم من مشاهدتهم تلك المعجزة الظاهرة من تكثير الطعام والشراب وبقائه بعد أكلهم وشربهم وكأنه لم يمس ، مع أن فيهم – كما في الرواية- من اشتهروا بكثرة الأكل والشرب.

لقد اجتمع في ذلك الموقف أكابر بني عبد المطلب ومع رهبة الموقف فإن علي بن أبي طالب ﷺ أبدى استعداده ثلاث مرات لبيعة النبي ﷺ رغم صغر سنه وهذا دليل واضح على قوة إيمانه وشجاعته المبكرة التي أصبحت فيما بعد مضرب الأمثال.

مثل من ثبات الصحابة علي دينهم واعتزازهم به

(خبر سعد بن أبي وقاص وأصحابه)

قال ابن إسحاق : وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا، ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْيِ بعير فشجَّه، فكان أول دمٍ هُريق في الإسلام[1] .

هذا الخبر يدل على مقدار ما واجهه الصحابة رضي الله عنهم في مبدأ الإسلام من محاصرة المشركين ومتابعتهم إياهم ؛ حتى اضطروهم إلى الاستخفاء بصلاتهم في الشِّعاب النائية، ومع ذلك وصل إليهم المشركون، فناكروهم، وعابوهم، وقاتلوهم.

إن محافظة هؤلاء الصحابة على دينهم وحماسهم في الدعوة إليه مع ذلك الاضطهاد الشديد من أعدائهم دليل على قوة إيمانهم، وهو موقف جليل يُكتب في سجلهم الحافل بالمواقف العالية .

وهكذا رأينا هؤلاء العظماء الأبطال قد اضطروا إلى الاستخفاء

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦١، وتاريخ الإسلام للذهبي ١/ ١٤٧.

بأبرز شعائر دينهم وهي الصلاة، فأصبحوا يقيمونها في الشعاب والأودية ؛ خوفًا من سخرية المشركين وبطشهم، ومع ذلك لم يتركوا الصلاة، فكيف بالمسلمين الذي أقيمت لهم المساجد العامرة بالمصلِّين، المزودة بكل وسائل الراحة والنشاط، ومع ذلك يهجرها طائفة من المسلمين زهدًا فيها، وإيثارًا لمتاع الدنيا ولهوها؟!

إنه أمر منكر عجيب يدل على البون الشاسع بين مستوى إيمان الصحابة رضي الله عنهم وإيمان من جاء بعدهم، والتفوق الواضح للصحابة في مجال الفهم والتطبيق.

كما أن هذا النص يدلنا على مستوى العزة التي ارتفع إليها المسلمون آنذاك على الرغم من ضعفهم وقلتهم، حيث قام أولئك النفر بمدافعة من داهمهم من المشركين ولم يستخذوا لهم، وفي ذلك إعزاز ظاهر للإسلام، وتثبيت لوجوده في الأرض.

مثل من الثبات على الشدائد

(إسلام خالد بن سعيد بن العاص)

أخرج الإمام البيهقي بإسناده عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان قال : كان إسلام خالد – يعني ابن سعيد بن العاص – قديمًا ، وكان أول أخوته أسلم ، وكان بدء إسلامه أنه رأى في النوم أنه وُقف به على شفير النار ، فذكر من سعتها ما الله أعلم به ، ويرى في النوم كأن أباه يدفعه فيها، ويرى رسول الله ﷺ أخذ بحقويه لايقع ، ففزع من نومه فقال : أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق.

فلقي أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه فذكر ذلك له فقال أبو بكر : أريد بك خير ، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه ، فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام ، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها وأبوك واقع فيها.

فلقي رسول الله ﷺ وهو بأجياد فقال : يامحمد إلام تدعو؟ فقال: أدعو إلى الله وحده لاشريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولايبصر ولاينفع ولايدري من عبده ممن لم يعبده.

فقال خالد : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه ، وتغيب خالد ، وعلم أبوه بإسلامه فأرسل في

طلبه ، فأتي به فأنَّبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه ، وقال : والله لأمنعنك من القوت ، فقال خالد : إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يلزمه ويكون معه [1] .

وهكذا هدى الله تعالى خالد بن سعيد بن العاص بتلك الرؤيا المباركة، فأخرجه بها من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد ، وكان يقينه بالإسلام قويّا حيث لم يتزعزع إيمانه لما وبخه أبوه وضربه وهدده بقطع رزقه مع أن أباه كان من سادة أهل مكة الكبار ، بل أعلن خالد استغناءه عن أبيه واعتماده الكامل على الله تعالى وحده ، وثبت رضي الله عنه على حياة الفقر لأنه أحس بأن الإسلام هو سعادة الروح ، وأيقن بأن الحياة الدنيا لاتساوي شيئًا أمام الآخرة ، فلتكن الدنيا كما يريد الكفار المتسلطون حياة بؤس وفاقة على المسلمين فإن الموازين ستتبدل في الآخرة فيصبح المسلمون هم أصحاب الحياة السعيدة الخالدة ، وقد تتبدل في الدنيا حينما ينتصر المسلمون وتكون لهم الدولة والهيمنة في الأرض .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٧٢ ، وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من هذا الطريق وذكر مثله – المستدرك ٣/ ٢٤٨. وذكره الحافظ ابن كثير من رواية البيهقي بإسناده – البداية والنهاية ٣/ ٢٤٨.

مثل من الدعوة الناجحة والتضحية الخالدة
(إسلام عمرو بن عبسة السُّلَمي)

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن أبي أمامة قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جُرَءَاءُ عليه قومه ، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» فقلت: ومانبي؟ قال: «أرسلني الله » فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: « أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لايشرك به شيء » قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حر وعبد»قال:ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به فقلت:إني متبعك.قال: « إنك لاتستطيع ذلك يومك هذا،ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني » ، قال فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: مافعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سِرَاعٌ. وقد أراد قومه

قتله فلم يستطيعوا ذلك.

فقدمت المدينة فدخلت عليه، فقلت: يارسول الله! أتعرفني؟ قال: « نعم. أنت الذي لقيتني بمكة؟ »...وذكر بقية الحديث وفيه أنه سأله عن الصلاة والوضوء [(١)].

ففي هذا الخبر موقف يذكر لعمرو بن عبسة حيث آمن بالنبي ﷺ في أوائل دعوة الإسلام وفي حال قلة المسلمين وكثرة أعدائهم، ولم يقتصر على ذلك، بل أبدى رغبته في مصاحبة النبي ﷺ والبقاء معه في ذلك الظرف العصيب، ولكن النبي ﷺ قبل منه إسلامه، وأبان له بأنه لايستطيع أن يتحمل مشقة الصحبة والاتباع في ذلك الوقت، لما سيتعرض له من الأذى الشديد على يد الكفار ولكون النبي ﷺ لايستطيع حمايته.

وقد جاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل النبي ﷺ عن الإسلام بعد أن علم بأنه رسول الله ﷺ، فقال: وبأي شيء أرسلك؟ فقال النبي ﷺ: « أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لايشرك به شيء » وفي هذا دليل على أهمية صلة الأرحام حيث كان

---

(١) صحيح مسلم ٥٦٩ رقم ٨٣٢، كتاب صلاة المسافرين.

هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام،مع اقترانه بالدعوة إلى التوحيد.

وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوة مع أنها كانت أقدس شيء عند العرب،وفي هذا دلالة على أهمية إزالة معالم الجاهلية، وأن دعوة التوحيد لاتستقر ولاتنتشر إلابزوال هذه المعالم.

وفي اهتمام النبي ﷺ المبكر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالة على أن أمور الدين لايجوز تأخير بيانها للناس بحجة عدم القدرة على تطبيقها، فالذين يبينون للناس من أمور الدين مايستطيعون تطبيقه بسهولة وأمن، ويحجمون عن بيان أمور الدين التي يحتاج تطبيقها إلى شيء من المواجهة والجهاد.. هؤلاء دعوتهم ناقصة، ولم يقتدوا برسول الله ﷺ الذي واجه الجاهلية وطغاتها وهو في قلة من أنصاره، والسيادة في بلده لأعدائه.

وجاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل رسول الله ﷺ عن أتباعه فقال « حر وعبد» وقد فسر ذلك عمرو بأن المراد أبو بكر وبلال، وهذا يحتمل أمرين:

الأول: أن الكلام على ظاهره وأنه لم يسلم في ذلك الوقت خارج بيت النبي ﷺ إلا أبو بكر وبلال، وبناء على ماسبق من أن أبا بكر هو

أول من أسلم يكون بلال ثاني رجل أسلم خارج البيت النبوي.

الثاني: أن هناك مسلمين آخرين ولكن النبي ﷺ أخفى ذكرهم لكونهم يخفون إسلامهم عن قومهم، بينما كان أبو بكر ظاهر الإسلام، وبلال قد ظهر إسلامه، فذكرهما لكونهما لايتضرران بهذا الذكر، وهذا هو الظاهر لأن عمرو بن عبسة علم عن الإسلام وهو في بلاده، وظهور الإسلام خارج مكة وعلم القبائل به كان بعد الجهر بالدعوة بينما كان المسلمون الأوائل قد دخلوا في الإسلام قبل الجهر بالدعوة كما سبق في إسلام الخمسة على يد أبي بكر.

ومما يدل على تأخر وفادة عمرو بن عبسة قوله في وصف النبي ﷺ «جُرءاء عليه قومه»، وقول النبي ﷺ « ألا ترى حالي وحال الناس؟» فهذا يدل على أن وفادته كانت بعد حدوث الخلاف والعداء من المشركين لرسول الله ﷺ، وذلك بعد أن جهر بنقد الجاهلية التي كان عليها قومه، وهذا النقد كان بعد الجهر بالدعوة، بل إنه قد جاء في هذا الخبر التصريح بكسر الأوثان وهذا كان بعد الجهر بالدعوة.

مواقف في الدعوة وإيثار الإسلام
قدوم أسرة زيد بن حارثة لطلبه

أخرج الحاكم – رحمه الله – بإسناده عن أسامة بن زيد بن حارثة ﵁ قال: كان حارثة بن شراحيل تزوج امرأة في طيئ من نبهان ، فأولدها جبلة ، وأسماء، وزيدًا ، فتوفيت وأخلفت أولادها في حجر جدهم لأبيهم، وأراد حارثة حملهم ، فأتى جدهم ، فقال: ما عندنا فهو خير لهم ، فتراضوا إلى أن حمل جبلة وأسماء وخلَّف زيدًا.

وجاءت خيل من تهامة من بني فزارة ، فأغارت على طيئ ، فسبَت زيدًا فصيَّروه إلى سوق عكاظ، فرآه النبي ﷺ من قبل أن يُبعث، فقال لخديجة – رضي الله عنها -: « يا خديجة، رأيت في السوق غلامًا من صفته كيت وكيت- يصف عقلاً وأدبًا وجمالاً – لو أن لي مالاً لأشتريته » ، فأمرت ورقة بن نوفل ، فاشتراه من مالها، قال: «يا خديجة، هبي لي هذا الغلام بطيب من نفسك » فقالت: يامحمد ، أرى غلامًا وضيئًا ، وأخاف أن تبيعه أو تهبه ، قال النبي ﷺ: «ياموفَّقةُ ، ما أردت إلا لأتبناه » ، فقالت: نعم يا محمد ، فربَّاه وتبنَّاه ، فكان يقال له: زيد بن محمد ».

فجاء رجل من الحي ، فنظر إلى زيد ، فعرفه ، فقال: أنت زيد بن

حارثة ، قال: لا ، أنا زيد بن محمد ، قال: لا، بل أنت زيد بن حارثة من صفة أبيك وعمومتك وأخوالك كيت وكيت، قد أتعبوا الأبدان وأنفقوا الأموال في سبيلك، فقال زيد:

أحنُّ إلى قــومي وإنْ كــنــت نائيًا
فـإني قـطـين البيت عـند المشاعـر
وكفُّوا من الوجه الذي قــد شجاكم
ولاتُعملوا في الأرض فـعل الأبـاعر
فإني بحـمــد الله في خــير أســرة
خيـار مَعَـدٍّ كـابرًا بــعـد كـابـر

فقال حارثة لما وصل إليه:

بكيت عـلى زيد ولـم أدر مــا فعــل
أحيٌّ فيرجى أم أتى دونــه الأجـــل
فــو الله مــا أدري وإنِّي لســائــل
أغالك سهل الأرض أم غالك الجــبل
فياليت شعري هل لك الدهر رجعة
فحسبي من الدنيا رجوعــك لي بَجَل (1)

---

(1) بجل أي حسبي.

تُذكِّرنيه الشمس عند طلوعها
ويعرض لي ذكراه إذا عسعس الطَّفَل [1]
إذا هبت الأرواح هيجن ذكره
فيا طول أحزاني عليه ويا وجل
سأعمل نص العيس [2] في الأرض جاهدًا
ولا أسام التطواف أو تسأم الإبل
فيأتي أو تأتي عليَّ منيتي
وكل امرئ فَانٍ وإن غَره الأمل

فقدم حارثة بن شراحيل إلى مكة في إخوانه وأهل بيته ، فأتى النبي ﷺ في فناء الكعبة في نفر من أصحابه فيهم زيد بن حارثة لما نظروا إلى زيد عرفوه وعرفهم ، ولم يقم إليهم إجلالاً لرسول الله ﷺ.

فقالوا له: يا زيد ، فلم يجبهم ، فقال له النبي ﷺ: « من هؤلاء يازيدُ؟ ».

قال: يارسول الله ، هذا أبي ، وهذا عمِّي ، وهذا أخي وهؤلاء عشيرتي.

---

(١) أي أقبل الغروب.
(٢) العيس هي الإبل ، يعني أنه سيجتهد في البحث عن زيد.

فقال له النبي ﷺ: « قم فسلِّم عليهم يازيد » ، فقام فسلم عليهم وسلَّموا عليه ، ثم قالوا له: امض معنا يا زيد.

فقال: ما أريد برسول الله ﷺ بدلاً ولا غيره أحدًا.

فقالوا: يا محمد ، إنَّا معطوك بهذا الغلام ديات فسمِّ ما شئت ، فإنَّا حاملوه إليك.

فقال: « أسألكم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنِّي خاتم أنبيائه ورسله وأرسله معكم» ، فتأبَّوا وتلكؤوا وتلجلجوا ، فقالوا: تقبل منا ما عرضنا عليك من الدنانير؟ فقال لهم: « ها هنا خصلة غير هذه؛ قد جعلت الأمر إليه، فإن شاء فليقم ، وإن شاء فليرحل ».

قالوا: ما بقي شيء ، قالوا: يا زيد ، قد أذن لك الآن محمد ، فانطلق معنا ، قال: هيهات هيهات ، ما أريد برسول الله ﷺ بدلاً ، ولا أوثر عليه والدًا ولا ولدًا ، فأداروه وألاصُوه واستعطفوه ، وأخبروه عمَّن وراءه من وَجْدهم ، فأبى وحلف ألا يلحقهم.

قال حارثة: أما أنا فأواسيك بنفسي ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأبى الباقون.

وأخرج الحاكم أيضًا من طريق أبي عمرو الشيباني: حدثني جبلة ابن حارثة- أخو زيد بن حارثة- قال: أتيت النبي ﷺ: فقلت:

يارسول الله ، ابعث معي أخي زيدًا ، فقال: « هو ذا هو ، إن أراد لم أمنعه » ، فقال زيد: لا والله لا أختار عليك أحدًا ، قال جبلة: إن رأي أخي أفضل من رأيي.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وهو شاهد للحديث الماضي ، وأقره الذهبي[1].

في هذا الخبر مواقف:

الأول: في اهتمام النبي ﷺ بالدعوة إلى الإسلام ؛ حيث اغتنم فرصة قدوم عشيرة زيد بن حارثة رضي الله عنه ليدعوهم إلى الإسلام ، خاصة وأنهم في فرحة غامرة بلقاء ابنهم ، وفي شوق بالغ لرجوعه معهم ، فلم يطلب من أسرة زيد مالاً، وإنما جعل مقابل سماحه بالعودة أن يدخلوا في الإسلام.

والموقف الثاني: في تعفُّفه ﷺ وترفُّعه عن الأموال التي حكَّموه في عددها في مقابل تخليه عن زيد، فلما فات ما قصده من إسلامهم جعل الخيار إلى زيد نفسه ، ففرحوا بذلك واعتبروه غاية التكرم والتفضل.

والموقف الثالث: في تعلق زيد بن حارثة برسول الله ﷺ وحبه

---

(١) المستدرك ٣/ ٢١٤.

الشديد له الذي فاق حب والده وعشيرته، حيث رفض الذهاب معهم رغم إلحاحهم الشديد ، ويترتب على ذلك إيثار الحب في الله تعالى على جميع العلاقات الدنيوية التي أبرزها حب القرابة.

لقد كان شعور زيد – كأي إنسان – ميل فطري إلى الأهل والعشيرة والوطن الذي درج فيه وهو في صباه، ولقد كان في إمكانه أن يذهب مع أسرته ويبقى على إسلامه ، ولكن حبه للنبي ﷺ قد ملأ قلبه ، حتى أصبح حبه لأبيه وأسرته لا يساوي شيئًا عند المقارنة بحبه لسيده ورسوله ﷺ ؛ لذلك قال: هيهات هيهات ، ما أريدُ برسول الله ﷺ بدلاً ، ولا أؤثر عليه والدًا ولا ولدًا ، فكان مصممًا في قراره على البقاء في مكة من اللحظة الأولى التي عرض عليه فيها أبوه العودة إلى بلده ، ولم يصدر منه أي تردد في هذا الأمر.

مثل من مساومة أهل الباطل وإصرار أهل الحق

لقد حرص زعماء الكفار على التأثير على النبي ﷺ ليترك دعوته أو ليتنازل عن بعضها مما يريدون منه، فمارسوا معه من أجل ذلك أنواعًا من الأذى، وجربوا معه ومع أتباعه فتنًا شتى فجربوا فتنة التخويف، فلما لم ينجحوا في التأثير عليه تحولوا إلى فتنة التأليف فحاولوا مساومته بأنواع من المغريات الدنيوية في مقابل التنازل منه عما يغيظهم من دعوته.

وقد اجتمعوا يومًا فتشاوروا في أمره، واستقر رأيهم على إرسال واحد منهم لمحاورة رسول الله ﷺ وإغرائه بالمغريات المادية التي يتنافس الناس عليها عادة من أجل أن يتنازل عن تصلبه في دعوته، وأن يترك التعرض لأصنامهم وما استقر عليه أمرهم مما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم.

وقد انتدب لهذا الأمر عتبة بن ربيعة، وهو معروف عندهم بالحلم والتعقل.

أخرج الإمام البيهقي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل والملأ من قريش: لقد انتشر علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالمًا بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره.

فقال عتبة: لقد سمعت بقول السحرة والكهانة والشعر وعلمت من ذلك علمًا، ومايخفى علي إن كان كذلك، فأتاه، فلما أتاه قال له عتبة: يامحمد أنت خير أم هاشم، أنت خير أم عبد المطلب، أنت خير أم عبد الله؟ فلم يجبه.

قال: فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا مابقيت، وإن كانت بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ماتستغني بها أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت لايتكلم.

فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ

لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ
سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا
طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ
وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ
ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾
[سورة فصلت: ١ – ١٣].

فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم.

فقال أبو جهل: يامعشر قريش والله مانرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وماذاك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه، فأتوه فقال أبو جهل: والله ياعتبة ماحسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا مايغنيك عن طعام محمد،فغضب وأقسم بالله لايكلم محمدًا أبدًا.

قال: ولقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته – فقص عليهم القصة – فأجابني بشيء والله ماهو بسحر ولا شعر ولاكهانة، قرأ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا

عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴾.. حتى بلغ: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب فخفت أن ينـزل بكم العذاب(١) .

وأخرج ابن إسحاق في السيرة من خبر محمد بن كعب القرظي وذكر نحوه، وجاء في آخره: فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ماوراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ماسمعت مثله قط، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا:

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٣، ورواه الحاكم بنحوه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي – المستدرك ٢/ ٢٥٣ – ٢٥٤، وذكره الهيثمي من حديث جابر رضي الله عنه بنحوه وقال: رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات – مجمع الزوائد ٦/ ١٩ – وحسن الشيخ الألباني إسناده – هامش فقه السيرة للغزالي / ١١٣.

سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال:: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم [1].

وهكذا قام عتبة بمحاورة رسول الله ﷺ ليؤثر عليه في التخلي عن دعوته أو ليخفف منها، فأتاه وناقشه وأراد أن يحرجه بالمفاضلة بينه وبين آبائه فلم يجبه النبي ﷺ لأنه يريد هدايته كما أن عتبة يريد إضلاله، فلو أجابه بالحكم على آبائه بالضلال لنفر منه، فكانت الحكمة تقتضي عدم الإجابة على سؤاله.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يقول لعتبة: بل أنا أفضل من أبي وسائر أجدادي، ولو قال ذلك لم يَعْدُ الحقيقة لأنه سيد الخلق أجمعين، ولكنه بانشغاله بهذا الحوار الجانبي يتيح لعتبة فرصة الهجوم المضاد الذي يدفع إليه ماتوارثه المشركون من تقديس الآباء والأجداد، وبذلك تضيع الفرصة الذهبية التي قصد إليها رسول الله ﷺ من محاولة هداية عتبة، خصوصًا وأنه قد جاء وحده وكلُّه رغبة في الوصول إلى تغيير الوضع القائم آنذاك.

ولو أنه ﷺ أثنى على آبائه بما فيهم من صفات الخير من غير أن

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٣.

يفضلهم على نفسه لم يكن قد جاوز الحقيقة، ولكنه في ذلك يتيح الفرصة لعتبة لإلزامه بما يترتب على ذلك من اتباع دينهم، وهذا هو الأمر الذي استبعده النبي ﷺ، فكان يريد إغلاق هذا الباب لينتقل إلى ما أراده من دعوته إلى الهداية.

وقد يقال: إن عدم الإجابة يعدُّ اعترافًا بالعجز، ولكنه في الحقيقة غير ذلك لأن عدم الإجابة في مثل هذا الحوار يعني أن السؤال لايستحق الإجابة لأنه ليس في صميم الموضوع، وهكذا فهم عتبة لَمَّا أعرض عن متابعة لوازم ذلك السؤال وانتقل إلى سؤال آخر.

وفي هذا توجيه حكيم للداعية الذي يبتلى بالحوار مع الكفار وأشباههم ممن ينتسبون إلى الإسلام وهم يحاربون دعوته ودعاته، وذلك بأنه يشرع له أن لا يكون صريحًا معهم في إجاباته كلها، وأن لايلتزم بيان الحقيقة في الأمور الجانبية التي لاتشتمل على كتمان الحق، وهي في الوقت نفسه تؤثر على حواره معهم ومستقبل دعوته، بل يُطلب منه أن يتجاوز هذه الأمور بما تقتضيه الحكمة وتقديرُ الموقف، ليخلص إلى صلب الموضوع الذي انبثق عنه الخلاف وعقد من أجله الحوار.

بل إن في هذا توجيهًا للدعاة في الحوار الذي يجري بينهم حيث

يتجه بعض قصار النظر إلى إشغال ساحة الدعوة بالمفاضلة بين قادة الدعوة، فينتج عن ذلك تتبع لأخطائهم وتشويه لسمعتهم، مما يزيد من شقة الخلاف الدائر بين أتباع أولئك القادة، ويُشغِل عن بحث أمور المسلمين المهمة التي يجب أن يجتمع عليها الدعاة.

وبِغضِّ النظر عن الفارق الجوهري بين المشبه والمشبه به من حيث كونُ طرفي المفاضلة في المشبه من المسلمين، وكونُ أحد الطرفين في المشبه به من الكفار، فإن النتائج المترتبة على انتقاص بعض قادة الدعوة تؤدي إلي مايشبه النتائج التي أرادها عتبة بن ربيعة في حواره المذكور.

ولما أمسك رسول الله ﷺ عن إجابة عتبة على الأسئلة المذكورة أدرك عتبة أنه قد أساء الأدب بإحراج النبي ﷺ في ذلك، وعتبة إنما جاء سفيرًا عن قريش ليصل إلى أي حل يخفف من شدة الخلاف الدائر بينهم وبين المسلمين، وكونه يواجَهُ بالصمت من رسول الله ﷺ يعدُّ هزيمة له أمام الملأ من قريش، فلهذا ضرب صفحًا عن ذلك الحوار، ولم يحاول إلزام النبي ﷺ بنتيجته مع مالاح في الأفق من مظاهر نجاحه المتخيلة.

وانتقل عتبة حالاً إلى عرض مافي جعبته من تلك العروض

المغرية من المال والرئاسة وماشاء من الشهوات في مقابل أن يتخلى النبي ﷺ عن دعوته أو أن يفاوض المشركين في البقاء على دعوة لاتؤثر على دينهم الذي يقدسونه.

وهكذا عرض عتبة بن ربيعة على رسول الله ﷺ تلك العروض المغرية، فماذا كان جوابه عليه؟

لقد كان جوابه بتلاوة آيات من كتاب الله تعالى كان لها الأثر الحاسم في إنهاء الحوار لصالح الإسلام.

وقد كان عتبة موصوفًا بالحلم والحكمة فكان رسول الله ﷺ يؤمل في إسلامه بعد سماع الآيات القرآنية.

ولقد تأثر عتبة من سماع كلام الله تعالى حيث وصف القرآن الذي سمعه بقوله «قد سمعت قولاً ماسمعت مثله قط، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة» فأثبت أن القرآن لامثيل له، وهذا اعتراف منه بأنه ليس من كلام البشر، ثم نفى التهم الثلاث التي ألصقها قومه برسول الله ﷺ ووصفوا القرآن بها.

وكان في كمال عقله وإدراكه حينما أشار على قومه بترك رسول الله ﷺ وشأنه في الدعوة، وإثبات أن عزه يعدُّ عزّا لقريش فيما إذا نجح في دعوته وساد العرب.

وهكذا حينما كان عقلاء قريش يرجعون إلى عقولهم يدركون عظمة هذا الدين وصدق رسول الله ﷺ وتميز ماجاء به من الوحي على كلام البشر، ولكنهم سرعان ماتغلبهم عواطفهم وأهواؤهم المنحرفة فينطقون بكلام لايعتقدون بقلوبهم محتواه، وإنما يدفعهم إليه الحسد والهوى المنحرف.

وفي هذا الخبر مثل من نجاح النبي ﷺ في اختيار الآيات المناسبة للمقام، كما أنه مثال لقدرته الفائقة في التأثير على السامعين بتلاوته كتاب الله تعالى حيث يتلوه بكل مشاعره وأحاسيسه وهو يستحضر عظمة الله تعالى الذي خاطبه وأمته بهذا القرآن العظيم.

وهكذا ينبغي للدعاة أن يهتموا باختيار النصوص المناسبة وأن يعرضوها بقلوبهم مع ألسنتهم مستحضرين عظمة الله تعالى وجلاله حتى يكون أبلغ في التأثير على المخاطبين.

لقد تأثر عتبة بسماع القرآن ومال إلى الإسلام ولكن أبا جهل عرف كيف يؤثر عليه بلمزه من الجانب الذي ينفره من الإسلام، فهو ممن يعتز بسمعته وجاهه، فاتهمه أبو جهل بأنه مال إلى رسول الله ﷺ من أجل أن يصيب من طعامه، وكان ذلك كافيًا لإحداث أثر مضاد للأثر الأول، فأخذته الحَمِيَّة وأقسم أن لايكلم رسول الله ﷺ.

وهكذا رأينا في تصرف أبي جهل مثلاً من أمثلة الكيد والمكر التي يتقنها أعداء الإسلام ويخططون لها، حيث إنهم يقومون بدراسات دقيقة لمعرفة مداخل النفوس وإدراك مواطن الضعف فيها لينفذوا إلى الإنسان من هذه المواطن.

ولما لم تُجْد محاولة عتبة بن ربيعة ولم تصنع شيئًا مما أراده زعماء مكة من صرف النبي ﷺ عن دعوته بتلك المغريات اتفق رأيهم على عقد اجتماع لمجموعة منهم ليقوموا جميعا بحوار النبي ﷺ في هذا الموضوع ، وقد أخرج خبر ذلك الإمام ابن إسحاق من حديث سعيد ابن جبير أو عكرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث بن كَلَدة ، أخو بني عبد الدار، وأبو البَختري بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة،وأبو جهل بن هشام،وعبد الله بن أبي أمية ،والعاص بن وائل، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجَّاج السَّهْميَّان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم.

قال:اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعْذروا

فيه[1]،فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فأتِهم.

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظن أن قد بَدَا لهم فيما كلّمهم فيه بَدَاءٌ [2]،وكان عليهم حريصًا يحب رشدَهم ويعزّ عليه عَنَتُهم[3] حتى جلس إليهم، فقالوا له: يامحمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنا والله مانعلم رجلاً من العرب أدْخل على قومه مثلَ ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمت الآباء،وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيح إلا قد جئْتَه فيما بيننا وبينك – أو كما قالوا له – فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا[4]، وإن كنت تريد به مُلْكًا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئيًّا – فربما كان ذلك بذلنا لك من

---

(١) أي تبلغوا منه العذر.

(٢) أي ظهر لهم في شأنه أمر.

(٣) يعني مشقتهم.

(٤) نجعلك سيدًا.

أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه.أو نُعذِر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: مابي ماتقولون، ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغْتُكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا منّي ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ، أو كما قال رسول الله ﷺ.

قالوا: يا محمد ، فإن كنت غير قابل منَّا شيئًا مما عَرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحدٌ أضيق بلدًا، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشًا منَّا ، فَسلْ لنا ربَّك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنَّا هذه الجبالَ التي ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجِّر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول: أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدَّقوك وصنعت ما سألناك صدَّقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: « ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بَلَّغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن

تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم ».

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخُذه لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك مَلكًا يصدِّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يُغنيك بها عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمس ؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا » ، أو كما قال ، « فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم ».

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا[1] كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنَّا لانؤمن لك إلا أن تفعل ، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل ».

قالوا: يا محمد ، أفعلم ربُّك أنَّا سنجلس معك ونسألك عما

---

(١) جمع كسفه بكسر فسكون بمعنى القطعة من الشيء.

سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدَّم إليك فيُعلمك ما تُراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانعٌ في ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له: الرحمن ، وإنا والله لانؤمن بالرحمن أبدًا ، فقد أعذرنا إليك يامحمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منَّا حتى نُهلكك أو تُهلكنا ، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة ، وهي بنات الله ، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً[(١)] .

لما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته ، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب ، فقال له: يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، أو كما قال له ، فو الله لا أؤمن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّما ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي معك بصَكٍّ

(١) مقابلة ومواجهة بحيث نراهم عيانًا.

معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك كما تقول ، ثم وايْم الله ، لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك!

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا أسفًا ، لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوه ، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل: يا معشر قريش ، إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون ؛ من عيب ديننا ، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غدًا بحجر ما أطيق حمله ، أو كما قال ، فإذا سجد في صلاته فَضَخْتُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبدًا ، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، وكان رسول الله ﷺ بمكة وقِبلَته إلى الشام ، فكان إذا صلَّى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فقام رسول الله ﷺ يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سَجَد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا

دنا منه رجع منهزمًا منتقعًا [(١)] لونه ، مرعوبًا، قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده!

وقامت إليه رجال قريش ، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصَرته [(٢)] ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني!

قال ابن إسحاق: فذُكر لي أن رسول الله ﷺ قال: « ذلك جبريل عليه السلام ، لو دنا لأخذه ».

فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن كلدة بن علقمة بن عبدمناف بن عبد الدار ابن قصي [(٣)] ، فقال: يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا ، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر ، لا والله

---

(١) يعني مصفرًا متغيرًا وهو على زنة اسم المفعول من انتقع المبني للمجهول ويقال بالميم أيضًا.

(٢) القصرة بفتحات أصل العنق.

(٣) قال ابن هشام: ويقال النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدة بن عبد مناف.

ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم: كاهن ، لا والله ماهو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم:شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها ؛ هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون ، لا والله ماهو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ؛ فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولاتخليطه ، يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم (١).

هذا وإنا لنجد في هذا النص مثلاً من حرص النبي ﷺ على إسلام قومه حيث علم باجتماع أشرافهم فسارع إليهم ليجدد دعوتهم إلى الدين الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة على الرغم مما نالوا منه من الأذى، وفي هذا دلالة على لزوم استصحاب الرغبة في هداية الناس وإن سبقت منهم مواقف مؤذية لصاحب الدعوة أو لأتباعه، لأن دعوة الإسلام لاتقوم على الرغبة في الانتقام من الأعداء، وإنما تقوم على الرحمة الشاملة بجميع الناس، والرغبة الملحة في هداية الضالين، وانتشالهم من الدرك السحيق الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥-٣٠٠ ، وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله – تفسير الطبري ١٥/ ١٦٦ – وذكره الحافظ ابن كثير وسكت عنه – البداية والنهاية ٣/ ٤٨ -.

فالداعية الحق ينظر إلى من يقومون بأذيته وتعذيبه نظرة إشفاق ورحمة، ويتمنى من قرارة قلبه أن ينقذهم من الهلاك الذي تردوا فيه وأن يحميهم من السلوك الذميم الذي ساروا فيه.

إن الداعية وهو يتلقى الأذى من المدعوين يشعر بأنه يكتسب عملاً صالحًا بالصبر على أذاهم، ولكن عليه أيضًا أن يشعر بأن الذين يقومون بإيذائه وصدِّ دعوته يكتسبون عملاً سيئًا وسيحاسبون عليه يوم القيامة، وأن يعلم أن محاولة هدايتهم عمل صالح يضاف إلى العمل السابق، فإذا صبر على أذاهم ثم قام بمحاولة هدايتهم يكون قد جمع بين عملين صالحين.

ونجد في هذا النص أن المشركين بدؤوا حوارهم مع النبي ﷺ بالهجوم عليه في دعوته حيث اتهموه بشتم آبائهم وعيب دينهم، وتسفيه أحلامهم، وشتم آلهتهم وتفريق جماعتهم، وأنه اقترف معهم كل قبيح.

وهذا الهجوم يقصدون من ورائه إضعاف موقفه وإرباكه حتى يقبل منهم واحدًا من عروضهم التي سيعرضونها عليه.

وقد عرضوا عليه أمورًا ثلاثة: أحدها يتعلق بحب المال، والآخَرَين يتعلقان بحب الجاه، فعرضوا عليه أولاً أن يجمعوا له من

أموالهم حتى يكون أكثرهم مالاً إن كان من الذين يستهويهم جمع المال واقتناؤه، أو أن يسودوه عليهم فيكون سيد قبيلتهم، أو أن ينصبوه ملكًا عليهم إن كان ممن يستهويهم الشرف والجاه.

وبهذا يكونون قد حققوا أعلى درجات الشرف والجاه له إن كان ممن يحبون السلطة، أو الغنى الكبير بدون نصب وعناء بجمع المال إن كان ممن يحبون الثراء.

وهذه عروض مغرية حقًّا لأصحاب الدنيا لأن الهدف الأعلى الذي يسعى له طلاب الدنيا يتلخص في طلب المال أو الجاه أو طلبهما معًا.

وفي هذا العرض الثاني والثالث يبدي زعماء قريش استعدادهم للتنازل عن منهجهم في الحكم والسيادة من أجل رسول الله ﷺ إن وافق على طلبهم، وذلك أن قبائل العرب عامة لا تعرف الحكم الذي يقوم على الملك كما هو الحال في دولة الفرس والروم، وإنما كانوا يسوِّدون رجلاً منهم تجتمع له خصال الشرف التي اتفقوا عليها، وقد يسوِّدون أكثر من واحد كما هو الحال في مجتمع مكة آنذاك.

وقد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يجمعوا له السيادة فيكون سيدًا على جميع فروع القبيلة بدلاً من أن يكون لكل فرع منها سيد،

وإذا كان هذا لا يقنعه ولا يرضي طموحه فلا مانع لديهم من تمليكه عليهم بحيث يحكمهم كما يحكم ملوك الفرس والروم، وذلك أقوى في التمكين وأبلغ في الزعامة من مجرد السيادة.

هذا وإن استعداد زعماء قريش على تحمل هذا الأمر الذي يخالف ما تعارف عليه العرب آنذاك يدلنا على بعد الشقة بينهم وبين رسول الله ﷺ وأن انقيادهم إليه بصورة جماعية على أنه رسول من عند الله تعالى وتغيير دينهم أمر شديد عليهم وبعيد الاحتمال.

وقد سبق عرض تلك العروض على رسول الله ﷺ من عتبة بن ربيعة، وإن كان عتبة قد أضاف عرضًا جديدًا على رسول الله ﷺ وهو أن يزوجوه عشر نسوة يختارهن من قريش، وهذا العرض في الحقيقة داخل في عرض تمليك المال حتى يكون أغنى رجل في قومه لأن صاحب الغنى يستطيع أن يحصل على ما يريد من الشهوات.

هذا وإن في إعادة عرض هذه المغريات من زعماء قريش دليلاً على أنهم لم يفهموا بعدُ حقيقة دعوة رسول الله ﷺ التي تقوم أساسًا على الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، فإذا كان باستطاعة أولئك القوم أن يَعدوا المسلمين بالحياة السعيدة في الآخرة القائمة على الظفر بالجنة والنجاة من النار فإنهم يستطيعون التأثير عليهم.

ولكن أَنَّى ذلك للمسلمين أنفسهم، بل أنى ذلك للأنبياء عليهم السلام! لأن الذي يملك ذلك الفضل الكبير هو الله تعالى وحده، وإنما مهمة الأنبياء عليهم السلام ومن اقتدى بهم من الدعاة هي أن يهدوا الناس إلى الطريق الموصل إلى هذه السعادة.

وهكذا يحاول عبثًا دعاة الباطل على مر الزمان، حيث يكررون عروضهم المغرية على الدعاة الصادقين في دعوتهم، فيخسروا بذلك وقتهم وجهدهم.

وقد يُطمعهم في الاستمرار على هذا المنهج مايرونه من سقوط بعض الدعاة في أثناء المعركة الدائرة بينهم وبين أعداء الإسلام، حيث ينجح الأعداء في تحجيم هؤلاء الدعاة وتجميد نشاطهم، أو تحويل هذا النشاط إلى عمل مضاد لاتجاه الدعوة الإسلامية.

ومما يلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ رفض أن يكون ملكًا على أهل مكة، وقد يتعلق بذلك من يرى عدم ضرورة قيام الدولة الإسلامية، خصوصًا مع ملاحظة أن النبي ﷺ لو تولى زعامة قريش وحلفائها لكان أعظم قدرة على بث دعوته لأنه والحال هذه يستطيع أن يفرضها من خلال سلطته وهيمنته على البلاد.

والجواب على ذلك أن زعماء قريش لم يتنازلوا لرسول الله ﷺ عن

زعامتهم حقًّا، وإنما أرادوا منه أن يتنازل عن دعوته إلى التوحيد في مقابل زعامة وهمية يخضعونه بها لمبادئهم الجاهلية بينما لا يخضعون هم لدعوته، والحقيقة أن الذي يحكم هي المبادئ، والرجال من وراء تلك المبادئ منفذون، فإذا بقيت مبادئهم الجاهلية – وهو المطلب الذي أصروا عليه – فهي التي تحكم، وأي زعيم ينصَّب في ظل تلك المبادئ فإنه ملزم بأن يكون خاضعًا لها، وهذا يعني أن يتنازل رسول الله ﷺ عن دعوة التوحيد في مقابل قبوله هذا العرض السخي في نظر أهل الدنيا، ولذلك كانت استجابة النبي ﷺ لهم أمرًا مستحيلاً.

لقد كانت تصريحات زعماء المشركين تبين استحالة أن يسندوا زعامتهم لرسول الله ﷺ مع بقائه على كامل دعوته، ومن ذلك ماسبق في خبر أبي جهل من قوله:«تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفَرَسَي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه؟ ».

فهذا دليل على أن المطلب الكبير الذي يتنافسون عليه هو السيادة على مكة، ولكنهم مع هذا أبدوا استعدادهم للتنازل عنها لرسول الله ﷺ لو تخلى عن دعوته أو بعض مايدعو إليه، أما في حال

إصراره على دعوته إلى التوحيد فإن تنازلهم له عن ذلك يكون أمرًا مستحيلاً.

أما قيام الدولة الإسلامية فإنه أمر ضروري لقيام الدين عند القدرة على ذلك، ولهذا أقام النبي ﷺ دولة الإسلام في المدينة يوم أن هاجر إليها وأصبح قادرًا على ذلك، وكونه رفض السلطة الوهمية التي عرضها عليه زعماء مكة لايعني عدم اهتمامه بإقامة دولة الإسلام، وإنما كان هذا السلوك منه تسديدًا من الله تعالى له، وفهمًا ثاقبًا منه لمقاصد الكفار الماكرة التي أرادوا بها أن يقضوا على دعوته.

ثم إنهم بعد هذه العروض الثلاثة عرضوا عليه أن يبذلوا المال في طلب الطب له إن كان الذي حمله على مخالفة قومه والإصرار على ذلك تأثر ضاغط بسبب هيمنة الجن عليه.

وكأنهم يقولون له إن لم تكن أهدافك من هذه المخالفة أن تصبح أغنى رجل في قومك، أو أن تكون لك السيادة المنفردة عليهم جميعًا فإنه لايتصور أن يدفعك إلى دعوتك تلك إلا الانقياد القسري لأصحاب الهيمنة من الجن، ومن هذا المنطلق اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون كما سبق.

هذا وعلى الرغم من كون تلك العروض الثلاثة مغرية جدًّا

خاصة العرض الثالث الذي سيجعل رسول الله ﷺ الملك الوحيد في بلاد العرب.

وعلى الرغم من كون المقابل لذلك فيما إذا رفض تلك العروض أن يكون متهمًا بين قومه بالجنون فإن النبي ﷺ قد رفض بكل إباء وعزة جميع تلك العروض المغرية وأصر على لزوم دعوته التي اجتمع أولئك الزعماء من أجل القضاء عليها.

لقد كان جواب رسول الله ﷺ جواب المستسلم لأمر الله تعالى الثابت على مبدئه السامي حيث قال لهم: «مابي ماتقولون وماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم».

وهذا الكلام يعدُّ نهاية الاستسلام لله عز وجل وغاية التوحيد، حيث أشعرهم بأنهم إن أظهروا شيئًا من التحدي والتعجيز فإنما يواجهون الله تعالى بذلك، فالحرب حقيقةً قائمة بينهم وبين الله تعالى، ولن يفلح من جعل نفسه في مواجهة مع الله جل وعلا، فالأمر لله

تعالى وحده من قبل ومن بعد، وإنما الرسول ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى ومنفذ لشريعته على الوجه الأكمل، فليس طالب دنيا ولا طالب جاه، ولايملك أن يتنازل عن دعوته ولا بمعشار ماطلبوه منه ولا بما هو أقلُّ من ذلك، لأنه ليس مستقلاً بهذا الأمر حتى يفاوض عليه حسب مايمليه عليه اجتهاده المصلحي، وإنما هو رسول مبلغ عن الله تعالى منفذ لشريعته.

وفي هذا درس بليغ لأهل العلم الديني الذين يواجَهُون بشيء من التحدي والعداء من الكفار والمنافقين، والذين يضع المسلمون ثقتهم بهم في فهم هذا الدين وتبليغه، ليكون شعورهم وتفكيرهم حاضرًا مع الله تعالى حينما يُسألون ويجادَلون، وليكون فهمهم مقصورًا على كونهم مبلغين عن رسول الله ﷺ ومشرفين على تنفيذ شريعة الله تعالى كما شرع، وأن لايداخلهم شيء من حب الظهور والتفوق الفكري غير المنضبط بشريعة الله جل وعلا.

فإذا كانوا مع الله تعالى وتصوروا أن الله معهم في معركتهم مع الأعداء، وأنه مطلع على مكنونات ضمائرهم فإن ذلك يعصمهم بإذن الله تعالى من الزلل، ويمنحهم دُفُعات من القوة والصمود في وجه الأعداء.

لقد كان رسول الله ﷺ وهو يحاور الأعداء موصولاً حبله بالله عز وجل، ولم يكن في قلبه شعور بأي قوة في الأرض، وكان يستلهم من الله تعالى الثبات والقوة بقدر ماكان يتلقى الوحي الإلهي الذي يحاور المخالفين على قبسات أنواره.

وإذا كان النبي ﷺ قد اختُصَّ بالوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن ممثلي العلم الديني لم يَعْدموا هذا النور الذي سار على ضوئه الساطع ورثة النبي ﷺ على مر العصور، بل هو بين أيديهم قد اكتمل قبل لَحَاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى كما في قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فما عليهم إلا أن يلتزموا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، بعد أن يوثقوا صلتهم بالله عز وجل، وأن يَشْعُروا بحضوره معهم بعلمه في كل ندواتهم وجلساتهم، بل في كل همساتهم وخطرات قلوبهم.

هذا وإن في رفض النبي ﷺ من الكفار عروضهم المغريةَ من الملك والمال ردًّا بليغًا على أعداء الإسلام الذين فسروا الدعوة الإسلامية بأنها ثورة من الفقراء على الأغنياء الكبراء فلو كانت كما زعموا لكان في تحقق هذه العروض المغرية الوصولُ الكامل للمقاصد

والأهداف التي دفعت إلى تلك الثورة.

ولو كانت كما زعموا لما رأينا في تلك الفئة المسلمة أغنياء في غاية الغنى والترف كعثمان بن عفان ومصعب بن عمير، ومن هم دونهم في الغني ولكنهم يفوقونهم في الشهرة والمكانة كأبي بكر وعمر، إذ أن المنطق الصحيح – لو كان الأمر كما زعموا – أن يكون هؤلاء في صفِّ أهل الغنى والزعامة القبلية.

ولقد بَيَّنَتْ أحداث الهجرة بعد ذلك الهدف السامي الذي ضحى من أجله المسلمون حيث تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة رضي الله عنهم أجمعين.

هذا ولقد بدأ الكفار مع رسول الله ﷺ بفتنة الأذى والتخويف كما سبق، فلم يثنه ذلك عن عزيمته، وظل صامدًا في دعوته، فلما لم يُجْد معه هذا النوع من الفتنة تحولوا إلى فتنة التأليف، فعرضوا عليه هذه العروض الكبيرة.

وهكذا الكفار في كل زمن يحاولون فتنة دعاة الإسلام بهذين النوعين ليتحولوا عن دعوتهم، أو ليقْبَلوا المداهنة، وذلك بالتنازل عن بعض مايدعون إليه حسب مايريده الأعداء.

وإن للدعاة إلى الله تعالى لأسوة حسنة برسول الله ﷺ حيث لم يخضع لفتنة الكفار، سواء في مجال التأليف أو في مجال التخويف.

وهل عُرض على داعية أن يكون ملكًا على قومه كما عرض على رسول الله ﷺ؟!

لقد عُرض على بعض الدعاة لعاعةٌ من الدنيا فسارعوا إليها وتخلوا عن دعوتهم، أما رسول الله ﷺ فقد ظل ثابتًا على طريقه المستقيم ولم تخطر له الدنيا ببال.

ونجد في نهاية هذا الخبر أن المشركين لما يئسوا من استمالة رسول الله ﷺ إلى صفهم والتأثير عليه ليترك دعوته أو ليخفف منها ، لجؤوا إلى أسلوب التعجيز في المطالب ؛ ليحاولوا إفحامه وإظهاره بمظهر العاجز عن تحقيق مطالبهم، وهذا في نظرهم يتعارض مع كونه رسولاً من عند الله جل وعلا ، فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يزيح عنهم جبال مكة التي ضيقت بلادهم ، وأن يفجر لهم أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لهم آباءهم ليسألوهم عن دعوة الإسلام؛ هل هي حق أم باطل؟ وأن يبعث مع الرسول ﷺ ملكًا يصدقه فيما يقول ، وأن يسأل ربه أن يجعل له جنانًا وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة حتى يكون من أغنى الأغنياء.

وقد أجابهم النبي ﷺ في كل ما سألوا ببيان مهمته الكبرى؛ وهي تبليغ رسالة الله تعالى ، وبيان ما ينتظرهم من سعادة في الدنيا والآخرة إن آمنوا ، وإن ردوا دعوته فما عليه إلا الصبر ، والأمر بيد الله تعالى يحكم بينه وبينهم.

كما بين أن تحقيق المطالب المذكورة ليس مما بُعث به ، وإنما بعث لإخراجهم من الظلمات إلى النور لو كانوا يعقلون.

ونجد في هذا الخبر مثلاً من لجوء الكفار إلى التعنت في المطالب التي لا يقصدونها لذاتها، وإنما هي لتعجيز النبي ﷺ ، ومحاولة صرف الناس عنه فيما إذا لم يحقق لهم هذه المطالب.

وهذه المطالب التي تشبه الخيال تحكي واقعًا فكريًا مضطربًا يعيش فيه أولئك الكفار، حيث قد أفلس رصيدهم الفكري من الحجة والبرهان، ورأوا إقبال قومهم على اعتناق الإسلام على مختلف طبقاتهم، فصاروا يتخبطون في متاهات من الفكر لا يقبلها العقل السليم.

وقد نزل في الجواب على مطالب هؤلاء وأمثالها الآيات التالية من سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ

بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩٣].

وهكذا كان توجيه الله تعالى نبيه ﷺ إلى الجواب بهذه الجملة الموجزة البليغة: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ ، وقد تضمنت التعجب الإنكاري من مطالبهم المتعنتة القائمة على حب المغالبة، وكسب القضية لصالحهم، ولو خرجوا من منطق العقل السليم.

كما تضمنت بيان طبيعة النبي ﷺ التكوينية فهو بشر وليس من طبيعة البشر أن يتمكنوا ذاتيًا من تحقيق هذه المطالب.

كما تضمنت بيان مهمة النبي ﷺ في هذه الحياة ؛ وهي أنه رسول من عند الله تعالى ، يُبلغ رسالته، ويقيم الحجة على الناس بذلك ، وينفذ شريعة الله جل وعلا ، فإذا فعل ذلك فقد أدى مهمته بنجاح ،

وليس للمخالف أن يطالبه بما هو فوق مقدرته كبشر ، ولا بأن يتجاوز ما حدد الله تعالى له كرسول.

ولقد تبين كذبهم في ادعاء قبول الإسلام لو تحققت لهم هذه المطالب في ذلك المجلس نفسه الذي طلبوها فيه؛ حيث قال أحدهم وهو عبد الله بن أمية لرسول الله ﷺ على الرغم من كونه ابن عمته: وايْم الله لو فعلت ذلك لظننت ألا أصدقك!

وهذه المقالة تُعدُّ مثلاً من واقع المشركين الذي بينه الله تعالى بقوله: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤ – ١٥].

مثل من ثبات النبي ﷺ

شكوى قريش لأبي طالب

لقد كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الله سرًّا في بداية بعثته إلى أن اجتمع حوله عدد من أصحابه فأمره الله تعالى بأن يجهر بالدعوة: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] وأمره بأن يبدأ بإنذار أقاربه﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[الشعراء:٢١٤] فأنذر وبشر وجمع بين الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر، الدعوة إلى عبادة الله وحده والتخلق بمكارم الأخلاق، والدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام التي هي أعظم المنكر وكذلك التخلي عن مساويء الأخلاق.

فلما عاب أصنام المشركين وسفه أحلامهم بعبادتها عرفوا أنه لن يَبْقَى على ماهو عليه من دينه ويتركهم على ماهم عليه من المنكر فناصبوه العداء وحاولوا تفريق المؤمنين بدعوته بكل ماأوتوا من قوة وحيلة.

ولما رأوا صلابة إيمان أتباعه وأن أمره صار ينتشر بين جميع طبقات المجتمع بسرعة وقوة حاولوا التأثير عليه ليترك دعوته أو يغير من أسلوبها في النكير عليهم وتسفيه أحلامهم.. حاولوا ذلك بالترغيب أحيانًا وبالترهيب أحيانًا أخرى ولكن حال دون وصولهم

إلى أغراضهم صلابته في إيمانه وعطف عمه أبي طالب عليه ودفاعه عنه وتهديده لقريش إن وصلوا إليه بالأذى.

فلما رأى كفار قريش أن محمدًا ﷺ لن يهون أمام تهديداتهم ولن يلين أمام إغراءاتهم وأن عمه أبا طالب قد قام دونه وحماه، وأن أتباعه يتمسكون بدعوته بقوة ويزيد عددهم بسرعة ذهب بعض أشرافهم إلى عمه أبي طالب لبيان أمره والشكوى منه.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: فلما بادى رسول ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه – فيما بلغني – حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلمافعل ذلك أعظموه(١) وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون.

وحَدِب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهرًا لأمره لايرده عنه شيء،فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لايُعتبهم(٢) من شيء أنكروه من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا أن عمه أبا طالب قد حَدبَ عليه وقام دونه فلم

---

(١) أي شق ذلك عليهم.

(٢) أي لا يزيل عتبهم بالرجوع عما أنكروه.

يسلمه لهم مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب–وذكر أسماءهم – فقالوا: ياأبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل مانحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقًا وردهم ردًّا جميلاً فانصرفوا عنه.

قال: ومضى رسول الله ﷺ على ماهو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضًا عليه.

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يَهلَك أحد الفريقين – أو كما قالوا – ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه.

قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حُدِّث أن قريشًا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث

إلى رسول الله ﷺ فقال له: ياابن أخي إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له فَأَبْقِ عليّ وعلى نفسك ولاتُحَمِّلني من الأمر مالا أطيق.

قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاء [1] وأنه خاذله ومُسْلِمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال له رسول الله ﷺ:« ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته »!

قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام، فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، قال:فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لاأسلمك لشيء أبدًا [2]!

وأخرجه الأئمة؛البخاري في التاريخ الكبير،والحاكم، والبيهقي، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني وأبي يعلى بنحوه، كلهم من حديث عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه أن النبيﷺ حلَّق ببصره إلى السماء فقال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: والله ماكذَّبتُ ابن اخي قط فارجعوا.

---

(١) أي ظهر له فيه رأي جديد.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦١ – ٢٦٤.

وقال الحافظ الهيثمي: ورجال أبي يعلى رجال الصحيح [(١)]

وذكره الحافظ ابن حجر وقال: هذا إسناد صحيح [(٢)].

في هذا الخبر بيان لشدة المواجهة وعنف المقاومة التي كان رسول الله ﷺ يلقاها من قومه، حيث استخدم أشراف قومه مختلف الوسائل للتأثير على عمه أبي طالب ليرفع عنه حمايته، فذكَّروه بشرف الآباء والأجداد وهو من المقتنعين بالتمسك بما عليه الأسلاف وذكروه بقدسية الآلهة وهو ممن يعظمونها، ثم هددوه بالحرب بينهم وبينه وهو ممن يكره ذلك، كما حاولوا التلطف معه بالثناء عليه فذكروا شرفه ومنزلته فيهم ليؤثروا عليه فيستجيب لشكايتهم.

ولقد كان موقفًا صعبًا ومحرجًا لرسول الله ﷺ أن يوقع عمه الذي ناصره وحماه في هذا المأزق المحرج، حيث بقي أبو طالب في حيرة من أمره فهو لايريد أن يباديَ قومه بالعداء ولكنه أيضًا لايريد أن يُسْلم رسول الله ﷺ لهم ولا أن يخذله، ولكن إخراج عمه من هذا المأزق يقتضي أن يتنازل عن دعوته، وأن يوافق الكفار على تعظيم

(١) التاريخ الكبير ٧/ ٥١ رقم ٢٣٠،المستدرك ٣/ ٥٧٧ ، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٨٦ – ١٨٧ ،مجمع الزوائد ٦/ ١٤.

(٢) المطالب العالية ٤/ ١٩٢ رقم ٤٢٧٨.

الأصنام، وتفخيم ميراث الآباء، وهذا أمر مستحيل، لذلك كان موقف النبي ﷺ حازمًا وحاسمًا حينما استدعاه عمه وفاوضه في التنازل عن دعوته الكاملة ؛ إبقاء عليه وعلى نفسه، حيث بين لعمه أن هذا مستحيل كاستحالة إنزال الشمس والقمر ووضعهما في يديه ﷺ!

وإن هذا لموقف عظيم من رسول الله ﷺ حيث وقف وهو في قلة من أنصاره يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم وغناهم ومكانتهم العالية في العرب، وقد بين صلابته في التمسك بهذا الدين ودعوة الناس إليه مهما تكن الظروف، ومهما وُضع في طريقه من عقبات، وأنه على استعداد كامل لأن يقدِّم نفسه رخيصة في سبيل هذا الدين، فضرب بذلك المثل العالي لأمته والقدوةَ الكاملة للدعاة إلى الله تعالى في تسخير نفسه بكل طاقاتها لخدمة دعوته ولو أدى ذلك إلى هلاكها.

فليسر على دربه المؤمنون المتقون في بذل الجهد في الدعوة وتحمل كل مايواجههم من صعوبات ونكبات فإن لهم فيه ﷺ أسوة حسنة.

هذا وإن تلك الدموع الغالية التي تحدرت من عيني رسول الله ﷺ تبين لنا خطورة الموقف وصعوبة الأمر عليه، حيث كان بين أمرين كل واحد منهما شاق على نفسه، لكن إيقاع عمه في الحرج أهون عليه كثيرًا من التنازل عن دعوته، بل لامقارنة بين الأمرين لأن أحدهما

صعب والآخر مستحيل.

وإنه من أجل الخروج من هذا المأزق وإصدار القرار السامي الذي لاخيار له فيه فإنه لابد لصاحب النفس الكريمة التي بلغت نهاية الكمال البشري في السمو الأخلاقي أن يعبر عن أساه وأسفه لصاحب المعروف الكبير عليه أن أوقعه في حرج كبير وأدخله في معركة حامية مع قومه، في الوقت الذي كان يتوسل إليه أن لايوقعه في ذلك، فكانت الدموع الزكية أبلغ تعبير عن ذلك الأسى والأسف.

إن دموع فحول الرجال الأشداء غالية، وتكون أشد غلاء حينما تنحدر من عيني من بلغ الكمال في كل معاني الرجولة، وإن غلاء تلك الدموع ليصور لنا جسامة المسؤولية التي تحملها رسول الله ﷺ واستهان من أجلها بكل ما تعارف عليه البشر من الأخلاق والتقاليد والعادات.

مثل من تضحية الصحابة بأنفسهم في سبيل الله

(استعداد الزبير للدفاع عن رسول الله ﷺ)

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن عروة بن الزبير أنه قال: إن أول رجل سلَّ سيفه في الله الزبير بن العوام ، نفخة نفخها الشيطان: أُخذ رسول الله ﷺ (١)، فخرج الزبير يشق الناس بسيفه والنبي ﷺ بأعلى مكة ، قال: مالَكَ يا زبير؟! قال: أُخبرت أنك أخذت ، قال: فصلى عليه ودعا له ولسيفه(٢) .

فهذا مثال للشجاعة والتضحية بالنفس ، فحينما سمع الزبير صوتًا يفيد بأن النبي ﷺ قد أُخذ ، حمل سيفه، وخرج يبحث عنه لينقذه ويحميه ، وقد جاء في هذه الرواية أن ذلك الصوت نفخة من الشيطان ، وذلك ليرعب المسلمين ويوقعهم في الاضطراب والحيرة.

وقد دعا له النبي ﷺ ولسيفه على هذه التضحية النبيلة ، وما أبلغه من جزاء! وما أنفسه من مكافأة!

ولقد ظل الزبير بن العوام رضي الله عنه حياته كلها مثالاً عاليًا للشجاعة والمغامرات الجريئة في سبيل خدمة هذا الدين.

---

(١) يعني: أنهم سمعوا صوتًا يقول ذلك ، وكان من الشيطان.

(٢) فضائل الصحابة: ٢، رقم: ١٢٦٦ ، وقد صحح المحقق الدكتور وصي الله إسناده إلى عروة بن الزبير، وأخرجه الحاكم بإسناده، عن عروة ، وذكر مثله ، وسكت عنه هو والذهبي ، المستدرك ٣/ ٣٦٠، ٣٦١.

نموذج من الجرأة في قول الحق والثبات على الشدائد
(ابن مسعود يتحدى الكفار)

حينما يكون الإيمان بالله تعالى قويًّا يقْدم صاحبه على تجشم الصعاب واقتحام المخاطر من أجل نصرة هذا الدين الذي آمن به وخالطت محبته شغاف قلبه، فتبرز قوة الإيمان، وتتفوق – رغم قلة العدد وضعف الإمكانات المادية–على كثرة العدد ووفرة القوة المادية.

فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ أحد علماء الصحابة الذين انتشر الإسلام على أيديهم وخرَّجوا أجيالاً من العلماء بالدين، نجده يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم ودولتهم، وهو الضعيف من ناحية العشيرة[1]، فيجهر بالقرآن أمامهم في المسجد الحرام، ولم يكن يستطيع الجهر به آنذاك إلا رسول الله ﷺ لقلة عدد المسلمين وشدة الضغط عليهم من الكفار.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله في بيان ذلك: وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن – بعد رسول الله ﷺ بمكة – عبد الله بن مسعود ﷺ.

---

(١) حيث إنه من قبيلة هذيل وليس من قريش.

قال: اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ماسمعتْ قريش هذا القرآن يُجْهر لها به قط، فمن رجل يُسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني!

قال:فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى،وقريش في أنديتها،حتى قام عند المقام ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم رافعًا به صوته ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ قال:ثم استقبلها يقرؤها.

قال: فتأملوا فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ - وكانت هذه كنيته- قال: ثم قالوا:إنه يتلو بعض ماجاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ!

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ماكان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا، قالوا: لا،حسبك أن قد أسمعتهم مايكرهون(١) .

وهكذا نجد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في أول الإسلام هو أول

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٠ ، وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن حميد عن سلمة بن الأفضل الأبرش عن ابن اسحاق به وذكر مثله – تاريخ الطبري ٢/ ٣٣٤.

من جهر بالقرآن الكريم بمكة المكرمة بعد رسول الله ﷺ، على الرغم من كونه لاعشيرة له تحميه من أذى المشركين، ونجد في هذه القصة أن إخوانه المؤمنين يذكِّرونه بذلك، ويبينون له خطورة الأمر بالنسبة له، ولكنه يصر على أن يجهر بالقرآن أمام زعماء قريش، ويقول لإخوانه: دعوني فإن الله سيمنعني، ونجد عبد الله بن مسعود بهذا الموقف يضرب مثلاً عاليا في التوكل على الله تعالى.

وإذا عظم ذكر الله –سبحانه وتعالى – في قلب المؤمن هان عنده كل شيء، فقد هان هؤلاء الكفار على ابن مسعود على الرغم من شراستهم وتحزبهم ضد دعوة الحق، فتحداهم بما يكرهون، وذلك لأن وجود الإيمان بالله عز وجل في قلبه كانت نسبته عالية جدًّا، بينما كان وجود هيبة الكفار في قلبه ضئيلاً جدًّا، فأقدم على مواجهتهم بذلك.

وبهذا نعلم أن الرهبة من أعداء الإسلام تتضخم في قلب المسلم بقدر تضاؤل وجود الإيمان بالله تعالى في قلبه، بينما تتضاءل رهبته منهم بقدر قوة إيمانه بالله تعالى وهيمنة هذا الإيمان على مشاعره وسلوكه.

وحيث إن ثقة ابن مسعود رضي الله عنه بالله كانت عالية، وتوكله عليه كان عظيمًا، فإن الله تعالى منعه من الكفار فلم يقتلوه على الرغم من أنه لاعشيرة له تحميه، وإنما اكتفوا بتفريغ غضبهم منه بضربه على وجهه، ورجع منهم مظفرًا منصورًا، قد نال بغيته بالجهر بينهم بتلاوة كتاب الله تعالى.

وقد تكَوَّن لديه رضي الله عنه من هذا الموقف الشجاع قدر عال من الإيمان بالله تعالى، إلى جانب ماتضاءل في نفسه من هيبتهم، فأصبح مستعدًّا لتحديهم مرة أخرى، حيث قال لأصحابه، ماكان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا.

وهكذا نجد أن الشجاعة في قول الحق تقوي الإيمان بالله تعالى، وتضعف من هيبة الأعداء ومكانتهم.

وبتأمل هذه القصة نجد مثلاً واضحًا للحجر الفكري الذي فرضه زعماء الكفار على المسلمين بمكة،حيث لم يكن أحد منهم يجرؤ على الجهر بالقرآن غير رسول الله ﷺ،وهذا دليل على إفلاس حجتهم، وضعف معنويتهم،حيث لايستطيعون مقاومة الحجة بمثلها، فليجأون إلى محاولة الحجر على الحق بالقوة باعتبار أنهم كانت لهم الهيمنة آنذاك على مكة.

وهذه طريقة فاشلة، فإن الحق لابد أن يظهر مهما حاولوا تطويقه بما لديهم من قوة وجبروت، وقد ظهر الحق شيئًا فشيئًا إلى أن قضى على آخر معقل من معاقل الباطل، وصارت الدولة للإسلام والمسلمين: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء:٨١].

إسلام أبي ذر وتحدي الكفار

من هذه النماذج الحية في القوة والثبات على الدين ماكان من أبي ذر الغفاري رضي الله عنه لما أعلن إسلامه بمكة وذلك في أول الإسلام.

وقد أخرج خبره الإمام البخاري ومسلم من عدة طرق ، ومنها ما أخرجاه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ بمكة قال لأخيه [١]: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء فاسمع من قوله ثم ائتني.

فانطلق الآخر حتى قدم مكة ، وسمع من قوله ثم رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلامًا [٢] ماهو بالشعر ، فقال: ماشفيتني فيما أردت.

فتزود وحمل شنة له [٣] فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد

---

(١) اسمه أنيس كما في الروايات الأخرى.

(٢) معطوف على الهاء في رأيته وهو مضمن معنى السماع يعني وسمعته يقول كلامًا ، من باب قولهم علفتها تبنًا وماء باردًا يعني وسقيتها ماء باردًا (الفتح ٧/ ١٧٤).

(٣) يعني قربة قديمة.

فالتمس النبي ﷺ ولايعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل ، فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه فعلم أنه غريب، فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى أصبح ثم احتمل قُرَيْبته وزاده إلى المسجد فظل ذلك اليوم ، ولايرى النبي ﷺ ، حتى أمسى فعاد إلى مضجعه ، فمر به علي فقال: ماآن للرجل أن يعلم منـزله؟ فأقامه ، فذهب به معه ولايسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك ، فأقامه علي معه ، ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟

قال: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدَنِّي فعلت ، ففعل فأخبره ، فقال: فإنه حق وهو رسول الله ﷺ فإذا أصبحت فاتبعني فإني إن رأيت شيئا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ، ففعل فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه فسمع من قـولـه وأسلم مكانه،فقال له النبي ﷺ:«ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري» فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم.

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ ، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه ،

فأتى العباس فأكب عليه فقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم؟ فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها ، وثاروا إليه فضربوه فأكب عليه العباس فأنقذه [1].

في هذا الخبر بيان للرعب الشديد الذي أثاره زعماء الكفار في مكة ، حتى أصبح القادم لا يستطيع أن يسأل عن رسول الله ﷺ إلا بحذر شديد كما فعل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، وأصبح المسلمون لايستطيعون أن يصحبوا القادمين ظاهرًا ، بل لابد من الاحتيال لإخفاء هذا الاصطحاب كما فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان أبو ذر مضطرا إلى الاستخفاء حتى يحصل على بغيته من الوصول إلى رسول الله ﷺ خشية أن يمنع من ذلك، فلما وصل إليه وآمن به كان قويّا في إعلان إسلامه ، لأنه لايخشى على نفسه ، وإنما كان يخشى أن يمنع من سماع دعوة الحق.

كما أن في هذا الخبر بيان اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بتلقي الغرباء لدعوتهم إلى الإسلام سرّا ، وذلك ظاهر في متابعة علي بن أبي طالب لأبي ذر رضي الله عنهما خلال ثلاثة أيام ، فقد جعل أمر هذا

---

(١) صحيح مسلم رقم ١٣٣/ ٢٤٧٤ كتاب فضائل الصحابة ، وصحيح البخاري رقم ٣٨٩١ ، كتاب مناقب الأنصار.

الوافد الغريب من اهتمامه حتى أوصله في اليوم الثالث إلى رسول الله ﷺ.

وهذا يعني أن هذا السلوك جزء من المنهج الدعوي الذي تلقوه من رسول الله ﷺ ، وطبقوه تطبيقًا دقيقًا كما جاء في هذا الخبر.

وهكذا رأينا أبا ذر رضي الله عنه يجهر بإيمانه بهذا الدين أمام أعدى أعدائه آنذاك بعدما اقتنع أنه دين الحق.

وهذه نفحة من نفحات قوة الإيمان أبت إلا أن تبدو في صورة ظاهرة من الاعتزاز بالإسلام ، والتحدي القوي لأعدائه.

إن إعلان الإسلام بهذه الصورة من رجل ليس له عشيرة ولا حلفاء في مكة أمام أعداء يهيمنون على الوضع القائم آنذاك ويعذبون المسلمين.. إن هذا الإعلان سلوك جريء يَشِفُّ عن محرك قوي من الإيمان.

وإن إعادة التحدي في اليوم الثاني لأكثر إعجابًا وإثارة لأن ترتب الأذى على التحدي الأول أمر محتمل ، وإن كان هو المرجح ، أما ترتبه على التحدي الثاني فإنه مؤكد ، ويترجح تضاعفه، وهذا أمر يدل على أن أبا ذر قد قصد إذلال الكفار الذين يعتزون بقوتهم وجمعهم ويستأسدون على الضعفاء.

وإنه إذا كان المسلمون في فترات ضعفهم وقلتهم بحاجة إلى المداراة والاستخفاء فإن بروز أفراد منهم يعلنون دعوة الحق له أثره البالغ في توهين قُوَى الأعداء ، وتقوية إيمان المسلمين وربط قلوبهم ، وكون النبي ﷺ لم ينكر على أبي ذر وأمثاله ممن جهروا بإسلامهم أو بالدعوة إلى الإسلام دليل على شرعية ذلك مالم يؤثر على مصلحة الدعوة.

وقول رسول الله ﷺ لأبي ذر « ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري » مثل على اهتمام النبي ﷺ العظيم بنشر دعوته وإشعار المسلمين بواجبهم نحو ذلك.

وقد جاء في رواية أخرى أخرجها الإمام مسلم ماهو أبلغ في الدلالة على ذلك ، وذلك في قوله ﷺ لأبي ذر « إنه قد وُجِّهَتْ لي أرض ذات نخل لاأُراها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عني قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم!».

قال أبو ذر: فأتيت أُنيْسا فقال: ماصنعت؟ قلت: صنعت أني أسلمت وصدقت ، قال: مابي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت ، فأتينا أُمَّنا فقالت: مابي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمت وصدقت ، فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارا ، فأسلم نصفهم ، وكان

يؤمهم « أَيْماءُ بن رَحَضَة الغفاري » وكان سيدهم ، وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقي » [1].

وهكذا أسلمت هذه القبيلة بدعوة أبي ذر رضي الله عنه حيث توجه بدعوة النبي ﷺ ووضع نصب عينيه توجيهه السامي بتبليغ قومه، وكان له ولقومه مواقف مشرفة في الدعوة والجهاد.

هذا وقد جاء في هذا الخبر أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أكبَّ على أبي ذر رضي الله عنه لإنقاذه ، وذكَّر المشركين بما يخشاه من انتقام قبيلة غفار منهم بقطع طريق تجارتهم إلى الشام.

وهذا مسلك موفق مع هؤلاء الكفار ، وفق الله تعالى إليه العباس ليتم إنقاذ أبي ذر ، حيث خاطب قومه بالوازع الذي يفهمونه ويقدرونه ، وهو وازع المصالح التجارية التي تقوم عليها حياتهم.

وهذا درس بليغ ينبغي للمسلمين وعيه والاستفادة منه.

---

(١) صحيح مسلم رقم ٢٤٧٣ ، كتاب فضائل الصحابة.

مواقف عالية من صبر النبي ﷺ على الأذى

لقد تعرض رسول الله ﷺ وهو يدعو إلى الله في مكة إلى أذى شديد من زعماء الكفار.

ولقد كان قوي الشخصية شجاعًا في مواجهة هؤلاء الزعماء على الرغم مما كانوا عليه من قوة معنوية، ومكانة عالية بين العرب، فقد كانوا يقتلون بنظراتهم الحادة وألسنتهم السليطة كل ضعيف خوار، وكان العرب جميعًا يحترمونهم ويقدرون رأيهم لمكانتهم من خدمة بيت الله الحرام وجواره.

ولكن رسول الله ﷺ واجههم بما يكرهون حينما أصروا على باطلهم، وتحداهم بما عجزوا عن مقاومته حتى أسقط سمعتهم الوهمية القائمة على الدجل واستغلال غفلة العقول.

فلم يكن منهم إلا أن ضاعفوا من كيدهم وأذاهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين به.

وقد جاءت روايات في بيان ما تعرض له رسول الله ﷺ من الأذى، فمن ذلك:

١ – ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله قال: حدثني يحيى بن عروة ابن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص

قال: قلت له [1]: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجْر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر ذلك الرجل قط، قد سفه أحلامنا وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا.

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ.

قال: ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ: ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: أتسمعون يامعشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح.

قال: فأخذت القوم كلمته حتى مامنهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع،حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك لَيَرْفَؤْه بأحسن مايجد من القول،حتى إنه ليقول: انصرف أبا القاسم،فوالله ماكنت جهولاً!!

(١) أي قال عروة لعبد الله بن عمرو.

قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجْر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض: ذكرتم مابلغ منكم، ومابلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه.

فبينما هو في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: نعم أنا الذي أقول ذلك.

قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه.قال:فقام أبوبكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله!ثم انصرفوا عنه،فإن ذلك لأشد مارأيت قريشًا نالوا منه قط[1].

وأخرجه أبو يعلى والطبراني بنحوه وفيه أن أبا جهل قال:يا محمد

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٨٩، السير والمغازي/ ٢٢٩.
وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق وذكره مثله – مسند أحمد ٢/ ٢١٨ _.
وذكره الهيثمي وقال: وقد صرح ابن إسحاق بالسماع وبقية رجاله رجال الصحيح – مجمع الزوائد ٦/ ١٦ –.
وأخرج الإمام البخاري نحوه مختصرًا – صحيح البخاري رقم ٣٦٧٨، كتاب فضائل الصحابة –.

ماكنت جهولاً، فقال رسول الله ﷺ: « أنت منهم ».

ذكره الهيثمي وقال: وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وحديثه حسن، وبقية رجال الطبراني رجال الصحيح [(١)].

٢ – أخرج الحافظ أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر أنهم قالوا لها: ما أشدُّ مارأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ، فقالت: كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسول الله ﷺ ومايقول في آلهتهم فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ فقاموا إليه وكانوا إذا سألوا عن شيء صَدَقهم فقالوا: ألست تقول كذا وكذا؟ فقال: بلى فتشبثوا به بأجمعهم.

فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقيل له: أدرك صاحبك فخرج من عندنا وإن له غدائر [(٢)] فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟ قال: فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لايمس شيئًا من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت ياذا الجلال

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٦.

(٢) أي إن شعر رأسه مفرق إلى غدائر.

والإكرام [1].

وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى هذه الرواية وقال: ولقصة أبي بكر هذه شاهد من حديث علي أخرجه البزار من رواية محمد بن علي عن أبيه أنه خطب فقال:من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت.

قال: أمَا إني مابارزني أحد إلا أنصفت منه، ولكنه أبو بكر، لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش، فهذا يجره وهذا يتلقاه، ويقولون له: أنت تجعل الآلهة إلها واحدا، فو الله مادنا منه أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا، ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟!

ثم بكى عليّ ثم قال: أُنشِدكم الله أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال علي: والله لساعة من أبي بكر خير منه، ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا يعلن إيمانه [2].

وأخرج الإمام أحمد وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك رضي

(١) مسند الحميدي ١/ ١٥٥ رقم ٣٢٤، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى أبي يعلى والحميدي – المطالب العالية ٤/ ١٩٢، رقم ٤٢٧٩ – وحسن إسناده – فتح الباري ٧/ ١٦٩– ووثق البوصيري رجاله – هامش المطالب العالية ٤/ ١٩٣ –.

(٢) فتح الباري ٧/ ١٦٩.

الله عنه قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله فقالوا من هذا: فقالوا: أبو بكر المجنون.

ذكره الهيثمي وقال: ورجالهما رجال الصحيح [1].

٣ – وأخرج الحافظ ابن سيد الناس من حديث عروة بن الزبير قال: حدثني عمرو بن عثمان بن عفان عن أبيه عثمان بن عفان قال: أكثر مانالت قريش من رسول الله ﷺ أني رأيت يوما- قال عمرو: فرأيت عيني عثمان بن عفان ذرفتا من تذكر ذلك – قال عثمان بن عفان: كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر، وفي الحجْر ثلاثة نفر جلوس: عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، فمر رسول الله ﷺ فلما حاذاهم أسمعوه بعض مايكره، فعُرِف ذلك في وجه النبي ﷺ، فدنوت منه حتى وسَطته، فكان بيني وبين أبي بكر، وأدخل أصابعه في أصابعي حتى طفنا جميعا، فلما حاذاهم قال أبو جهل: والله لانصالحك ما بَلَّ بحر صوفة وأنت

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٧.
وأخرجه الحاكم من حديث أنس رضي الله عنه وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي – المستدرك٣/ ٦٧.

تنهى أن نعبد مايعبد آباؤنا، فقال رسول الله ﷺ: أَنَّى ذلك!

ثم مضى عنهم فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه فدفعته في صدره فوقع على استه، ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف، ثم قال: أما والله لاتنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلا.

قال عثمان:فوالله مامنهم رجل إلا أخذه أَفْكل[1]، وهو يرتعد، فجعل رسول الله ﷺ يقول: بئس القوم أنتم لنبيكم، ثم انصرف إلى بيته، وتبعناه خلفه حتى انتهى إلى باب بيته، ووقف على السُّدَّة ثم أقبل علينا بوجهه فقال: أبشروا فإن الله عز وجل مظهرٌ دينه، ومُتِمٌّ كلمته وناصر نبيه،إن هؤلاء الذين ترون ممايذبح الله بأيديكم عاجلا.

قال: ثم انصرفنا إلى بيوتنا، فو الله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا [2].

وذكر الحافظ ابن حجر في شرح حديث عبد الله بن عمرو السابق من رواية الزبير بن بكار والدارقطني في «الأفراد» من طريق

---

(١) الأفكل بفتح الهمزة وسكون الفاء الرعدة – القاموس المحيط –.

(٢) عيون الأثر ١/ ١٠٣.

عبد الله بن عروة بن الزبير، عن عروة قال: حدثني عمرو بن عثمان عن أبيه عثمان.. وذكر أوله، ثم قال: « فذكر قصة يخالف سياقها حديث عبد الله بن عمرو هذا، فهذا الاختلاف ثابت على عروة في السند، ولكن سنده ضعيف، فإن كان محفوظًا حمل على التعدد، وليس ببعيد لما سأبينه» ثم قارن بين الروايتين وقال: وهذا يقوي التعدد [(1)].

وهذا يعني أنه إذا كان خبرًا واحدًا فالمعتبر هو حديث عبد الله ابن عمرو لأنه أقوى إسنادًا، وإن حمل على تعدد القصة وهو الذي رجحه الحافظ ابن حجر فإن ضعفه محتمل للتقوية، وهكذا أورده الحافظ ابن سيد الناس على أنه خبر مستقل.

٤ – وأخرج الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ذات يوم وهو جالس حزينًا قد خُضِب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، قال فقال له: مالك؟ قال فقال له: فعل بي هؤلاء وفعلوا، قال فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم، قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة، فدعاها فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع،

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٦٨.

فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: حسبي[1].

من هذه النصوص نعرف مدى ماكان المشركون يضمرون لرسول الله ﷺ من عداوة، حيث كانوا يجتمعون على محاربته ويوصي بعضهم بعضا بالوقوف في وجهه، ويلوم بعضهم بعضا على التقصير في مباداته بالعداء.

وحينما يكون العدو متفرقا أمره ويقاوم أفرادُه الدعوة الوافدة وهم فرادى فإن أمره يكون ميسورًا إذ بإمكان صاحب الدعوة أن يصل إلى إقناع بعضهم بدعوته وأن يتفادى عداوة الآخرين بكلمة مودة أو برد حازم يسكت عدوه، فأما حين يجتمع أفراد العدو على صاحب الدعوة فإن موقفه يكون حرجا أمامهم إذ أن السيادة في مثل هذه الاجتماعات تكون للدهماء الذين تحركهم عادةً العصبيةُ القبلية والتمسك بالموروثات وإن كانت تتنافى مع العقل السليم، ولايتمكن صاحب الدعوة –والحالة هذه– من مخاطبة أصحاب العقول المفكرة.

وقد كان زعماء قريش الذين تغلب هذه الصفات على أصحاب

---

(١) مسند أحمد ٣/ ١١٣.

وذكره الحافظ ابن كثير وقال: هذا إسناد على شرط مسلم – البداية والنهاية ٦/ ١٢٨ – ١٢٩ – وصححه الحافظ الذهبي – تاريخ الإسلام / السيرة ١٣٠ –.

الرأي منهم هم الذين يحتلون ساحات المسجد الحرام ولايتركون الفرصة لأصحاب العقول المفكرة التي تميل إلى التحرر من الأوهام والخرافات التي لاتنسجم مع العقول السليمة.. لايتركون لهم الفرصة ليلتقي بهم رسول الله ﷺ أو يسمعوا كلامه فقد قاموا بالحجْر الفكري على مجتمعهم وطبقوا ذلك بصرامة فائقة حتى كان من يريد السماع من النبي ﷺ يضطر إلى التسلل في الخفاء.

ومن هنا كان موقف النبي ﷺ صعبًا للغاية في معاملتهم وكان لابد له أحيانًا أن يخرج عن حلمه المعهود ليسلك معهم طريق الحزم والمجابهة كما هو الحال في الخبر الأول لأن الذين يواجهونه يخاطبونه بعواطفهم الثائرة الحاقدة ولايخاطبونه بعقول متزنة تدرك مايُلقَى عليها من قول وتفكر فيه.

فلما قال لهم: أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح استكانوا وخضعوا له.

لقد كان زعماء الكفار أولئك يحاولون أن يبنوا لأنفسهم مجدا من خلال جرأتهم على الرسول ﷺ وإقدامهم على سبه وإيذائه أمام الجمهور، حيث يظهرون بمظهر الأبطال الذين لايبالون بسخط النبي ﷺ والمسلمين ولا بسخط حماتهم من بني هاشم، فكان من المناسب أن

يجيبهم النبي ﷺ بكلام شديد يهز فيه من شخصياتهم ويسقط فيه من معنوياتهم حتى لايمتدحوا أمام أتباعهم بتلك المواقف الوهمية، ولقد حصل للنبي ﷺ ما أراد حيث وجموا لسماع ذلك الكلام وتكلموا بكلام يحمل معنى الاعتذار عن موقفهم السيء ذلك.

إن اجتماعهم على الباطل يلغي تفكيرهم السليم ويجعلهم ينطلقون من الحماس المتأجج من العواطف الثائرة، وغالبًا مايكون التفكير والتوجيه من فرد أو أفراد يتزعمون أفراد المجتمع، فيبقى أغلب الأفراد تابعين لهؤلاء الزعماء من غير تفكير في صواب مادعوهم إليه من خطئه ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى التفكير المتأمل المتجرد عن فكر الجماعة الذي يهيمن عادة على الأفراد حيث يقول تعالى ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ:٤٦].

فإذا خلا الإنسان بنفسه ثم تفكر في أمر النبي ﷺ فإنه سيلغي من حسابه اتهامه بالجنون وغيره مما ألصقه به الأعداء، وكذلك إذا خلا بصاحبه وقَارَنَا بين النبي ﷺ ومن عُرف عنهم الإصابة بهذه التهم،

لأن الفكر – والحال هذه – ينطلق من العقل المتجرد من العاطفة والتبعية للقوى المهيمنة على العقول فلابد أن يصل إلى النتيجة الصحيحة الموافقة للعقل السليم.

وحينما يخلو الإنسان إلى فكره يخبو نداء العاطفة تدريجيًّا ويرتفع نداء العقل فيصلُ الإنسان إلى الحكم الصحيح العادل.

وفي هذه الأخبار مواقف رائعة لأبي بكر رضي الله عنه،حيث وقف دون النبي ﷺ ودافع الناس عنه وحماه بنفسه حتى انصرف عنه أعداؤه، وفيها بيان لشدة الأذى الذي تحمله في سبيل ذلك،وهذا دليل على قوة إيمانه وشجاعته النادرة واستهانته بنفسه في سبيل الدفاع عن رسول الله ﷺ.

وفي أحد هذه الأخبار شهادة على شجاعة أبي بكر البالغة يقدمها بطل كبير من أبطال الإسلام هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي لم تنتكس له راية ولم يقف له أحد في موقف.

وإنما يدرك فضل أهل الفضل من شاركهم في هذا الفضل، حيث شهد له بالإقدام على مدافعة المشركين وإنقاذ النبي ﷺ من بين أيديهم بينما لم يجرؤ غيره على ذلك، وإن هذا الموقف بقدر مايصور شجاعة أبي بكر وتضحيته فإنه يصور فظاعة المشركين وعنفهم في

الانتقام وقوة شخصياتهم التي أوقفت المؤمنين حتى عن الدفاع عن رسول الله ﷺ.

وإن من مزايا هذه الشهادة الكريمة أنها تم إعلانها على ملأ من الناس، وفي وقت بدأ فيه بعض الموتورين والجهال بالغضِّ من شأن بعض كبار الصحابة، فأراد علي رضي الله عنه أن يعدِّل الموازين، وأن ينبئ الناس بأن محبتهم له يجب أن لاتطغى بحيث يترتب عليها التهوين من شأن كبار الصحابة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين.

وإننا حين نبرز حق أبي بكر وفضله كما أعلنه علي رضي الله عنهما فإننا نقدر لعلي هذا الموقف الكريم المشتمل على التواضع الجمِّ والوفاء الكبير لأخوة له مضوا على درب الجهاد والدعوة.

وفي الخبر الأخير بيان لموقف عثمان رضي الله عنه حيث دفع أبا جهل عن رسول الله ﷺ حتى أوقعه على الأرض. مع ماكان يتمتع به أبو جهل من مكانة عالية بين قومه، فرضي الله عن هؤلاء الصحابة الذين صمدوا – مع قلتهم – لأهل الباطل وهم في أوج عزهم وكثرتهم.

٥ – أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

قال: إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وإساف ونائلة: لو قد رأينا محمدا لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله!

فأقبلت ابنته فاطمة رضي الله عنها فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك.

فقال:يابنية أريني وضوءًا فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: هاهو ذا وخفضوا أبصارهم وسقطت أذقانهم في صدروهم وعُقِروا في مجالسهم فلم يرفعوا إليه بصرا ولم يقم إليه رجل.

فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من التراب فقال: شاهت الوجوه، ثم حصبهم، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر كافرًا (١).

---

(١) المسند ١/ ٣٠٣ ، ٣٦٨.وذكره الهيثمي وقال: رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح – مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٨. وأخرجه أبو نعيم من طريق ابن عباس رضي الله عنهما- دلائل النبوة لأبي نعيم / ٦٠. وأخرجه الحاكم بنحوه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه – المستدرك ٣/ ١٥٧.

في هذا الخبر بلغ الملأ من قريش القمة في التحجر الفكري حيث ضاعفوا من تهديدهم ومحاولتهم القضاء على دعوة الإسلام بالقوة، وذلك بالقضاء على داعيها الأول ﷺ.

ولكننا نجد من رسول الله ﷺ في مقابل ذلك إصرارًا أكيدا على تبليغ دعوته مهما تكن الحواجز والعوائق.

ونجد في هذا الخبر مثلا على شجاعة رسول الله ﷺ العظيمة، حيث علم من ابنته فاطمة رضي الله عنها عن قعود المشركين له وتهديدهم إياه، ومع ذلك خرج من بيته منفردا ودخل عليهم وهم مجتمعون، وإن هذا الإقدام العظيم مع احتمال وقوع الضرر البالغ يُعدُّ قمة في التضحية والبذل من أجل دعوة الإسلام.

لقد كان الشيء الذي يهيمن على مشاعر النبي ﷺ هو التفكير في دعوته وبذل كل الطاقة في محاولة الوصول إلى قلوب الناس، ولقد كان أمر حماية النفس وسلامتها من التعرض للضرر شيئا ثانويًّا لايأخذ له الرسول ﷺ أي اعتبار إذا تعارض مع الإقدام على تبليغ الدعوة.

٦ – وأخرج الإمام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل

وأصحاب له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعُه في كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم– وهو عقبة بن أبي معيط كما جاء مصرحا به في رواية مسلم الثانية– فأخذه فلما سجد النبيﷺ وضعه بين كتفيه.

قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد مايرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم.

فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم وكان إذا دعا دعا ثلاثا، وإذا سأل سأل ثلاثا، ثم قال « اللهم عليك بقريش – ثلاث مرات»فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، ثم قال: « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط ».

قال: وذكر السابع ولم أحفظه – فو الذي بعث محمدًا ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر [1].

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد رقم ١٧٩٤،صحيح البخاري كتاب الجهاد رقم ٢٩٣٤.

في هذه الرواية وما في معناها أمثلة للأذى الذي لقيه رسول الله ﷺ على يد الكفار في مكة مما يُقصد به الإهانة المادية بإلحاق الأذى الجسماني، والمعنوية بتحطيم المشاعر وإغاظة النفوس، وهي أبلغ من الحسية.

هذا وإن ماجرى من عقبة بن أبي معيط يُعدُّ اعتداء مهينا على أعظم رجل عرفه التاريخ، وهو يؤدي شعائر دينه، مما يدل على تدني مستوى أهل الباطل في معاملة أهل الحق، وهذا علامة على توغل عداوتهم وإفلاسهم في مجال الفكر والحجة البيانية، حيث استخدموا أيديهم وقوتهم المادية.

وإن حقد الكفار الدفين يجعلهم يتصرفون بمقتضى عواطفهم لابمقتضى عقولهم، حيث إنهم لو راجعوا أنفسهم بعد ذلك لأنكروا عملهم، بينما أهل الحق لاينـزلون أبدا إلى هذا المستوى الهابط.

أما موقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فإنه مثال لشدة الإرهاب الذي كان يواجهه المستضعفون في مكة، الذين لم تكن لهم عشائر تحميهم.

فالصحابة رضي الله عنهم يحبون رسول الله ﷺ أعظم مما يحبون أنفسهم ولكن ابن مسعود كان على يقين من أنه لن يصل إلى رسول

الله ﷺ إلا وهو جثة هامدة أو مايشبه ذلك، فلن يتمكن من تخليصه من الأذى.

ومن هذا الخبر نفهم أن للنساء مهمة يقمن بها لايستطيع الرجال أحيانًا أن يقوموا بها فقد استطاعت فاطمة رضي الله عنها أن تزيل الأذى عن أبيها ﷺ وأن تسب الملأ من قريش دون أن تتعرض للأذى لأن تقاليد العرب تمنعهم من الاعتداء على النساء.

وهكذا في كل زمن ينبغي للدعاة أن يستفيدوا من دور المرأة في الأمور التي تحسنها وقد لايدركها الرجال مستفيدين من الأعراف الاجتماعية التي تخدمهم.

وحينما دعا رسول الله ﷺ على الأعداء خافوا من دعوته، وهكذا الكفار يخافون من عاقبة الدعاء في الدنيا فقط، حيث إنهم لايؤمنون بالآخرة، فهل يتنبه بعض المسلمين الذين لايرتدعون عن ظلم الناس إلا خوفًا من استجابة دعائهم وحلول العقوبة الدنيوية غافلين عن مواقف الحساب يوم القيامة؟!

ومما يدل على أن النبي ﷺ قد تأثر تأثرًا كبيرًا مما حصل له ما جاء في رواية أخرى لهذا الخبر وفيها « ثم خرج – يعني رسول الله ﷺ – من المسجد فلقيه أبو البَخْتَري بسوط يتخصر به فلما رأى النبي ﷺ أنكر

وجهه فقال: مالك؟ فقال النبي ﷺ خلِّ عني، فقال: علم الله لا أخلي عنك أو تخبرني ماشأنك فلقد أصابك شيء، فلما علم النبي ﷺ أنه غير مُخَلٍّ عنه أخبره فقال: إن أبا جهل أمر فطُرِح عليّ فرث، فقال أبو البختري: هلمَّ إلى المسجد.

فأتى النبي ﷺ وأبو البختري فدخلا المسجد ثم أقبل أبو البختري إلى أبي جهل فقال: يا أبا الحكم أنت الذي أمرت بمحمد فطُرح عليه الفرث؟ قال: نعم، قال: فرفع السوط فضرب به رأسه، قال: فثار الرجال بعضها إلى بعض، قال وصاح أبو جهل، ويْحكم هي له، إنما أراد محمد أن يلقي بيننا العداوة وينجو هو وأصحابه.

ذكره الهيثمي وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه الأجلح بن عبد الله الكندي وهو ثقة عند ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره [1].

وأبو البَخْتَري هو ابن هشام بن الحارث بن أسد، وأمه من بني هاشم، وكان من فريق المعتدلين من الكفار الذي تميزوا بوضوح بعد نقض صحيفة المقاطعة وكان من الذين نادوا بنقضها.

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٨.

٧ – وأخرج أبو نعيم من طريق محمد بن إسحاق عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه عن هبَّار بن الأسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزوا إلى الشام وتجهزتُ معهما فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إليه (١) فلأوذينه في ربه فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يامحمد هو يكفر بالذي دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فقال رسول الله ﷺ: « اللهم ابعث عليه كلبًا من كلابك».

ثم انصرف عنه فرجع إليه (٢) فقال: أي بني ماقلت له؟ قال: كفرت بإلهه الذي يعبد. قال فماذا قال لك: قال، قال: اللهم ابعث عليه كلبًا من كلابك، فقال: أي بني والله ما آمن عليك دعوة محمد.

قال: فسرنا حتى نزلنا الشراة وهى مأسدة فنزلنا إلى صومعة راهب، فقال: يامعشر العرب ماأنزلكم هذه البلاد وإنها مسرح الضيغم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم حقي، قلنا: أجل يا أبا لهب فقال: إن محمدًا قد دعا على ابني دعوة والله ما آمنها عليه فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ثم افرشوا حوله، فبينما نحن حوله وأبو لهب معنا أسفل، وبات هو فوق المتاع فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما

---

(١) يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) يعنى إلى أبيه.

لم يجد مايريد تقبض ثم وثب فإذا هو فوق المتاع، فجاء الأسد فشم وجهه ثم هزمه هزمة ففضخ رأسه، فقال: سيفي ياكلب، لم يقدر على غير ذلك، ووثبنا فانطلق الأسد وقد فضخ رأسه فقال له أبو لهب: قد عرفت والله ماكان لينفلت من دعوة محمد (1).

وهكذا استجاب الله تعالى دعوة رسول الله ﷺ فبعث على عتبة ابن أبي لهب الأسد الذي أصبح جنديًّا من جنود الدفاع عن الحق فأهلكه، ولم تُجْدِ كل الاحتياطات الامنية التي أحاط بها أبو لهب ابنه.

ومن الغريب في الأمر أن أولئك الكفار يوقنون بأن النبي ﷺ مستجاب الدعوة ومع ذلك يستمرون في مقاومته وإيذائه، ولايحملهم ذلك على الإيمان به والاستجابة لدعوته، وهذه صورة من صور اتباع الهوى المنحرف، حيث يكون الحق واضحا مثل الشمس فيحيد أصحاب الهوى المنحرف عن اتباعه.

ولقد حمى الله تعالى نبيه ﷺ في مواطن أخرى من أذى الكفار كما أخرج الإمام مسلم بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو

---

(1) دلائل النبوة لأبي نعيم / 162. وأخرجه أيضًا الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي – المستدرك 2/ 539 – وحسن إسناد الحاكم الحافظ ابن حجر – فتح الباري 4/ 39 –.

جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم [1]؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته – أو قال: لأعفرن وجهه في التراب – قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ:لودنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا.

قال: فأنزل الله عز وجل – لاندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه –: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ٦ – ١٩] [2].

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أبو بكر الحميدي بإسناده عن أسماء

---

(١) يعني هل يلصق وجهه بالعفر وهو التراب ويعني بذلك السجود.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المنافقين / رقم ٢٧٩٧ ص ٢١٥٤.

بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد:١] أقبلت العوراء أم جميل[١] ولها ولولة[٢] وفي يدها فهر[٣] وهي تقول:

مذمما أبينا[٤] ودينه قلينا[٥]

وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ثم قرأ قرآنًا اعتصم به – كما قال – وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٥].

فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر إني أُخبرتُ أن صاحبك هجاني، فقال: لاورب هذا البيت ماهجاك،قال:فولَّت وهي تقول:قد علمَتْ قريش أني بنت سيدها[٦].

---

(١) هي امرأة أبي لهب المذكورة في السورة.

(٢) أي عويل.

(٣) أي حجر.

(٤) تريد محمدًا ﷺ، وهكذا كان الكفار يسمونه على سبيل السخرية.

(٥) أي أبغضنا.

(٦) مسند الحميدي ١/ ١٥٣ / ١٥٤، رقم ٣٢٣. وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من طريق الحميدي، وذكر مثله، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي – المستدرك ٢/ ٣٦١.

ومن أمثلة ذلك ماسبق من خبر أبي جهل حينما هدد بفضخ رأس النبي ﷺ بالحجر فمنعه الله تعالى منه.

ولكن الله تعالى يمكِّن الكفار أحيانًا – كما في الخبر السابق – من إيصال الأذى لرسوله ﷺ، وذلك لرفع ذكره في العالمين، وليكون قدوة لأتباعه المؤمنين في الرضا بقضاء الله تعالى، والصبر الجميل على الأذى.

وقد يمكِّن الله تعالى أهل الباطل من أهل الحق برهة من الزمن فيقومون بالتنكيل بأهل الحق ومحاولة إسكات أصواتهم، ولكن سرعان ماينهار بناؤهم أمام تماسك أهل الحق وصدق تمثيلهم لدينهم، كما قال الله: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران ١١١].

مواقف من صبر الصحابة على الأذى

لقد كانت مواجهة زعماء قريش لدعوة الإسلام عنيفة متواصلة. ولقد ساءهم كثيرًا أن دخل في الإسلام عدد من أشرافهم وأبنائهم، فحاولوا فتنتهم بالتأليف أولاً حيث أغروهم بالأموال والجاه إذا هم تركوا دينهم، فلم ينجحوا معهم في ذلك فلجؤوا إلى محاولة حرمانهم من الأموال والمتاع فلم يثنهم ذلك عن عزمهم على التمسك بدينهم الحنيف.

عند ذلك تحول الكفار إلى فتنة التخويف حيث قاموا بإيذاء المسلمين وتعذيبهم، وقد يبدؤون بفتنة الترهيب قبل المرور بفتنة الترغيب لإدراكهم بأن المسلمين ليسوا طلاب دنيا وأن أي محاولة في ترغيبهم ستبوء بالفشل، أو انطلاقًا من شدة حنقهم على الإسلام ودعاته.

وقد مر بهذه الفتنة أكثر المسلمين سواء في ذلك الأغنياء والفقراء والأحرار والعبيد.

ومن أمثلة ذلك ماذكره ابن سعد من رواية محمد بن عمر الواقدي بإسناده إلى إبراهيم بن محمد بن أبي طلحة قال: قال طلحة ابن عبيد الله: حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول:

سلوا أهل الموسم أفيهم رجل من أهل الحرم؟ قال طلحة: قلت: نعم أنا. فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قلت ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ فإياك أن تسبق إليه.

قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعًا حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا نعم محمد بن عبد الله الأمين قد تنبأ، وقد اتبعه ابن أبي قحافة، قال: فخرجت حتى دخلت على أبي بكر فقلت: أتَبعت هذا الرجل؟ قال: نعم فانطلق إليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق، فأخبره طلحة بما قال الراهب، فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب فَسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك، فلما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية فشدهما في حبل واحد، ولم يمنعهما بنو تيم، وكان نوفل بن خويلد يُدْعَى أسد قريش فلذلك سُمِّي أبو بكر وطلحة القرينين.

ورواه الحاكم والبيهقي من طريق الواقدي بهذا الإسناد.

وذكره ابن كثير والذهبي من هذا الطريق، وسكت هؤلاء الأئمة عنه [(١)].

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٢١٤، المستدرك ٣/ ٣٦٩، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٦٦، البداية والنهاية ٣/ ٢٨، تاريخ الإسلام/ السيرة/ ١٣٩.

وهذه الرواية من طريق الواقدي وقد حكم علماء الحديث عليه بالترك ولكن العلماء اعتمدوا رواياته في السيرة والمغازي، ويكفي إقرار هؤلاء الأئمة: ابن سعد والحاكم والبيهقي وابن كثير والذهبي لهذه الرواية.

ومن ذلك ماجرى للزبير بن العوام رضي الله عنه من تعذيب عمه له كما أخرج الحاكم عن أبي الأسود عن عروة قال: أسلم الزبير ابن العوام وهو ابن ثمان سنين وهاجر وهو ابن ثمان عشرة سنة وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار ويقول: ارجع إلى الكفر فيقول الزبير: لا أكفر أبدًا.

وسكت عنه الحاكم والذهبي [(١)].

وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات إلا أنه مرسل [(٢)].

وكذلك ماجرى لعثمان بن عفان من تعذيب عمه له كما أخرج ابن سعد بإسناده عن محمد بن إبراهيم بن حارث التيمي عن أبيه قال: لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحَكَم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطًا وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا

(١) المستدرك ٣/ ٣٥٩ – ٣٦٠.

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ١٥١.

أحلك أبدًا حتى تدع ماأنت عليه من هذا الدين، فقال عثمان: والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه [1].

وهكذا جرى التعذيب والإذلال لهؤلاء الكبراء المعروفين في قبيلة قريش من أصحاب النسب الرفيع، ولم يردوا على قومهم الذين آذوهم لأنهم كانوا في المرحلة الأولى التي أمرهم فيها رسول الله ﷺ بالصبر على الأذى وعدم رد الاعتداء بمثله.

ومن أمثلة الثبات على الدين رغم التعرض للمحن ماجرى لسعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه مع أمه، وذلك فيما أخرجه أبو يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي قال: إن سعد بن أبي وقاص قال: نزلتْ فيَّ هذه الآية: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان:١٥] كنت رجلاً برًّا بأمي فلما أسلمت قالت: ياسعد ماهذا الذي أراك قد أحدثت؟ لَتَدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي فيقال ياقاتل أمه، قلت: يا أُمَّه لاتفعلي

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٥٥.

فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يومًا وليلة لاتأكل، فأصبحت قد جهدت،فمكثت يومًا آخر وليلة قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ماتركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي،فلما رأت ذلك أكلت فنـزلت هذه الآية [(١)].

وأخرجه الإمام مسلم بنحوه ضمن حديث طويل [(٢)].

وقد ظهر بهذا إيمان سعد القوي حيث ثبت على دينه ولم يخضع لهذا الابتلاء الذي جعله في خيار بين طاعة الله وطاعة أمه، ففضل طاعة الله جل وعلا.

أما المستضعفون منهم كالموالي[(٣)] فإنهم تعرضوا لأذًى شديد متواصل، واتفق زعماء المشركين على الاستمرار في إيذائهم حتى يظفروا بمن يرجع منهم عن دينه فيكون ذلك نصرًا لهم على رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: ثم إنهم عَدَوا على مَنْ أسلم، واتّبع رسول الله ﷺ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٦٥.

(٢) صحيح مسلم، فضائل الصحابة ١٨٧٧ رقم ١٧٤٨.

(٣) الموالي هم الذين أسلموا من غير العرب .

من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يَصْلُبُ لهم، ويعصمه الله منهم.

وكان بلال، مولى أبي بكر رضي الله عنهما، لبعض بني جمح، مُولَّدا من مولديهم، وهو بلال بن رباح، وكان اسم أُمّه حمامة، وكان صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح يخرجه إذا حَميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحَد أحَد [1].

وأخرج الإمام أحمد والحاكم خبر تعذيب بلال وغيره من المستضعفين، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي. وكذلك صححه الذهبي في تاريخ الإسلام [2].

وقد ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن أبا بكر مرَّ به وهو يعذب

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٤ – ٣٢٥.

(٢) مسند أحمد ١/ ٤٠٤، المستدرك ٣/ ٢٨٤، تاريخ الإسلام/ السيرة/ ٢١٧.

فاشتراه من أمية بن خلف الجمحي ثم أعتقه لوجه الله تعالى، وذكر أنه أعتق ستة آخرين من المعذبين وهم: عامر بن فهيرة، وأم عبيس، وزنِّيرة، والنهدية وابنتها وجارية بني مؤمِّل [1].

وأخرج الإمام البيهقي بإسناده عن يونس بن بكير عن هشام بن عروة عن أبيه:أن أبا بكر أعتق ممن كان يُعذَّب في الله سبعة، فذكر منهم «الزِّنِّيرة» قال:فذهب بصرها وكانت ممن يعذب في الله على الإسلام،فتأبى إلا الإسلام،فقال المشركون:ماأصاب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت:كلا والله ماهو كذلك،فرد الله عليها بصرها [2].

وفي هذا الخبر دلالة على قوة إيمان الصحابة ووضوح عقيدة التوحيد عندهم وأن ذلك كان حتى على مستوى العامة منهم.

وإن ما أكرم الله تعالى به تلك المرأة المؤمنة من رد بصرها إليها يُعدُّ إرغامًا للكافرين حيث كانوا يعتقدون أن أصنامهم تضر وتنفع من دون الله تعالى.

وهكذا كان أبو بكر ينفق ماله لإنقاذ المسلمين المستضعفين من أيدي الكافرين الطغاة ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٩ – ٣٢٦.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٨٢.

وقد أثنى الله تعالى على هذا العمل الصالح بآيات من سورة ﴿الليل﴾ وذلك كما أخرج الحاكم من طريق ابن إسحاق قال حدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قال أبو قحافة لأبي بكر: أراك تعتق رقابًا ضعافًا فلو أنك إذ فعلت مافعلت أعتقت رجالاً جُلْدًا يمنعونك ويقومون دونك، فقال أبو بكر: يا أبت إني إنما أريد ما أريد: لَمَا نزلت هذه الآيات فيه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل:٥-٢١].

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[١].

وذكره السيوطي ونسبه إلى ابن جرير وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير وذكر نحوه وقال فيه: فحدثني بعض أهل بيتي أن

(١) المستدرك ٢/ ٥٢٥.

هذه الآية نزلت فيه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ الآيات[1].

وفي هذه المحاورة بين أبي بكر وأبيه ندرك لونًا من ألوان الفرق بين نظرة أهل الجاهلية ونظرة المسلمين بالنسبة لوجوه إنفاق المال وبذل المعروف، فوالد أبي بكر ينظر إلى مستقبل الحياة الدنيا فيشير على ولده بأن يضع المعروف فيمن يستطيعون نفعه في مستقبل حياته، وهذا مبلغ علمه، فهو لايؤمن بالآخرة، وبذلك فإنه لايتصور معروفًا يُبذل في الدنيا لَيجني باذله نفعه في الآخرة، ولهذا فإن بذل المعروف في ضعاف الناس الذين لايرجو نفعهم في الدنيا يعدُّ في نظره ونظر أهل الجاهلية من ضعف الرأي وضآلة التفكير، بينما يجيبه أبو بكر بقوله:«يا أبت إنما أريد ماأريد» فإذا كان أهل الجاهلية يريدون قبض ثمن معروفهم في الدنيا فإنه لايريد ذلك، وإنما يريده في الحياة الآخرة طلبًا لرضوان الله تعالى والدرجات العُلَى في الجنة.

وحينما يُحشر الخلائق يوم القيامة وتوزن الأعمال ويكون الحساب يذكر العاملون للدنيا فقط أنهم قد خسروا كل شيء، ويوقنون بأن الذين عملوا للآخرة كانوا أكمل عقلاً وأسد رأيًا منهم.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٥٨.

وإنه ليشبه عمل هؤلاء الذين يعملون لدنيا هم مايقوم به بعض المسؤولين من المسلمين الذين يقدمون المعروف لكبار الناس ممن يرجون نفعهم في الحياة الدنيا ولايريدون ببذل المعروف وجه الله تعالى والدار الآخرة. بينما يقبضون معروفهم عن ضعفاء الناس الذين لايرجون منهم نفعًا دنيويًّا، وإن كان هؤلاء يختلفون عن أهل الجاهلية بكونهم مسلمين ولهم أعمال صالحة أخرى.

إن الذي ينظر في بذل المعروف إلى الكسب الأخروي لايفرق في ذلك بين كبراء الناس وضعفائهم، ولا بين أصحاب المسؤولية ومن هم خلْوٌ منها لأنه لاينتظر منهم وهو يبذل لهم المعروف أن يبادلوه بمثله وإنما ينتظر الأجر والرفعة في الآخرة،وذلك هو الفلاح الأكبر.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن والد أبي بكر قد أسلم يوم فتح مكة رضي الله عنهما.

وممن تعرض للأذى عمار بن ياسر وأبوه وأمه رضي الله عنهم.

قال ابن إسحاق رحمه الله: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وأبيه وأمه – وكانوا أهل بيت إسلام – إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول – فيما بلغني – صبرًا آل ياسر موعدكم الجنة، فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا

الإسلام[1].

وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي[2].

وذكره الهيثمي وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات[3].

وقد بقيت آثار التعذيب على ظهر عمار بعد ذلك كما روى ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: أخبرني من رأى عمار بن ياسر متجردًا في سراويل، قال: ونظرت إلى ظهره فإذا فيه حَبَط فقلت: ما هذا؟ قال: هذا ما كانت قريش تعذبني في رمضاء مكة[4].

وممن تعرضوا للأذى خباب بن الأرَتّ رضي الله عنه، ومن ألوان هذا العذاب ما أخرجه أبو نعيم عن الشعبي قال: سأل عمر خبابًا عما لقي من المشركين، فقال خباب: يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري، فقال عمر: مارأيت كاليوم، قال: أوقدوا لي نارًا فما أطفأها إلا ودك ظهري[5]!

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٧.
(٢) المستدرك ٣/ ٣٨٨.
(٣) مجمع الزوائد ٩/ ٢٩٣.
(٤) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٦٠.
(٥) الحلية ١/ ١٤٣ – ١٤٤.

وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي ليلى الكندي قال: جاء خباب إلى عمر فقال: ادْنُ فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار، فجعل خباب يريه آثارًا بظهره مما عذبه المشركون.

قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح [(١)].

وإنما ذكر عمر عمارًا لاشتراكه مع خباب في التعذيب، والرواية الأولى تبين أن خبابًا أظهر آثار التعذيب بعدما سأله أمير المؤمنين عمر عن ذلك رضي الله عنهم أجمعين.

وأخرج الإمام البخاري بسنده عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فَيُجَاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله لَيتمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضْرَمَوت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» [(٢)].

---

(١) سنن ابن ماجه / المقدمة رقم ١٥٣.

(٢) صحيح البخاري رقم ٦٩٤٣ (الفتح ١٢/ ٣١٥).

ومن هذه النماذج العالية نعرف كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يضحون بأنفسهم في سبيل هذا الدين ويتحملون أنواع الأذى في سبيل إظهار دعوتهم، حتى ضربوا بذلك أروع الأمثلة لمن جاء بعدهم في الصبر والتضحية، وتقديم مصلحة الدعوة الإسلامية على المصالح الذاتية.

وفي قوله ﷺ: « صبرًا آل ياسر موعدكم الجنة » تحديد للهدف العالي الذي يجب أن يسعى له كل مسلم، فإن النبي ﷺ لم يَعدْهم بقصور الدنيا وبساتينها ونعيمها مع ماكان يعلمه بوحي من الله تعالى من غلبة هذا الدين وانتصار المسلمين على أمم الأرض في المستقبل، لأن هذا ليس هو الهدف السامي الذي شرع الله الإسلام من أجله إنما الهدف السامي هو الذي أثنى الله به جل وعلا على صحابة رسول الله ﷺ بقوله: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح:٢٩] وهو ماوُعد به آل ياسر في هذا الحديث لأن المراد بالفضل في الآية الجنة.

إنه لو كان الوعد بمتاع الحياة الدنيا الزائل لما هانت على هؤلاء أنفسهم لأن هذا الهدف يستدعي استبقاءهم لأنفسهم حتى يظفروا به، ولما وُجد الشهداء في سبيل الله تعالى إلا قليلاً ولما حصل النصر والتمكين في الأرض للمسلمين.

إن الإسلام يشد المسلمين إلى الآخرة لتهون عليهم الحياة الدنيا، فإذا عرفوا هذا الهدف وطبقوه انتصروا على أعدائهم لأن وصولهم إلى هذا الهدف يستدعي تسابقهم إلى الموت في سبيل الله تعالى، أما أعداؤهم فإن أهدافهم دنيوية قريبة وإن الوصول إليها يستدعي تنافسهم على البقاء، والمنطق الطبيعي في ذلك أن يحاول كل واحد منهم أن يدرأ الخطر عن نفسه ويتقي بغيره، بينما المنطق الطبيعي بالنسبة للمسلمين الذين يعون الهدف السامي أن يفدي كل واحد منهم إخوانه بنفسه ليسبقهم على الوصول إلى الهدف.

ومن هنا كان المسلمون الحقيقيون المدركون لأهداف دينهم المطبقون لمناهجه لا يمكن أن يُغلبوا بصورة نهائية وإنما قد يصابون بانتكاسات مؤقتة بسبب أخطاء يرتكبونها ثم يعودون لمحاولة بلوغ الأهداف السامية، كما هو الحال في صحابة رسول الله ﷺ.

لقد تنوعت وسائل الأذى من الكفار للمسلمين وكانوا يعاملون كل مسلم حسب مكانته الاجتماعية وعمله، وفي ذلك يقول ابن إسحاق رحمه الله: وكان أبو جهل الفاسق يغري بهم- يعني بالمسلمين – في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لَنُسفِّهن

حلمك، ولَنُفَيِّلَنَّ رأيك [1]، ولنَضَعَنَّ شرفك. وإن كان تاجرًا قال: والله لنُكَسِّدَنَّ تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به [2].

وهكذا يقف الكفار في مواجهة المسلمين فيقومون بتشويه سمعتهم وإسقاط مكانتهم في المجتمع بكل الطرق التي يرونها مؤثرة، وهم لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر لايتورعون عن مأثم ولايخشون عقوبة على أعمالهم السيئة، فلذلك يبيحون لأنفسهم الكذب والتزوير، ويضللون الرأي العام بأقوال وأخبار مختلقة، يقصدون منها إضعاف معنوية المسلمين.

ومن كان ماله من المسلمين يقوم على التجارة ونحوها مما يقوم على التعامل مع الآخرين فإنهم يحاصرونه ويشوهون سمعته التجارية ويضعون العراقيل في وجهه حتى يفلس في تجارته.

هكذا شأن الكفار والمنافقين في حربهم مع المؤمنين في كل زمن، وقد لايملك المسلمون من وسائل المقاومة إلا الصبر والزهد في الدنيا وانتظار الفرج،فإذا تحققت فيهم هذه الصفات كما توافرت لدى الصحابة رضي

---

(١) يعني لنخطئن رأيك.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٨.

الله عنهم فإنهم جديرون بنصر الله تعالى والتمكين في الأرض.

هذا ومما استعمله الكفار ضد المسلمين من الأذى جحود حقوقهم المالية حتى يكفروا بالإسلام، ومن ذلك ماجاء في رواية أخرجها الإمام البخاري رحمه الله من حديث خباب بن الأرتّ رضي الله عنه قال: جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقًّا لي عنده، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا حتى تموت ثم تبعث، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم، قال: إن لي هناك مالاً وولدًا فأقضيك، فنزلت هذه الآية ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم: ٧٧][1].

وقول خباب « لا حتى تموت ثم تبعث » ليس على ظاهره بل المراد منه تبكيت ذلك الكافر، يقول الحافظ ابن حجر في ذلك: مفهومه أنه يكفر حينئذ – يعني بعد البعث – لكنه لم يُرد ذلك لأن الكفر حينئذ لايتصور، فكأنه قال: لا أكفر أبدًا، والنكتة في تعبيره

---

(١) صحيح البخاري التفسير، سورة مريم / ٣ رقم ٤٧٣٢ وتكملة الآيات: ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم / ٧٧ – ٨٠].

بالبعث تعيير العاص بأنه لايؤمن به[1]،ويحتمل أنه أراد تهديده بذلك.

هذا ومما يلاحظ من الأخبار السابقة أن رسول الله ﷺ كان يمنع المسلمين آنذاك من الرد على عدوان الأعداء ويأمرهم بالصبر على الأذى لأن وضعهم لم يكن يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم بالقوة، ولاشك أن وراء أمرهم بالصبر حكمًا عظيمة.

وربما كان من الحِكَم في ذلك أن يظهر للأعداء عظمة هذا الدين، وأنه هو الدين الحق لما يتمثل به أتباعه من الصبر الطويل على الأذى، والمقدرة الفائقة على ضبط النفس، حيث يتساءل الأعداء عن السر الكامن وراء الصبر والثبات، فلا يجدون إجابة على تساؤلاتهم إلا بالتفكير في هذا الدين العظيم الذي كان وراء هذا الصمود العجيب والصبر الجميل.

هذا وقد اضطر بعض المعذبين من الصحابة للاستجابة لفتنة الكفار ظاهرًا وموافقتهم على قول مايطلبونه منهم للتخلص من تعذيبهم، كما قال ابن إسحاق رحمه الله: وحدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أكان

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٣٠.

المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب مايعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم حتى مايقدر على أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة [1].

وهكذا كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يتعرضون في ذلك العهد لأنواع من التعذيب هي فوق احتمال البشر، مما حمل بعضهم مع قوة إيمانهم على موافقة المشركين ظاهرًا فيما ألزموهم بقوله مما يتنافى مع الإسلام.

وقد أقر النبي ﷺ أولئك المعذبين على اتقاء عذاب المشركين بإظهار مايريدون منهم، ومن أدلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من حديث أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار ابن ياسر فعذبوه حتى قاربهم[2] في بعض ماأرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنا بالإيمان، قال النبي ﷺ فإن عادوا فعد.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٨.

(٢) في تفسير الطبري «باراهم» وأثبت مافي تفسير ابن كثير المنقول من الطبري لأنه هو الموافق لسياق الخبر – تفسير ابن كثير ٢/ ٦٣٧.

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [1] [النحل:١٠٦].

وهذا يعدُّ رخصة للمسلمين الذين يتعرضون للبلاء الشديد على يد الكفار، فمن ثبت وراغم الكفار كما فعل بلال فهو أفضل، ومن أخذ بالرخصة كما فعل عمار فإنه لا إثم عليه مادام قلبه مطمئنًا بالإيمان، ولله الحمد والفضل.

وفي قولـه ﷺ « كيف تجد قلبك؟ » دلالة على أهمية صيانة الفكر من أن يتطرق إليه شيء من الشبهات التي يثيرها الكفار.

إن هؤلاء المعذبين قد استطاع الكفار أن يثخنوا في أجسادهم وأن يُلجئوا بعضهم إلى قول مالا يعتقدون، ولكنهم لم يستطيعوا أبدا أن يهيمنوا على عقولهم وأفكارهم.

إن الفكر حصن حصين وهبه الله تعالى للإنسان، فلا يستطيع البشر مهما أوتوا من قوة أن يطلعوا على أسراره وخفاياه، ولا أن

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ١٨٢.

يهيمنوا عليه فيغيروا من معتقده.

إن الطغاة الجبابرة يستطيعون أن يفعلوا في أجساد المؤمنين المعذبين ماشاؤوا وأن ينتزعوا من بعضهم مايريدون من اعترافات، ولكنهم لايستطيعون أن يتحكموا في أفكارهم، وهذا من أبرز علامات الفشل والعجز، لأن تغيير الأفكار هو المقصود الأول من وراء ذلك التعذيب.

هجرة الحبشة الأولى

لقد اشتد أذى المشركين على المسلمين في مكة المكرمة كما تقدم ذكر أمثلة من ذلك،ولقد واجه المسلمون ذلك الأذى بالصبر الجميل، ولكن المشركين أصبحوا يضاعفون من ذلك الأذى كلما تقدم بهم الزمن ورأوا أن كفة المسلمين تعلو شيئا فشيئًا بدخول بعض أشراف أهل مكة في الإسلام.

فلما رأى ﷺ ذلك وجه أصحابه إلى الهجرة ليسلموا من الأذى وليعبدوا الله تعالى في حرية، وليقوموا بنشر الإسلام في بلاد أخرى، وقد اختار لهم الحبشة لما اشتهر عن حاكمها من العدل والرحمة.

وقد أخرج أهل السير خبر الهجرتين، ومن ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: لما ضاقت مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وهو لايستطيع دفع ذلك عنهم وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لايصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن بأرض الحبشة ملكًا لايُظلم أحد عنده فالحقوا

ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه»[1].

وذكر ابن هشام عن ابن إسحاق هذا الخبر ولم يذكر إسناده وذكر فيه أسماء العشرة الذين خرجوا في الهجرة الأولى، وقد اصطحب بعضهم نساءهم[2].

وأخرج ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمر الواقدي بإسناده عن الحارث بن الفضيل ورجل من بني ظفر قالا: فخرجوا متسللين سرًّا وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة[3] منهم الراكب والماشي، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار، حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حيث نُبِّئَ رسول الله ﷺ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحدا[4].

وفي هذا الخبر زيادة على ماذكر ابن إسحاق بيان تاريخ هذه الهجرة، ومطاردة قريش لهم وعدم ظفرهم بهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٦٧.
(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٣٠.
(٣) الشُّعَيبة ميناء يقع جنوب مكة على بعد ١٠٠كم- معالم مكة التاريخية والأثرية ص ١٤٧.
(٤) طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٤.

هجرة الحبشة الثانية

ذكر ابن إسحاق رحمه الله خبر هجرة الحبشة الثانية مطولاً من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشيَّ، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لانُؤْذى ولانسمع شيئًا نكرهه.

فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي[1] فينا رجلين منهم جَلْدَين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب مايأتيه منها الأُدم [2]، فجعلوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية[3]، ثم بعثوا بذلك عبد الله ابن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم سَلاَه أن يُسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار

---

(١) النجاشي لقب ملك الحبشة .

(٢) يعني الجلود.

(٣) البطارقة هم كبار القادة من الأمراء .

عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطْريقٌ إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل منهم: إنه ضَوَى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لانعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولايكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثَنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم فهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي.

قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأَسْلِمْهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذًا لا أسلمهم إليهما، ولايُكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ماجاوروني ».

هذا خبر مهم فيه كشف مخططات الأعداء التي يدبرونها للقضاء على المسلمين ومواقف عالية في عدالة الحكام، ومواقف إسلامية عالية من الصحابة رضي الله عنهم في التمثيل الصادق للإسلام، ثم نتائج باهرة في صمود أهل الحق واعتزازهم بدينهم، ونتائج فاضحة لأهل الباطل في كيدهم لأهل الحق.

ونبدأ بالإشارة على المخطط الأثيم الذي رسمه زعماء الكفر في مكة آنذاك لإرغام المسلمين على العودة والبقاء تحت سياط الذل والتبعية الممقوتة.

وإنه لعجيب أن يلاحق الكفار المسلمين خارج بلادهم، وكأنهم رأوا أن حرية العبادة التي سعدوا بها في أرض الحبشة لايجوز أن يهنؤوا بها وهم قد خرجوا عن الإطار العام الذي رسمه الطغاة في مكة لأبناء قبائلهم ومن حالفهم أو صار مملوكًا لهم، وهذا مثال لنوع

من التفكير المحدود، وضيق الأفق الذي يعيش فيه الطغاة في كل زمن، حيث يقفز إلى أذهانهم تصورات طائشة مبنية على الشعور بأن خروج طائفة من متبوعيهم عن الإطار المرسوم يعدُّ إهانة لهم، وعدم اعتراف بسلطتهم، وبذلك يتطور هذا الشعور إلى التفكير بإمكان قيام هؤلاء بعمل مضاد، وإن كانوا لا دولة لهم ولاسلطان، فيحملهم ذلك على المزيد من الملاحقة والمتابعة.

ولذلك رأينا زعماء الكفر حاولوا إعادة المهاجرين إلى مكة المكرمة ليعيشوا تحت سلطانهم، فقام الطغاة بتشكيل الوفد المذكور الذي يضم عمرو بن العاص رضي الله عنه، الذي يُعدُّ أعظم دهاة العرب كما شهد له عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما وجهه لحرب داهية الروم «أرطبون» فقال: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمَّ تنفرج.

وأعدوا مجموعة من الهدايا لملك الحبشة ووزرائه، واختاروا الجلود المدبوغة، لأنها أنفس شيء يأتي إلى الحبشة من بلاد العرب، ولقد أحسنوا إعداد الخطة، حيث أجادوا الوفد، ووجهوا عضوي الوفد إلى الاتصال أولاً بالوزراء وتقديم الهدايا لهم، وشرح القضية أمامهم ليكسبوهم إلى صفهم فيما إذا بحث الوفد القضية مع النجاشي.

كما أن من بنود الخطة أن يحاول الوفد التأثير على النجاشي ليُصدر حكمه دون أن يسمع كلام المسلمين، وذلك لعلمهم بأن المسلمين يملكون من الحجة والقوة المعنوية ما لايملكه غيرهم وإن كان خصمهم آنذاك عمرو بن العاص، لكنه بعد أن أسلم زاده الإسلام عظمة وتفوقًا، وأصبح رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده يُعدونه لعظائم الأمور.

لقد اتفق وفد قريش ووزراء النجاشي على الخطة الأثيمة التي تقضي بتسليم المسلمين بدون استجواب، وبدون أن ينالوا حريتهم في التعبير عن أنفسهم ومايريدون، وهي خطة جاهلية درج عليها الطغاة من قديم الزمن، ولم ينكرها وزراء النجاشي لأن ملوكهم السابقين كانوا على درجة من الطغيان، فقد كان مألوفًا عندهم أن يؤخذ فرد أو أفراد فيحكم عليهم غيابيًّا، وينفذ الحكم من غير حضورهم ولاتمكُّنهم من الدفاع عن أنفسهم.

وهكذا حينما يتمكن الطغيان من النفوس يرى أصحاب السلطة أن الأمر بيدهم، فإن شاؤوا أعطوا الحريات، وإن شاؤوا منعوها، وحينما يخشون من الاعتراض عليهم فإنهم قد يعرضون قضايا المتهمين في المحاكم، ويقومون بأدوار تمثيلية متقنة، توهم العالم أنهم

يعطون حرية الكلمة والدفاع عن النفس، ثم هم ينفذون ما يمليه عليهم طغيانهم، إذ أن الطغاة من البعيد جدًّا أن يتنازلوا عن مظاهر الطغيان إلا بقوة قاهرة تنقلهم من الجو المتعفن الذي يعيشون فيه إلى جو آخر يضطرون فيه إلى التنازل عن بعض مافي نفوسهم من الجبروت والترفع، أو يزولون ويزول معهم طغيانهم.

وهكذا كان وقوف النجاشي وحده وإصراره على منح المسلمين حرية الكلمة هو الذي أنقذ الله تعالى به أولئك الصحابة رضي الله عنهم، ولقد زال الطغاة أو زال طغيانهم بدخولهم في الإسلام وبقيت مظاهر العدالة التي سطرها التاريخ للنجاشي شاهدة على ما للعدالة من بقاء وخلود.

وأخيرًا خضع وزراء النجاشي لرأيه الذي يمثل العدالة والوفاء.

« قالت أم سلمة رضي الله عنها: - ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ماتقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ماعلَّمَنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ماهو كائن ».

وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم، وكل أمر يتم عن طريق الشورى فهو أدعى إلى نجاحه، لأنه يضم خلاصة عقول كثيرة.

وإن من مظاهر السمو التربوي في هؤلاء الصحابة أنهم لم يختلفوا، بل أجمعوا على رأي واحد، هو أن يعرضوا الإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ كائنًا في ذلك ماهو كائن، وإن هذا الاجتماع يعدُّ ثاني خطوة من خطوات النجاح بعد الشورى وكان عددهم بعد الهجرة الثانية ثلاثة وثمانين رجلا.

هذا وإن الذي أجمعوا عليه يعدُّ دليلاً على قوة توحيدهم واستسلامهم لله تعالى، حيث عزموا على عرض الإسلام بعزة وإن كان في ذلك هلاكهم، ولم يجعلوا لآرائهم واجتهاداتهم مدخلاً في ذلك الأمر لوضوحه، حيث كان الأمر إما أن يَعرضوا الإسلام كاملاً كما جاء من عند الله تعالى، أو أن يسلكوا سبيل المداهنة فيعرضوا منه مايوافق هوى ملك الحبشة ووزرائه، وفي هذا سلامتهم في ظاهر الأمر، لكنهم لقوة توحيدهم لم ينظروا إلى موضوع سلامتهم في الدنيا، وإنما نظروا إلى سلامتهم في الآخرة، فعزموا على عرض الإسلام كاملاً وعدم المداهنة.

وجاء في رواية أخرجها الحاكم والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن عمرو بن العاص وصاحبه قالا للنجاشي: إنهم– يعني المسلمين– لايسجدون لك، قال: فلما انتهينا إليه زَبَرَنَا مَنْ

عنده: اسجدوا للملك، فقال جعفر: لانسجد إلا لله، فقال النجاشي: وماذاك؟ قال: إن الله بعث فينا رسوله وهو الرسول الذي بشر به عيسى عليه السلام برسول يأتي من بعده اسمه أحمد فأمرنا أن نعبد الله ولانشرك به شيئًا... الحديث [1].

وهذا موقف عظيم من مواقف الاعتزاز بالإسلام والمحافظة على سلامة التوحيد، مع رهبة الموقف الذي كانوا فيه، حيث إن الأمر يتطلب في حياة الناس المعتادة أن يسلك جعفر وأصحابه طريق المداراة، ولو أدى ذلك إلى المداهنة، ولكن المؤمنين حقًّا لايفعلون ذلك بل يمثلون الحق الذي أمرهم به دينهم مهما حصل عليهم من أذى، وكذلك فعل المؤمنون في الحبشة رضي الله عنهم، وقد سخَّر الله تعالى قلب النجاشي فكان نعم النصير والحامي لهم، وكان لهذا الموقف الشجاع وأمثاله من جعفر رضي الله عنه الأثر الكبير في قناعة النجاشي بالإسلام.

إنه لابد من الدعوة إلى الإسلام بكل مافيه من قوة وتميز وإن

---

(١) المستدرك ٢/ ٣٠٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح – ٦/ ٣٠ –٣١، مجمع الزوائد (٦/ ٣٠ – ٣١).

أنكره الناس في أول الأمر، فإن قوة إصرار دعاته على تطبيقه والاستعلان به مع مخالفة التيار العام لهم يدفع المخالفين والحيارى ومن خلت أذهانهم من أي دين إلى التفكير الجاد في دوافع هذا الإصرار القوي، وفي النهاية يهديهم التأمل والتفكير السليم إلى عظمة هذا الدين الذي يدفع معتنقيه إلى المجابهة والمغامرة بالأنفس والأموال.

قالت أم سلمة رضي الله عنها في سياق روايتها: «فلما جاؤوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ؛ ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف ؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق

الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدَّقناه وآمنَّا به واتبعناه على ماجاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ماحرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لانظلم عندك أيها الملك».

وهكذا سألهم النجاشي عن دينهم الجديد الذي خالفوا فيه دين قومهم وجميع الأديان، فكان جواب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مشتملاً على أمرين مهمَّين: أولهما نقد الدين الذي تحولوا عنه وهو الوثنية، والثاني الإشادة بالدين الذي هداهم الله تعالى إليه وهو الإسلام وهكذا يكون الحوار الناجح.. البدء بالتخلية قبل التحلية.

فقد بدأ بتفريغ الأذهان من تصور أي صلاح وخير في دين الوثنية، وركز في ذلك على عبادة الأصنام، وهي انحدار فكري سحيق.

وذكر أكل الميتة، وهو أمر تتقزز منه النفوس الطيبة.

وذكر إتيان الفواحش، وهو أمر تنفر منه الطباع السليمة.

وذكر قطع الرحم وإساءة الجوار، وهي أخلاق تتنافى مع خلق الوفاء الذي تنشده الأمم في شعوبها.

وذكر عدوان القوي على الضعيف، وهذا هبوط عن مرتبة الإنسانية إلى الحيوانية، حيث إن من سمة الحيوانات المفترسة العدوان على الحيوانات الضعيفة وافتراسها.

ثم أشاد بدين الإسلام الذي هداهم الله إليه، فأثنى أولاً على رسول الله ﷺ الذي عن طريقه كانت هذه الهداية، حيث ذكر أنه منهم يعرفون نسبه ونشأته فليس غريبًا عنهم، ووصفه بالصدق والأمانة والعفاف، وهذه من أصول مكارم الأخلاق التي تقاد بها الأمم والشعوب إلى الخير والرشاد.

ثم ذكر موجزًا لدعوته استفتحه بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك.

وإنه لفرق هائل بين من يدعوك لعبادة مدبر الكون وخالق الأرض والسماوات الذي يملك إماتة الناس وإحياءهم ورزقهم.. ومن يدعوك إلى من هو دونه ولايمكن أن يوضع معه في مفاضلة، حيث يدعوك إلى عبادة أصنام من الشجر والحجر لاتسمع ولاتبصر ولاتضر ولاتنفع.

ثم ذكر مادعا إليه من مكارم الأخلاق التي تقوم عليها الحياة الكريمة، وتنتظم بها أمور الأمة من صدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار.

ثم أشار إلى مادعا إليه من الكف عن مساوئ الأخلاق التي تعوق قيام المجتمع الصالح وتفرق بين أفراد الأمة وتغذي حياة الفوضى والاضطراب، فذكر الكف عن المحارم والدماء، واجتناب الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات البريئات بالفاحشة.

ثم ذكر إيمانهم بهذا الدين الحنيف، وتطبيقهم ماجاء فيه من تكاليف، وماقام به قومهم من العدوان عليهم ليعيدوهم إلى الوثنية، وأن هذا هو الذي دفعهم إلى الهجرة، وأشاد بجوار النجاشي، وبين أن الذي حملهم على اختيار بلاده رجاؤهم التمتع بعدله المشهور.

وهكذا جاء بيان جعفر الذي قوض به أركان الجاهلية وكشف زيفها، ثم شرح مقاصد الإسلام العالية التي يؤمن بسموها كل ذي عقل سليم مجرد من اتباع الهوى المنحرف.

وكان هذا البيان الرائع مقدمة لتلاوة آيات من كتاب الله تعالى كان لها الأثر النهائي في حسم الموقف لصالح دعاة الحق، وهذا مابينته أم سلمة في روايتها حيث قالت: «فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، قالت: فقرأ عليه صدرًا من﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾».

ولم يرد في الخبر تحديد نهاية الآيات التي قرأها ولكن يظهر من سياق القصة أنه قد أكمل آيات قصة مريم في خبر ولادتها بعيسى عليهما السلام وماجرى منه من خطاب قومه آنذاك، حيث كان إيراد القصة هو سبب بكاء النجاشي وأساقفته.

ولقد كان جعفر رضي الله عنه حكيمًا حينما أعرض عن قراءة الآيات التي تلي هذه الآيات حيث إنها تشتمل على الرد على النصارى في ادعائهم أن عيسى ابن الله جل وعلا عن ذلك، لأنه كان في مقام الدعوة ولم يكن في مقام الجدل وبيان الحق في هذه القضية، هذا على فرض أن السورة قد نزلت كلها في ذلك الوقت.

ولكن ماتحاشاه جعفر قد كادهم به عمرو كما سيأتي.

« قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي:إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة[1]، انطلقا فو الله لا أسلمهم إليكما ولايُكادون».

وهكذا كان اختيار جعفر بن أبي طالب موفقًا حيث اختار الآيات التي تتحدث عن مريم وابنها عيسى عليهما السلام أمام قوم يعظمونهما كثيرًا، وكان من آثار حسن الاختيار، إلى جانب حسن العرض وصدق النية أن تأثر ذلك الملك ووزراؤه فبكوا جميعًا.

وهذا الموقف من النجاشي يدلنا على مدى وضوح دعوة النبي ﷺ أمام أهل الكتاب، فلقد عرف أنه النبي الذي ذكر في كتبهم المقدسة وأن القرآن الذي تلا منه جعفر تلك الآيات مصدره هو والإنجيل واحد، مع أنه لم ير النبي ﷺ ولم يعش معه، فكيف بأهل الكتاب الذين عاشوا معه في المدينة واطلعوا على معجزاته وصاحبوا التنزيل؟!

---

(١) أي من مصدر واحد، والمشكاة المكان الذي توضع فيه المصابيح.

وإنه لموقف رائع أن يبلغ التأثير على تلك الطبقة الراقية إلى حد البكاء، مما يدل على تفوق ظاهر عند المسلمين آنذاك في مجال الدعوة.

وهكذا يجب على الدعاة أن يغتنموا الفرص المناسبة، وأن يختاروا الموضوعات الملائمة مع ملاحظة صدق النية وحسن العرض.

« قالت – أم سلمة – فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غدًا عنهم بما أستأصل به خضراءهم».

« قالت:فقال له عبد الله بن أبي ربيعة– وكان أتقى الرجلين فينا–: لاتفعل فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد ».

« قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيمًا فأرسلْ إليهم فسلْهم عما يقولون فيه ».

وهكذا تفتقت عبقرية عمرو بن العاص عن مكيدة قاتلة للمسلمين لولا أن هيأ الله لهم وجود ذلك الملك العادل، إذ إن اعتقاد المسلمين في عيسى عليه السلام مناقض تمامًا لما عليه النصارى في دينهم المحرف، حيث يعتقد المسلمون أنه عبد الله ورسوله، ويعتقد النصارى أنه ابن الله تعالى، وحينما علم المسلمون بذلك اشتد عليهم الأمر وعظم كربهم حينما أرسل إليهم الملك ليسألهم عن اعتقادهم في

عيسى عليه السلام.

« قالت – أم سلمة – فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينـزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ماقال الله تعالى وماجاءنا به نبينا كائنًا في ذلك ماهو كائن ».

وهكذا اجتمع الصحابة وتشاوروا في الأمر، وتساءلوا عما يقولونه للنجاشي إذا سألهم عن ذلك، وقد أجمعوا على أن يقولوا له ماقال الله تعالى وماجاءهم به رسول الله ﷺ كائنًا في ذلك مايكون، وهذه هي المرة الثانية التي يجتمعون فيها ويتشاورون ثم يُجمعون على رأي واحد.. فلله درهم ما أعلى تربيتهم، وما أقوى إيمانهم، وما أعز نفوسهم!

لقد صبروا قبل ذلك في مكة على قهر الطغاة وإذلالهم وتعذيبهم، فهل هاجروا منها إلى الحبشة ليغيِّروا شريعة الله لمجرد مساءلة ستكون بينهم وبين النجاشي؟! وليُفتَرض أنه سيقتلهم، أو في أحسن الأحوال سيسفِّرهم من بلاده، فإنهم قد استعدوا لتحمُّل كل ماينتج عن قول كلمة الحق كائنًا في ذلك ما يكون.

وهكذا يكون الإيمان القوي... وهكذا تكون الاستقامة.

« قالت – أم سلمة -: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه [1] وكلمته [2] ألقاها إلى مريم العذراء البتول [3] ».

«قالت:فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا ثم قال:والله ماعدا عيسى بن مريم ماقلت هذا العود».

« قالت: فتناخرت [4]بطارقته حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي – والشيوم: الآمنون – مَنْ سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دَبْرًا [5] من ذهب وأني آذيت رجلا منكم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما – يعني مندوبي قريش – فلا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ

---

(١) يعني جعله روحا لمن أرسل إليهم.

(٢) يعني أنه خلق بقوله الله تعالى «كن».

(٣) العذراء التي لم تتزوج، والبتول المنقطعة لعبادة الله تعالى.

(٤) يعني أخرجوا أصواتا من مناخرهم استنكارًا لما سمعوا.

(٥) قال ابن هشام: « ويقال: دِبْرًا من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم، والدبر بلسان الحبشة: الجبل ».

الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه.

« قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ماجاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار ».

وهكذا نطق هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم بالحق ولم يخافوا في الله لومة لائم، ولم يساوموا في أمور دينهم، ولم يداهنوا مع أنهم في موقف الضعف، وقد نزل بهم هذا الأمر العظيم الذي أهمهم وأقلقهم.

وبهذا تبين لنا من هذا الخبر كيف كان المسلمون الأوائل يتعرضون للأذى والكيد من اعدائهم، وكيف كان سلوكهم في مواجهة الكيد، إنهم لم يكونوا يستسلمون لأعدائهم ويداهنونهم، وفي الوقت نفسه لم يكونوا يقاومون بالقوة والعنف وحالهم لاتسمح لهم بذلك، بل كانوا يقاومون بالصبر على الأذى مع عرض ما يدعون إليه بالبيان الرائع الذي يمتلك القلوب، ويجبر كل متجرد من الهوى الجامح على أن يميل إليهم ويعطف عليهم.

ولقد كانوا في كل محاوراتهم مستسلمين لله تعالى مفوضين إليه أمرهم فيما يكون من نتائج، حيث لم تكن هذه النتائج تشغل بالهم، وإنما الذي كان يشغل بالهم هو أن يوفقوا في عرض الإسلام كاملاً

نزيهًا كما جاء من عند الله تعالى، وهم يؤمنون أنهم ومن يحاورونهم في قبضة الله تعالى، وأنه قادر على أن يسخر لهم خَلْقَه ليتم بهم نصر الحق وتأييد دعاته.

وهكذا سخر الله تعالى لهذه الفئة المؤمنة قلب النجاشي، فنطق بالاعتراف بموافقة ماجاء في القرآن في شأن عيسى عليه السلام كما جاء في الإنجيل الصحيح، وهذا أمر يصعب الاعتراف به لأن من لهم الهيمنة من النصارى لايعتقدون بذلك، وقد جر عليه هذا الاعتراف متاعب من قومه، وهو يعلم قبل النطق بذلك صعوبة هذا الأمر، ولكن الله تعالى أنطقه بذلك نصرا لهذه الفئة المؤمنة، وإعزازًا للإسلام، وخذلانا للشرك وأهله، فقد عاد وفد قريش بأسوأ حال وهما يجران أذيال الخيبة، ويحملان معهما الهدايا التي رفض النجاشي قبولها، وعاد المؤمنون المهاجرون بالعز والمنعة والأمن والطمأنينة.

وجدير بالذكر أن ننبه إلى أن عمرو بن العاص قد أسلم بعد ذلك، وأصبح من زعماء المسلمين الذين فتح الله بهم البلاد وهدى بهم العباد رضي الله عنه وأرضاه.

هذا وإن هذا الموقف يعدُّ مثالاً تطبيقيًّا لقول رسول الله ﷺ « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مُؤْنة الناس، ومن التمس

رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس» أخرجه الإمام الترمذي وحسنه السيوطي وصححه الألباني [(١)].

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم قد التمسوا رضا الله عز وجل، مع أن الظاهر في الأمر أنه يترتب عليه في هذه القضية سخط أولئك النصارى، وهم الذين لهم الهيمنة عليهم، فكانت النتيجة أن الله عز وجل سخَّر لهم قلب ملك الحبشة حتى نطق بالحق الموافق لدعوة النبي ﷺ مع مخالفته الصريحة لمعتقدهم المنحرف الذي قام عليه مُلكُهم، ومايغلب على الظن من ثورة النصارى المتعصبين عليه.

فأي قوة هذه التي حملت ملك الحبشة على مخالفة المذهب السائد في بلده والذي يترتب على التمسك به بقاؤه في الملك، مع إظهار موافقة قوم لاشأن لهم في بلده ولاقوة.. أي قوة هذه إن لم تكن تسخير الله تعالى إياه لنصرة قضية هؤلاء المسلمين؟

وهذا دليل على أنه كان عند بعض النصارى إيمان صحيح بدينهم، ولكنهم يكتمون ذلك لكون الغلبة والسيادة في الأرض

---

(١) سنن الترمذي، آخر كتاب الزهد « تحفة الأحوذي ٧/ ٩٧».
الجامع الصغير ٦/ ٥١ رقم ٨٣٩٤.
صحيح الجامع الصغير رقم ٥٩٧٣ « ٥/ ٢٥٨».

لأصحاب الدين المحرف، ومن الذين كانوا على الاعتقاد الصحيح ملك الحبشة، وكان يُخفى إيمانه هذا مداراة لقومه إبقاء على نفسه وملكه، فلما وقع في هذا الابتلاء أظهر إيمانه، حيث أصبح بين أمرين: الأمر الأول أن يداري قومه وينكر على هؤلاء الصحابة اعتقادهم في عيسى بن مريم عليه السلام، وهذا يلزم عليه جحد الحق، وكيف يجحد الحق وهو أعلى رجل في الدولة؟ كما يلزم عليه أن يبعد المسلمين من بلاده لكونهم طعنوا في معتقد النصارى السائد، ولو لم يفعل ذلك فإن رجال دولته لن يقروا بقاء المسلمين وقد قالوا ماقالوا.

والأمر الثاني:أن يظهر اعتقاده الصحيح الموافق لاعتقاد المسلمين إرضاء لربه وإراحة لضميره وانتصارًا لحزب الله المؤمنين مهما ترتب على ذلك من نتائج، وهذا الأمر هو الذي سلكه من غير تردد، وتحدى به علماء دينه، ورجال دولته، فكان بهذا الموقف الكبير من عظماء التاريخ، ولقد حدث ماكان متوقعًا من قيام الثورة ضد ذلك الملك الصالح عقب تلك المفاوضات المذكورة.

« قالت – أم سلمة -: فو الله إنا لعلى ذلك إذ نزل به – يعني النجاشي – رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، قالت: فو الله ماعلمتُنا حَزنَّا حزنا قط كان أشد علينا من حزن حزنَّاه عند ذلك، تخوفًا أن

يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لايعرف من حقنا ماكان النجاشي يعرف منه.

قالت: وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَنْ رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟

فقال الزبير بن العوام: أنا، قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سنًّا.

قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده، قالت: فو الله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع علينا الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، قالت: فو الله ماعلمتُنا فرحْنا فرحة قط بمثلها.

قالت: ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوه، ومكن له في

بلاده، واستوسق عليه أمر الحبشة [1]، فكنا عنده في خير منـزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة [2].

وقول أم سلمة رضي الله عنها: « حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة » تريد من قدم منهم إلى مكة وكانت معهم، أما بقيتهم فقد قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة عام خيبر وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، ويبين ذلك ماجاء في رواية البيهقي لهذا الخبر حيث جاء في آخره: « ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعا إلى مكة وأقام من أقام » [3].

وهكذا قام الزبير بن العوام رضي الله عنه برحلة الاستطلاع النهرية، وهذا مثل من أمثلة شجاعته المبكرة وقد أثبت التاريخ بعد

---

(١) أي اجتمعوا عليه واستقر له الملك.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٦، السير والمغازي لابن إسحاق / ٢١٣.
وأخرجه الإمام أحمد – مسند أحمد ٥/ ٢٩٠، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي – المستدرك ٢/ ٣٠٩ – وقال الحافظ ابن كثير: هذا إسناد جيد قوي – السيرة النبوية لابن كثير – ٢/ ١١–.
وحسن الحافظ ابن حجر إسناد الإمام أحمد – فتح الباري ٧/ ١٨٩ –.
وذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع – مجمع الزوائد ٦/ ٢٧ –.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٠٤.

ذلك أنه رجل المغامرات والأهوال، ولقد كان هناك احتمال كبير لأن يصاب في أثناء المعركة أو بعدها خصوصًا لكونه من العرب وللاحتمال الظاهر من أن المعركة قامت بين النجاشي والمتمردين من قومه بسبب مخالفته معتقداتهم في عيسى عليه السلام وتصريحه بأن ما قاله جعفر في ذلك هو الدين الحق، ولكن الزبير كان يملك نفسا وثابة نحو المخاطر قد بُنِيَتْ على إيمان قوي بقضاء الله تعالى وقدره فأقدم على تلك الرحلة وطمأن المسلمين على مصير تلك المعركة.

أما أولئك المسلمون الصالحون فإنهم قد قاموا بما يستطيعون من نصرة النجاشي، حيث استعملوا السلاح الذي كان بإمكانهم أن يستعملوه، وهو الدعاء، وأكرمْ به من سلاح يمضي في سُدول الليل فيعطي مفعوله في تخذيل الأعداء وهزيمتهم، لأن جميع المخلوقين في قبضة الله جل وعلا وتحت مشيئته فإن شاء نصر المسلمين ومن يناصرهم وإن كانوا قلة، وإن من أسباب تَنَزُّل نصره تعالى ارتفاع دعاء المؤمنين الصادقين.

وهل يشك متأمل في بلوغ أولئك الصحابة أعلى درجات الصدق واليقين؟ ولذلك فإن مما يوافق سنن الله تعالى أن ينـزل نصره على النجاشي استجابة لدعاء هؤلاء المؤمنين الصادقين.

هذا وقد روى أبو نعيم الأصبهاني هذه الأخبار وغيرها، وقال بعدها: وكل هذه الروايات عمَّن لايدفع عن صدق وفهم.

ومن الإضافات التي اشتملت عليها هذه الروايات ماجاء في رواية عروة بن الزبير أن عمرو بن العاص وصاحبه قالا عن رسول الله ﷺ: إن هذا الرجل الذي بين أظهرنا وأفسد فينا تناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك، ونحن لك ناصحون، وأنت لنا عَيْبة صدق، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف وتأمن تجارنا عندك، فبعَثنا قومُنا إليك لننذرك فساد ملكك [(١)].

وفي هذه الإضافة دليل على أن وفد قريش لم يقتصر على مجرد المطالبة بإعادة المسلمين المهاجرين لمصلحة تخص بلادهم وقومهم، وإنما اتهموهم بإفساد بلادهم وحذَّروا ملك الحبشة منهم حتى لاينتقل إفسادهم إلى ملكه وبلاده.

وهكذا نجد دعاة الباطل وحماته في كل زمن يصورون دعاة الحق المصلحين على أنهم من المفسدين في الأرض، وذلك لفساد تصور أهل الباطل وانقلاب مفاهيمهم حول مقومات الإفساد والإصلاح

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٨٠ – ٨٤.

وصفاتها المحددة لها.

فالإصلاح في نظر هؤلاء يقوم على اعتبار تحقيق أهواء الزعماء المهيمنين على البلاد سواء أكانوا مستقلين في نظراتهم للأمور وحكمهم أم كانوا خاضعين لمن هو أقوى منهم، فما وافق رأي هؤلاء الزعماء الأحياء منهم والأموات فإنه هو الإصلاح في الأرض، وما خالفه فهو الإفساد في نظرهم، ولذلك كان كلام وفد قريش مركزًا على بيان مخالفة المسلمين لما عليه الملأ من قومهم وماورثوه من أسلافهم بغضِّ النظر عن كونه حقا في ذاته أو باطلا.

وهذا يعدُّ نوعا من الانغلاق الفكري وتحجيم الطاقات البشرية عن الانطلاق والبحث عن المستويات العليا من المبادئ والمثل.

ولقد كان ملك الحبشة على المستوى العالي من النظر والتأمل حيث قارن بين دعوة المسلمين ودعوة المشركين فرأى بوْنًا شاسعا بين الدعوتين، يتمثل في ارتفاع إلى أعلى درجات السمو في دعوة الإسلام، وهبوط إلى أسفل دركات الانحطاط في دعوة الشرك فكان بكل قوته وطاقاته في صف الإسلام والمسلمين.

وإن النجاشي يعدُّ مثالا عاليا في التحري والتدقيق والبحث عن حقائق الأمور حيث لم يستفزه وفد الكفار ولم تستخفه دعواهم على

المسلمين بأنهم سيفسدون عليه ملكه.

ولقد كان أقل تصرف سيفعله الذين لايتصفون بالعدالة أن يأخذوا الاحتياط لملكهم ودولتهم بإبعاد أولئك المتهمين، خاصة وأن دولة الحبشة لاتستفيد أي شيء من إقامتهم فيها، ولكن لفرط إحساس ذلك الملك بفظاعة الظلم ودقة تحريه للعدالة لم يُقدم على هذا التصرف القاصر الظالم، بل أرعى سمعه للطرفين حتى استوعب القضية وبان له وجه الحق فصرح بنصر الحق وأهله على الرغم من إدراكه نتائج ذلك المحرجة له أمام زعماء دولته.

فلله دره! ما أعظمه من عالم دقيق العلم بخفايا الأمور ونتائجها وحاكم عادل لاتستهويه قوى البشر المبنية على الجبروت والطغيان!

ولاننسى في ختام هذا المقال أن نثبت شرفه الكبير باعتناق الإسلام، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى فرحمه الله رحمة واسعة.

أما قوله « فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي » فيبينه ما أخرجه ابن إسحاق عن الزهري رحمهما الله قال: فحدثت عروة بن الزبير حديث أبي بكر بن عبد الرحمن عن أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال: هل تدري ما قوله: «ما أخذ الله مني الرشوة حين رد

عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه؟» قال قلت: لا، قال: فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني أن أباه كان ملك قومه ولم يكن له ولد إلا النجاشي، وكان للنجاشي عم له من صلبه اثنا عشر رجلا، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملَّكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلا فتوارثوا ملكه من بعده بقيت الحبشة بعده دهرا، فغدوا على أبي النجاشي فقتلوه، وملَّكوا أخاه فمكثوا على ذلك حينا.

ونشأ النجاشي مع عمه وكان لبيبا حازما من الرجال، فغلب على أمر عمه ونزل منه بكل منـزلة، فلما رأت الحبشة مكانه منه قالت بينها: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه وإنا لنتخوف أن يملِّكه علينا، وإن ملَّكه علينا لَيَقْتُلُنَّا أجمعين، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه، فمشوا إلى عمه فقالوا: إما أن نقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا فإنا قد خفنا على أنفسنا، قال: ويلكم قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم! بل أخرجه من بلادكم.

قالت: فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم، فقذفه في سفينة فانطلق به، حتى إذا كان العشي من

ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلتْه.

قالت: ففزعَت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحْمق [(١)]، ليس في ولده خير، فمرج على الحبشة أمرهم، فلما ضاق عليهم ماهم فيه قال بعضهم لبعض: تعلَّموا، والله إن مَلكَكم الذي لايقيم أمركم غيره لَلَّذي بعتم غَدْرَةً، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه الآن.

قالت: فخرجوا في طلبه وطلب الرجل الذي باعوه منه، حتى أدركوه فأخذوه منه ثم جاؤوا به، فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك، فملَّكوه، فجاءهم التاجر الذي كان باعوه منه فقال: إما أن تعطوني مالي، وإما أن أكلمه في ذلك؟ قالوا: لانعطيك شيئًا قال: إذًا والله أكلمه، قالوا: فدونك وأياه، قالت: فجاءه فجلس بين يديه فقال: أيها الملك ابتعت غلامًا من قوم بالسوق بستمائة درهم فأسلموا إليّ غلامي وأخذوا دراهمي، حتى إذا سرت بغلامي أدركوني فأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي.

قالت: فقال لهم النجاشي: لتعطنَّه دراهمه أو لَيضعنَّ غلامه يده

(١) الضمير يعود على النجاشي، والمحمق بكسر الميم هو الذي يلد الحمقى.

في يده فليذهبنَّ به حيث شاء، قالوا: بل نعطيه دراهمه، قالت: فلذلك يقول ماأخذ الله مني رشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيع الناس فيه، قالت: وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته في دينه وعدله في حكمه [1].

هذا وقد جاء في خبر آخر مايدل على أن رجال دولة الحبشة ظلوا غاضبين على النجاشي لقوله عن عيسى عليه السلام بأنه عبد الله، وفي ذلك يقول ابن إسحاق: وحدثني جعفر بن محمد عن أبيه قال: اجتمعت الحبشة، فقالوا للنجاشي: إنك قد فارقتَ ديننَا وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر وأصحابه، فهيأ لهم سُفنًا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هُزِمْتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

ثم عَمَدَ إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه، عند المنكب الأيمن.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥١ – ٣٥٤.
وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر نحوه – مسند أحمد ١/ ٢٠١ –٢٠٣،٥/ ٢٩٠-٢٩٢ -.

وخرج إلى الحبشة، وصفُّوا له، فقال: يامعشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبدٌ، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابنُ الله، فقال النجاشي، ووضع يده على صدره على قبائه: هو يشهد أن عيسى بن مريم [كذلك]، لم يزد على هذا شيئًا، وإنما يعني ماكتب، فرضوا وانصرفوا عنه.

فبلغ ذلك النبي ﷺ، فلما مات النجاشي صَلَّى عليه، واستغفر له[1].

وقد أثبت هذا الخبر اهتمامًا كبيرًا من النجاشي بالمسلمين، وأنه وضع خطة لنجاتهم ورحيلهم فيما إذا كانت الدولة لقومه وزال عنه الملك لعلمه بأن قومه لن يُبقُوا على المسلمين وقد قالوا ماقالوا عن عيسى عليه السلام، وهذا شاهد على رسوخ إيمانه وقوة يقينه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولاشك أن إسلام النجاشي من النتائج الكبيرة المترتبة على

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٤.

هجرة الحبشة، إذ إن هذه الدولة من كبريات الدول آنذاك بعد فارس والروم، وكون ملك الحبشة يدخل في الإسلام يعطي المسلمين قوة معنوية وهم في مكة المكرمة، بينما يعطي الكفار شيئًا من اليأس والتردد في محاولة القضاء على المسلمين ؛ لاحتمال أن يغضب لهم ملك الحبشة فيرسل قوة للانتقام منهم.

أما مدة إقامة المهاجرين في أرض الحبشة فقد جاء في إحدى روايات الحديث السابق قول أم سلمة – رضي الله عنها – « ثم أقمنا عنده – يعني النجاشي – حتى خرج من خرج منا راجعًا إلى مكة وأقام من أقام »(١).

والذين أقاموا قد رجعوا بعد صلح الحديبية إلى المدينة، وقد وصلوا إليها والرسول ﷺ والمسلمون في خيبر كما ذكر المؤرخ محمد ابن إسحاق قال: وكان من أقام بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ حتى بعث فيهم رسول الله ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين، فقدم بهم عليه وهو بخيبر بعد الحدبية، ثم ذكر أسماءهم »(٢).

---

(١) دلائل النبوة، للبهيقي: ٢/ ٣٠٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٨٢.

وقد يقال: لماذا لم يرجع هؤلاء إلى المدينة لما هاجر رسول الله ﷺ والمسلمون وقامت للإسلام دولة، فإن المسلمين بحاجة إليهم؛ للمشاركة في الجهاد وليعيشوا مع المسلمين، ويستفيدوا من تربية رسول الله ﷺ وتوجيهاته؟!

فيقال: لعل سبب تأخر عودتهم إلى بداية العام السابع أنهم لم يكونوا يأمنون على أنفسهم ولم يكن رسول الله ﷺ يأمن عليهم حال عودتهم من قريش، حيث إن ميناء الشعيبة الذي ترسو فيه السفن يقع بقرب مكة، فلما تم صلح الحديبية في آخر العام السادس حصل لهم الأمان في طريقهم إلى المدينة، ويشير إلى ذلك أن رسول الله ﷺ أرسل إلى النجاشي يطلب عودتهم بعد صلح الحديبية.

مثل من التنافس في العمل الصالح
(عثمان بن مظعون يرد جوار المشركين)

لقد كان المسلمون في مبدأ الإسلام وهم في مكة يتعرضون لأذى شديد من صناديد الكفر وزعماء الضلال وكان ضعفاء المسلمين والذين ليس لهم عشائر قوية تحميهم يتحملون أكثر هذا الأذى، أما المسلمون من أشراف قريش وأصحاب الوجاهة فيهم فإنهم يجدون من أفراد عشيرتهم من الكفار من يجيرهم ويحميهم من الأذى.

وكان من هؤلاء عثمان بن مظعون رضي الله عنه حيث دخل في جوار الوليد بن المغيرة أحد زعماء قريش، وذلك بعد عودتهم من الحبشة حينما سمعوا أن قومهم قد أسلموا ولم يكن ذلك الخبر صحيحًا، فلما وصلوا إلى مكة وجدوا الكفار أشد ماكانوا عداء للمسلمين، فدخل بعضهم مكة بجوار من أكابر المشركين، وقد دخل عثمان بن مظعون الجمحي في جوار الوليد بن المغيرة كما ذكر ابن إسحاق [1].

ولكنه فكر فيما يصيب إخوانه من ضعفاء المسلمين على يد

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٥.

الكفار من الأذى، ومايترتب على صبرهم العظيم من الأجر الجزيل والإيمان القوي، فرأى أن بقاءه في جوار الوليد بن المغيرة نقص كبير، ويفوت عليه منافع دينية جمة، فذهب إلى الوليد بن المغيرة ورد عليه جواره، وفضل أن يبقى في جوار الله تعالى وحده كإخوانه من المستضعفين.

وفي سياق هذه القصة يقول محمد بن إسحاق رحمه الله فيما يرويه عن شيوخه: لما رأى عثمان بن مظعون مافيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوي ورواحي آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مالايصيبني لنقص كبير في نفسي.

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس وَفَتْ ذمتك، قد رددت إليك جوارك، فقال له: لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي، قال: لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن استجير بغيره.

قال: فانطلقْ إلى المسجد فَارْدُدْ عليّ جواري علانية كما أجرتك علانية، قال: فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد عليّ جواري، قال: صدق قد وجدته وفيا كريم الجوار،

ولكني قد أحببت أن لا أستجير إلا بالله فقد رددت عليه جواره.

ثم انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم فجلس معهم عثمان فقال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

قال عثمان: صدقت، قال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل.

قال عثمان: كذبت. نعيم الجنة لايزول، قال لبيد بن ربيعة: يامعشر قريش والله ماكان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تجدْ في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شَرَى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضَّرها.

والوليد بن المغيرة قريب يرى مابلغ عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغَنيَّة، لقد كنت في ذمة منيعة.

قال: يقول عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد: هلمَّ يا أبن أخي إن شئت فَعُد إلى جوارك، فقال: لا [1].

وفي هذه القصة يتبين لنا باب من أبواب الجهاد في سبيل الله تعالى تمثَّل بمحاولة إظهار عزة الإسلام، وذلك بالاعتزاز بالله تعالى وحده وإن تمكَّن المسلم من الاحتماء بأقاربه وعشيرته، وذلك فيما إذا لم تتطلب مصلحة الدعوة غير ذلك، فإذا اقتضت مصلحة الدعوة قبول حماية المشركين فإن هذا هو الأفضل كما كان النبي ﷺ في حماية عمه أبي طالب.

وفيها إشارة إلى ماكان عليه الصحابة رضي الله عنهم من التنافس في سبل الخير والعمل الصالح، وهذا يدل على الإيمان القوي بالله تعالى والرغبة الصادقة فيما عنده من الثواب.

كما أن في هذه القصة فضيلة إنكار المنكر وإن كان المسلم في حال ضعف وقلة ناصر، لأن في ذلك إظهارًا للحق الذي قد ينطمس في غمرة الباطل، فقد أنكر عثمان بن مظعون رضي الله عنه قول لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل، حيث كذبه في ذلك وبين أن نعيم الجنة

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٦، وأخرجه الإمام البيهقي بإسناده عن موسى بن عقبة وذكر نحوه – دلائل النبوة٢/ ٢٩١ – ٢٩٣ –.

لايزول، وتحمل في سبيل ذلك الأذى من المشركين حيث أصيبت عينه في سبيل الله تعالى، وإن كان الأولى أن يخفف من أسلوب الإنكار، لكنه كان مدفوعا بالرغبة في تثبيت مفاهيم الإسلام وطمس معالم الجاهلية.

ويبلغ عثمان رضي الله عنه قمة الإيمان حينما لم يندم على ترك جوار الوليد بن المغيرة الذي حصل له هذا الأذى بسبب تخليه عنه حيث يبين للوليد بن المغيرة حينما لامه على تخليه عن جواره بأنه يتمنى أن تصاب عينه الأخرى في سبيل الله تعالى.

وهذا هو الفرق بين من يُقدم على التضحية عن قناعة ويقين راسخ وبين من يتحمس للإقدام على أمر من أمور الجهاد ثم يتراجع حينما يتعرض للأذى في سبيل الله تعالى فإن هذا يعرض إيمانه للضعف ويضر بالدعوة الإسلامية.

كما أن عثمان رضي الله عنه لم يَفُتْه أن يقرر عظمة الله تعالى في نفوس المسلمين حيث قال: وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس.

لقد كان رضي الله عنه في حمى ذلك الرجل الكبير من قريش والرسول ﷺ قد أذن للصحابة بالاحتماء بالمشركين لضعفهم وقلتهم

ولكنه أبى أن يرى إخوانه يعذبون في الله وهو يتمتع بذلك الحمى، إنه كمن لبس الدرع في القتال فلما رأى الشهداء من حوله تاقت نفسه للشهادة فرمى الدرع وواجه الأعداء حاسرًا طلبًا لمواطن الشهادة.

مثل من العزة والشهامة

(إسلام حمزة بن عبد المطلب)

لقد كان الله تعالى يهيئ لرسوله ﷺ من يدافع عنه، إما من عشريته الأدنين الذين يقومون بحمايته والذب عنه، أو من غيرهم من الكفار الذين لديهم مسكة من عقل وبقية من ضمير، فيواجهون سفاهة السفهاء بما يخفف من حدة الموقف،أو من المؤمنين به الذين يرون الدفاع عنه واجبًا دينيًّا.

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه ابن إسحاق رحمه الله قال: حدثني رجل من أسلم كان واعية أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض مايكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ﷺ، وكانت تسمعه مولاة لعبد الله بن جدعان.

ثم انصرف أبو جهل عنه، فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحًا قوسه راجعًا من قَنَص لـه، وكان صاحب قنص يرميه

ويخرج لـه،وكان إذا رجع من قَنَصه لم يَصلْ إلى أهله حتى يطوف بالكعبة،وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم،وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة.

فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت مالقي ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم بن هشام: وجده هاهنا جالسًا فأذاه وسبه وبلغ منه مايكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ.

فاحتمل حمزةَ الغضبُ لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول كما يقول؟ فَرُدَّ ذلك عليّ إن استطعتَ.

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سَبَبْتُ ابن أخيه سبا قبيحًا، وَتَمَّ حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ماتابع عليه رسول الله ﷺ من

قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، وأنّ حمزةَ سيمنعه، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [(١)].

وهكذا كانت هذه الواقعة سببًا في إسلام حمزة رضي الله عنه حيث ثار أوَّلاً حمية لابن أخيه ﷺ، ثم أعلن إسلامه لِمَا أراد الله لـه من الخير ولِمَا يريد أن يُجري على يديه من الانتصار لرسول الله ﷺ والمؤمنين ورفع راية الإسلام.

ومن هذه القصة تتبين لنا شجاعة حمزة رضي الله عنه التي أصبحت مضرب المثل، فلقد واجه زعيمًا كبيرًا من زعماء مكة لـه مكانته العالية بين قومه، وهو من الذين يُرهبون الضعفاء بألسنتهم السليطة ونظراتهم الحادة، حيث قصد إليه وهو في مجمع من قومه فشجه شجة منكرة وأهانه أمام الملأ من قومه وتحداه أن يرد عليه إن

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٢ ؛ وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله – تاريخ الطبري ٢/ ٣٣٣–؛وأخرجه الإمام الطبراني من طريق ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق وذكر نحوه كما أخرجه من حديث محمد بن كعب القرظي وذكر نحوه –المعجم الكبير ٣/ ١٥٢– ١٥٣ رقم ٢٩٢٥ و ٢٩٢٦–؛ وذكر الطريقين الحافظ الهيثمي وقال عن الأول:رواه الطبراني مرسلا ورجاله ثقات، وقال عن الثاني:رواه الطبراني مرسلا ورجاله رجال الصحيح – مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٧–؛ وأخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق وذكر نحوه وسكت عنه هو والذهبي – المستدرك ٣/ ١٩٢ –.

استطاع، ولم يحسب حسابًا لقومه أن يجتمعوا عليه ويوقعوا به الضرر.

وهكذا تبدو شجاعة الشجعان حيث يندفعون في نصر قضاياهم من غير نظر إلى عواقب ذلك، فيلغون من حسابهم كل الاحتمالات الواردة ويهيمن على مشاعرهم الانتصار للقضية التي يدافعون عنها، فيقومون بالأعمال المدهشة، التي تذهل الحاضرين وتشغلهم بتحليل دوافعها عن مواجهتها والتصدي لها.

وعاد أبو جهل يعتذر لأبي عمارة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ويهدئ من ثورة بني مخزوم الذين ثاروا له، وأرادوا أن ينالوا من حمزة، انبهارًا منه بهذه الشجاعة النادرة، التي ألجمت أبا جهل وقومه، فجعلتهم يكفون عن حمزة حتى وهو يعلن إسلامه على غير عادتهم في معاملة المسلمين في أول إسلامهم.

وهكذا فتح الله قلب حمزة رضي الله عنه للهداية، وكان مفتاح هدايته الانتصار للنبي ﷺ، فاعتز المسلمون بإسلامه، وتراجع زعماء قريش عن بعض ماكانوا ينالون من رسول الله ﷺ لعلمهم بأن عمه سيحميه.

إن حمزة لم يكن أسلم يومذاك، ولكن دفع به تحدي أبي جهل الذي أهان ابن أخيه إلى أن يعلن تبعيته له على دينه، حيث إن هذا

الأمر هو أعظم شيء يغيظ به أبا جهل ليشفي غليل صدره منه، فكأنما قال لأبي جهل: إذا كان دين ابن أخي هو الذي حملك على إهانته فإنني أتحداك باتباعه على دينه، فإعلان إسلامه كان تعصبا لابن أخيه ولم يكن عن اعتقاد قلبي، ثم هداه الله تعالى إلى الإسلام فذهب إلى النبي ﷺ وأسلم.

إسلام طليب بن عمير وجهوده في الدعوة

أخرج أبو عبد الله الحاكم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أسلم طليب بن عمير في دار الأرقم ثم خرج فدخل[1] على أمه وهي أروى بنت عبد المطلب فقال: تبعت محمدًا وأسلمت لله رب العالمين جل ذكره فقالت أمه: إن أحق من وازرت ومن عاضدت ابن خالك والله لو كنا نقدر على مايقدر عليه الرجال لتبعناه ولذببنا عنه قال: فقلت: يا أماه ومايمنعك أن تسلمي وتتبعيه فقد أسلم أخوك حمزة، فقالت: أنظر مايصنع أخواتي ثم أكون إحداهن قال: قلت اسألك بالله إلا أَتيته فسلمت عليه وصدقته وشهدت أن لا إله إلا الله قالت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وكانت بعدُ تعضد النبي ﷺ بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره.

قال الحاكم: صحيح غريب على شرط البخاري ولم يخرجاه[2].

وأخرجه ابن سعد من طريق شيخه الواقدي عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي،وذكر مثله[3].

---

(١) جاء في المستدرك: ثم دخل فخرج وهو خطأ من النساخ والتصويب من طبقات ابن سعد.

(٢) المستدرك ٣/ ٢٣٩.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ٤٢.

ثم ذكر عن طريق الواقدي بإسناده عن برة بنت أبي تجراة قالت: عرض أبو جهل وَعِدَّة من كفار قريش للنبي ﷺ فآذوه فعمد طليب ابن عمير إلى أبي جهل فضربه ضربة شجه فأخذوه وأوثقوه، فقام دونه أبو لهب حتى خلاه. فقيل لأروى ألا ترين ابنك طليبًا قد صير نفسه غرضًا دون محمد؟ فقالت: خير أيامه يوم يذب عن ابن خاله وقد جاء بالحق من عند الله فقالوا: ولقد تبعتِ محمدًا؟ قالت: نعم.

فخرج بعضهم إلى أبي لهب فأخبره فأقبل حتى دخل عليها فقال: عجبًا لك ولاتِّباعك محمدًا وترك دين عبد المطلب، فقالت: قد كان ذلك فقم دون ابن أخيك واعضده وامنعه فإن يظهر أمره فأنت بالخيار أن تدخل معه أو تكون على دينك، فإن يُصَب كنت قد أعذرت في ابن أخيك. فقال أبو لهب: ولنا طاقة بالعرب قاطبة؟ جاء بدين محدث. قال: ثم انصرف أبو لهب.

قال محمد بن سعد: وسمعت غير محمد بن عمر يذكر أن أروى قالت يومئذٍ:

إن طُلَيبًا نصر ابن خاله   آساه في ذي ذمَّة وماله [1]

---

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٤٢ – ٤٣، وذكر الحافظ ابن حجر الخبرين نقلا عن ابن سعد الإصابة ٤/ ٢٢٢ رقم٣٣.

وهكذا أسلم طليب بن عمير ﵁ والنبي ﷺ مازال في دار الأرقم في ظرف كان شديد الصعوبة، ولم يكتف بالدخول في الإسلام بنفسه بل دعا أمه أروى بنت عبد المطلب إلى الإسلام وألح عليها في ذلك لما تمنعت قليلاً حتى أسلمت وكانت تدافع عن رسول الله ﷺ وتحض على نصرته.

وهكذا كسب الإسلام هذا الجندي الباسل الذي كانت نهايته الشهادة في معركة أجنادين، وكسب أمه التي كانت من جنود الإسلام في مجالها النسائي رضي الله عنهما.

وفي الخبر الثاني بيان موقف من مواقف طليب وأمه رضي الله عنهما في الدفاع عن رسول الله ﷺ، حيث أقدم طليب على الهجوم على أبي جهل لما آذى رسول الله ﷺ، والهجوم على هذا الرجل يُعدُّ مغامرة جريئة حيث كان منيعًا في قومه شديد العداوة للإسلام وأهله فالذي يقدم على الهجوم عليه سيتوقع أذى بالغًا من قومه وقد فعلوا ذلك لولا أن خاله أبا لهب خلصه من أيديهم.

وموقف أمه أروى كان جليلاً حيث أيدت ابنها على ماقام به من نصرة رسول الله ﷺ ولم تعبأ بعذل قومها لها ولابنها بل أظهرت إسلامها ونصرتها لرسول الله ﷺ.

مثل أعلى للتحول بعد الهداية

(إسلام عمر بن الخطاب)

حينما تتجمع خصال أمة من الناس في رجل واحد يصنع العجائب بقدرة الله تعالى، إذا آمن واستقام، لأنه بإيمانه بالله تعالى يكون فكره مشدودًا إلى الأعلى، إلى صانع الكون ومدبره فتسمو مداركه وتصفو تصوراته، وباستقامته تزكو نفسه، وينمو إيمانه، ويتطهر قلبه وجوارحه من الزلل والانحراف.

ولكنه حينما يظل على الكفر فإنه يبقى تائهًا مقصورًا فكره على محقرات الأمور التي لاتعدوها تصورات الناس المجردة من الإيمان، وتظل مواهبه حبيسة مكبوتة لأن حجاب الكفر يعرقلها بالأغلال، ويحيطها بالظلمات الحالكة، فلا تنطلق إلا في حدود ضيقة تحكمها عادةً الأعراف القومية بما فيها من كبت وانحراف.

وحينما يؤمن ولايطبق حدود الاستقامة تعود إلى الفكر حجب الجاهلية بشكل آخر يتسم بالشعور الدائم بالذنب الذي يعطل الفكر ويقيده فلا يدعه ينطلق إلى الجو الأعلى الرحيب.

فكما أن الكفر بمختلف مذاهبه أغلال مقيدة للعقل السليم والفكر النافذ فإن المعاصي كذلك وإن اختلفت مناحي الغَل والتقييد.

وهكذا كان عمر بن الخطاب ﷺ في جاهليته حينما لم يكن شيئًا مذكورًا إلا في حدود أعراف قبيلته الجاهلية.. ثم كان ما كان بعد إسلامه من عظمته الخارقة،التي أصبحت مضرب المثل عبر الأجيال.

ولقد عبر عبد الله بن مسعود ﷺ عما أحدثه إسلام عمر في الأمة بقوله: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا مانصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه [١].

وقال أيضًا « مازلنا أعزة منذ أسلم عمر » [٢].

لقد كان عمر رضي الله عنه شديد القسوة على المسلمين قبل أن يسلم، فلما هداه الله للإسلام حوَّل قوته العظيمة للدفاع عن الإسلام والمسلمين فكان عظيم التحدي للكفار حتى اعتز به المسلمون، وفرق الله به بين الحق والباطل، ولذلك لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق.

وكان من قصة إسلامه فيما رواه ابن إسحاق رحمه الله:

« أن أخته فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها كانت عند سعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل ﷺ، وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني « فتح الباري ٧/ ٤٨».

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة باب ٦ « الفتح ٧/ ٤١».

سعيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام – رجل من قومه من بني عدي بن كعب – قد أسلم، وكان أيضًا يستخفي بإسلامه فرقًا من قومه [1]، وكان خباب بن الأرتِّ يختلف إلى فاطمة بن الخطاب يقرئها القرآن » [2].

وإخفاء الإسلام في حال الفتنة وضعف المسلمين له مزاياه المتعددة، من السلامة من الأذى الذي قد يجر إلى الافتتان، والقيام بخدمة الدعوة في أمور لايستطيع القيام بها من استعلن بإسلامه، ولكن الاستخفاء بالإسلام ليس هو الأصل وإنما هو مشروع عند الضرورة وعند احتياج الدعوة، فالأصل هو إعلان الإسلام والقيام بالدعوة إليه لتعلو كلمة الحق وتقوم الحجة على الغافلين.

قال: «فخرج – يعني عمر – متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين مابين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم ممن أقام ولم يخرج فيمن

(١) فرَقًا بفتح الراء يعني خوفًا.

(٢) يعني هي وزوجها سعيد بن زيد كما سيأتي.

خرج إلى أرض الحبشة ».

وهل كان خروج عمر لقتل النبي ﷺ بدافع شخصي بحكم ما كان يهيمن على نفسه من عوامل قوية مؤثرة حيث كان شديد التمسك بتراث الآباء والأجداد، عظيم الغيرة على مجد قريش المكتسب آنذاك من التقاليد والعادات الجاهلية مع ما جُبل عليه من قوة الشكيمة والإصرار العنيف على إنكار ما لا يقتنع به، أم كان ذلك بتحريض من زعماء الكفار؟

الظاهر أنه كان بتحريض من زعماء الكفار مع ملاحظة الدوافع المذكورة، ومما يدل على ذلك ماجاء في رواية أخرى من أن أبا جهل جعل لمن يقتل محمدًا مائة ناقة، قال عمر: فقلت له: يا أبا الحكم آلضَّمان صحيح؟ قال: نعم، قال: فتقلدت سيفي أريده... ثم ذكر خبر تعريجه على بيت أخته وإسلامه بعد ذلك.

ذكره الحافظ ابن حجر من رواية الحافظ أبي نعيم [١].

وكون أبي جهل يجعل لمن يقتل رسول الله ﷺ مائة من الإبل دليل على تأصل عداوة الكفار للإسلام ودعاته، فهذا العوض كبير آنذاك،

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٨١.

وخصوصًا إذا كان قد بذل من فرد واحد.

قال ابن إسحاق في سياق روايته: « فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد ياعمر: فقال: أريد هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله ».

وهنا يكشف عمر عن قصده بجلاء مع بيان المسوغات التي دفعته إلى محاولة ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة.

فاجتماع قريش في نظره هدف رفيع في حد ذاته بغَضِّ النظر عما اجتمعوا عليه هل هو حق أم باطل؟ ومن فرق جماعتهم فهو ملوم وإن كان يدعو إلى الحق ويحارب الباطل.

وانتقاد ما أجمع عليه كبراء قريش يعدُّ تسفيها لعقولهم لأن ما أجمعوا عليه غير قابل للنقد ولا لمجرد التفكير في وزنه بميزان العقل السليم.

وعيب دينهم وسب آلهتهم يعدُّ جريمة في حق فاعله يستحق عليها القتل لأن في ذلك خروجًا عن المألوف من تقديس وتعظيم ما عليه الآباء والأجداد، وإن كان هذا التراث لايثبت أمام العقل السليم والتفكير المتأمل.

وهذا يعدُّ نموذجًا من الاعتقاد السائد في عقول الكفار آنذاك

حيث أصبح يغطي على مشاعرهم ولايتيح لهم مجالاً للتفكير والتأمل.

« فقال له نعيم: والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك ياعمر أتُرى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا ».

وهنا يأتي دور الاستخفاء بالدين لدى بعض المسلمين في الظروف الصعبة التي يمر بها المجتمع المسلم، فكانت مهمة نعيم رضي الله عنه – والحالة هذه – أن يحاول بكل إمكانه ثَنْيَ عمر رضي الله عنه عن عزمه الذي صمم عليه، ونجح في مهمته أيما نجاح حيث بدأ أولاً بتذكيره بمغبة إقدامه على قتل رسول الله ﷺ والذي يعيش في الجاهلية أيًّا كانت هذه الجاهلية وأيًّا كان سموه العقلي لايرضى بأن يفقد حياته مهما كان الهدف الذي ينطلق لخدمته، وإنما ينطلق من يقدم على المهلكة من هؤلاء لأن المُثُل الخيالية تغطِّي على فكره،وضغط الماضي والحاضر يُغشِّي على عقله فيحجب عنه العواقب الوخيمة التي تترتب على إقدامه على الأمر الذي يريده.

وقد استطاع نعيم بهذا أن يمتص قدرًا من الغضب الذي كان يساور عمر ولكن بقي أن يشغله بمهمة يُفرِّغ فيها كل ماتبقى من غضبه حيث قال له: « أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال:

وأي أهل بيتي؟قال ختنك[1] وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله اسلما وتابعا محمدًا على دينه فعليك بهما ».

وهنا قد يتساءل المتأمل: كيف ساغ لنعيم أن يبوح بسر بيت مسلم كان يخفي إسلامه، وقد يعرضهم بذلك للهلاك؟!

ويمكن أن يكون الجواب بأن المهمة الكبرى آنذاك كانت هي حماية النبي ﷺ، فتعرُّض فرد أو بيت مسلم للأذى فداء للنبي ﷺ ليس كثيرًا، إضافة إلى أنه لم يكن من المعهود في ذلك المجتمع الإقدام على قتل المسلمين، لا لأن عدواة الكفار لهم لم تصل إلى هذا الحد، وإنما لأن قتل فرد أو أفراد من المسلمين لن يؤثر في تعويق سير الدعوة الإسلامية، بل كان اهتمامهم مُنصَبًّا على تعذيب المسلمين ليرتدوا عن إسلامهم، فيكسب الكفار نجاحًا في الصد عن الإسلام، وقد يموت بعضهم تحت التعذيب كما فعلوا مع سمية رضي الله عنها.

أما التوجه بالقتل عمدًا فقد كان منصرفًا إلى النبي ﷺ، حيث عزموا على ذلك عدة مرات لأن قتله يعني ذهاب الإسلام.

---

(١) يعني زوج أخته.

« قال: فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها ﴿طه﴾ يقرئهما إياها ».

وهكذا تكون التربية الإسلامية بكتاب الله تعالى فهو زاد الصحابة رضي الله عنهم يتلونه ويتدارسونه ويحفظونه ويعملون بأحكامه ويتأثرون بمواعظه،يتعلم اللاحق من السابق،وهكذا كانوا في عزلة فكرية عمايدور في المجتمع الجاهلي فلا يتأثرون إلا بماوقر في قلوبهم من كتاب الله تعالى.

وهذا مثل من المنهج التعليمي الذي كان رسول الله ﷺ يربي عليه المسلمين آنذاك،حيث كان يوجه المسلمين القدامى الذين يحفظون مانزل من القرآن أو بعضه إلى المسلمين الجدد ليعلموهم القرآن الكريم.

« فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها،وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال:ماهذه الهيْنمة التي سمعت؟ قالا له:ماسمعت شيئًا،قال:بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد،فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن

زوجها فضربها فشجَّها فلما فعل ذلك قالت له اخته وختنه:نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع مابدا لك».

وهكذا يفرِّغ عمر غضبه كله في البطش بابن عمه وأخته، ويتمُّ لنُعَيم ما أراد من صرف عمر وهو في حال الغضب الشديد عن رسول الله ﷺ، وذلك ليتمَّ ما أراده الله تعالى من هداية عمر وإعزازه لدين الله تعالى.

وهكذا رأينا ابن عمه وأخته يعلنان إسلامهما أمامه بعزة وقوة ويُظهران التحدي له، بعد أن بطل مفعول السرِّية التي كانا يحيطان إسلامهما بها، فإن مصلحة الدعوة الإسلامية تقتضي أن لايُظهر المسلم إسلامه بضعف،وإنما يظهر الاعتزاز به واحتقار ماحوله من الجاهلية،حتى لايختلط ببعض تعاليم الجاهلية.

« فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ماصنع فارعوى، وقال لأخته: اعطيني الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفًا أنظر ماهذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا ».

لقد كان لموقف زوج أخته وابن عمه سعيد بن زيد الذي كان فيما بعد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وموقف أخته فاطمة أثر ظاهر في تغيُّر نظرته إلى الإسلام، ولعله لم يعهد منهما من قبل تصلبًا

وإصرارًا على الرأي وقوة في المجابهة كما شاهدها ذلك اليوم، بل لعله لم يواجَهْ بالتحدي قبل ذلك من قرابته وهو الرجل القوي المهيب.

لابد أنه قد انقدح في نفسه أمام هذا المشهد أن سرًّا عظيمًا يكمن وراء هذا الدين الجديد وكتابه الذي سمعهما يتلوانه،فطلب من أخته أن تطلعه على الصحيفة،وخشيت أخته على كتاب الله تعالى أن يهينه أو ينتزع الصحيفة منها فيفقدا أقدس شيء يعتزان به،فقالت:«إنا نخشاك عليها،قال:لاتخافي،وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها».

وإن هذا التنازل الذي أظهر عمر متواضعًا وهو الرجل المتجبر قبل ذلك لأول علامات انجذابه للإسلام وإعجابه به.

« فلما قال ذلك طمعتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر ».

وهنا تظهر بوضوح آثار التربية الإسلامية العالية التي تمت على يد رسول الله ﷺ لتلامذته من الصحابة رضي الله عنهم، حيث خاطبت فاطمة أخاها بهذه الكلمات القوية، فحكمت عليه بأنه نجس وعللت هذا الحكم بأنه لا يزال على دين قومه الذي هو الشرك، فلم تجامله في دينها ولم تفرط في قدسية كتاب الله تعالى من أجل أن تقي نفسها وزوجها.

ومع أنها قامت بتمثيل ما يجب عليها تجاه تعظيم كلام الله تعالى، فإنها قامت أيضًا بواجبها نحو الدعوة وهي التي طمعت في إسلام أخيها فخاطبته بنداء الأخوة ؛ أخوة النسب لعل ذلك يجذبه إلى الإسلام ويخفف من وقع الحكم الذي أصدرته عليه.

« قال:فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها – طه – فقرأها فلما قرأ منها صدرًا – يعني أولها[1]–، قال: «ماأحسن هذا الكلام وأكرمه! »».

لقد تحمل عمر وقع ذلك الحكم الذي سمعه من أخته مع شدته لما أراد الله تعالى له من الهداية فقام فاغتسل.

ولقد أخذته روعة كلام الله تعالى وسرى الإيمان في كيانه حتى

---

(١) جاء في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه عند أبي يعلى رحمه الله: إلى قوله ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ الآية – المطالب العالية ٤/ ١٩٣ – ١٩٤ رقم ٤٢٨١.

وهذه هي الآيات التي قرأها: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ [طه: ١-١٦].

تبدل إنسانًا آخر، بعدما تهيأ نفسيا قبل ذلك وأقبل على تلقي كلام الله تعالى وقد تحرر من أوهام الجاهلية التي طالما غشت على قلبه وحجبته عن التفكير في مجرد سماع الوحي الإلهي، فاثنى على كلام الله تعالى بهذا الثناء البالغ الذي يدل على تأثره به وهيمنته على مشاعره.

وهنا يأتي دور معلم الأسرة خباب بن الأرتّ رضي الله عنه الذي حجبه عن المجابهة كونه من المستضعفين في مكة: « قال: فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: ياعمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فاللهَ اللهَ ياعمر»[1].

---

(١) وقد أخرج هذا الإمام الترمذي في سننه، كتاب المناقب باب مناقب عمر، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر، قال الحافظ ابن حجر: وصححه ابن حبان أيضًا وفي إسناده خارجة بن عبد الله صدوق فيه مقال لكن له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الترمذي أيضًا ومن حديث أنس (تحفة الأحوذي ١٠/ ١٦٨). وأخرجه الطبراني عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ « اللهم أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب أو بأبي جهل ابن هشام «فجعل الله دعوة رسوله ﷺ لعمر بن الخطاب فبنى به الإسلام وهدم به الأوثان – ذكره الهيثمي وقال: رجاله رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق – مجمع الزوائد – ٩/ ٦١ –.
هذا وقد أخرج الحاكم من ثلاث طرق عن عبد الله بن عمر وعن عبد الله بن عباس وعن عائشة رضي الله عنهم أن الدعوة كانت لعمر خاصة، وحكم على هذه الطرق بالصحة ووافقه الذهبي – المستدرك ٣/ ٨٣ –. =

وكانت هذه دفعة أخرى لعمر رضي الله عنه ليُقْدم إلى الإسلام، فما أكرم وما أعظم أن يكون إسلامه استجابة لدعوة رسول الله ﷺ لا لنفعه الخاص فقط وإنما ليكون إسلامه نصرًا للإسلام وتأييدًا لدعوته.

ولذلك لم يتردد عمر لحظة واحدة بل قال: « فدلَّني ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا بالسيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يارسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فَأْذَنْ له فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه ».

= ولعل الدعوة كانت لأحد الرجلين ثم خص النبي ﷺ عمر لكونه يرجو إسلامه، ولاشك أن الفرق بين الرجلين واضح، وذلك لظهور العداوة الشديدة من أبي جهل المبنية على الحسد والحقد مع اعترافه بأن مادعا إليه رسول الله ﷺ هو الحق، بينما كان عمر ملتزمًا بجاهليته لكونه يرى الحق مع ماورثه من الآباء والأجداد، وفرق كبير بين من يلتزم بالباطل وهو يرى أنه على الحق وبين من يلتزم بالباطل وهو يعرف أنه باطل. وإن كانت الهداية ممكنة في كلا الصنفين.

ومن هذا المشهد تظهر شجاعة حمزة ﷺ ورباطة جأشه وكان قد أسلم قبل ذلك بثلاثة أيام فقط.

فقال له رسول الله ﷺ: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحُجْزَتِه[1] أو بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة، وقال: ماجاء بك يا ابن الخطاب؟ فو الله ما أرى أن تنتهي حتى يُنـزل الله بك قارعة ».

وهنا تبدو شجاعة رسول الله ﷺ التي لانظير لها فهو لم يتَّق الخطر بأصحابه بل قام وسبقهم ليقيهم بنفسه.

وهكذا تظهر عظمة الرجال وسُمُوُّهم، فرسول الله ﷺ لم يقابل رجلاً عاديًّا، وإنما قابل رجلا ملأ الرعبُ منه قلوب الناس في مكة، واشتهر في أوساطها عداوته المتناهية للإسلام وأهله، وقد أقبل متوشحًا سيفه، نحو دار يجتمع فيها المسلمون سرّا، فكل الدلائل تدل على أنه قد أقبل يريد شرّا برسول الله ﷺ ومن معه، ومع ذلك ينهض له رسول الله ﷺ مفتديًا أصحابه بنفسه.

وتتم المفاجأة الكبرى حينما يقول عمر رضي الله عنه « يارسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن

---

(١) يعني معقد الإزار.

عمر قد أسلم ».

وتغمر الفرحة قلوب المؤمنين، ويظهر أثر إسلام عمر على سلوكهم حيث قويت شخصيتهم وأظهروا شعائر دينهم، وكمل اعتزازهم الظاهر بدينهم بعدما قطعوا شوطًا في ذلك بإسلام حمزة رضي الله عنه، ويبين ذلك ماجاء في ختام هذه الرواية: « فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم »[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٦ – ٣٦٠.
وأخرجه ابن سعد من حديث إسحاق الأزرق قال: أخبرنا القاسم بن عثمان البصري عن أنس بن مالك رضي الله عنه وذكر نحوه – طبقات ابن سعد ٣/ ٢٦٧ –.
وكذلك أخرجه الحاكم والبيهقي بهذا الإسناد وذكرا نحوه، وسكت عنه الحاكم والذهبي – المستدرك ٤/ ٥٩، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢١٩ –.
وأخرجه أيضًا أبو يعلى من حديث أنس بن مالك – المطالب العالية ٤/ ١٩٣ رقم٤٢٨١.
وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من طريق أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده – فضائل الصحابة تحقيق الدكتور وصي الله ١/ ٢٨٥ – ٢٨٦ –.
وأخرجه البيهقي من هذا الطريق – دلائل النبوة ٢/ ٢١٦ – وذكر الذهبي هذه الرواية وسكت عنها، ثم ذكر رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما وحكم على إسنادها بالضعف – تاريخ الإسلام/ السيرة/ ١٧٧ – ١٨٠ –.
وقال الحافظ ابن حجر: وقد ورد سبب إسلامه – يعني عمر – مطولاً فيما أخرجه=

وكان إسلام عمر فتحًا كما قال عبد الله بن مسعود، حيث خرج الصحابة من ذلك البيت الذي اجتمعوا به ليأمنوا على أنفسهم بعدما كان من حادثة اعتداء المشركين الجماعي على المسلمين، على إثر خطبة أبي بكر الدعوية، فلم يُخرج الصحابة من ذلك البيت ويجعلهم يأمنون بعض الأمْن إلا إسلام عمر.

وفي تكبير رسول الله ﷺ حينما أعلن عمر رضي الله عنه إسلامه دليل على استحباب التكبير عند الفرح، فالله أكبر من كل شيء فلا يعظَّم غيره ولايقدس سواه، تباركت أسماؤه وجلت صفاته.

هذا وقد أخرج أبو نعيم رحمه الله خبر إسلام عمر رضي الله عنه من طريق آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما وذكر نحو خبر ابن إسحاق، وفيه أنه لما قرأ الآيات الأولى من سورة طه قال: فتعظَّمْت في صدري وقلت: مِنْ هذا فرَّت قريش، ثم شرح الله صدري للإسلام فقلت: لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، قال: فما في الأرض

=الدارقطني من طريق القاسم بن عثمان عن أنس – وذكر ملخصًا للرواية السابقة – ثم قال: وروى أبو جعفر بن أبي شيبة نحوه في تاريخه من حديث ابن عباس – فتح الباري ٧/ ٤٨ -.

فهذه الروايات الثلاث المروية عن أسلم وأنس وابن عباس رضي الله عنهم تقوي رواية ابن إسحاق المذكورة.

نسمة أحب إليّ من رسول الله ﷺ، قلت: أين رسول الله؟ قالت – يعني أخته فاطمة –: عليك عهد الله وميثاقه أن لاتجبهه بشيء يكرهه، قلت: نعم، قالت: فإنه في دار الأرقم بن أبي الأرقم [1].

ومن هذه السرعة في تحول عمر واستجابته للإسلام حينما سمع القرآن نفهم مدى الضغط الرهيب الذي كان زعماء قريش آنذاك يمارسونه على الناس حتى طوقوهم بذلك الحجر الفكري الذي حَرَمَ هذا العبقري الألمعي من سماع القرآن طيلة تلك السنوات، فما أن لامست روعة القرآن الكريم حسه المرهف حتى اهتز كيانه، وانتعش وجدانه، فأعلن كلمة الحق مدوِّية في الفضاء بكل عزة وإباء، وهاجم الباطل بكل شجاعة وإقدام واستفز رؤوس الطغيان واستهان بهم، لأنه يعلم يقينا أنهم كانوا وراء بقائه سابقًا على الضلال، وبقاء كل من تجرد من الهوى المنحرف على ضلاله بما يقومون به من الإعلام المضلل والإرهاب الفكري المنظم.

كما نلحظ في هذا الخبر دقة التربية التي تلقاها الصحابة ر جالاً ونساءً، فحينما سأل عمر رضي الله عنه أخته عن مكان النبي ﷺ كانت مخيلتها

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٧٩.

تدور بين أمرين: الأول: وجوب حماية النبي ﷺ وعدم جواز إفشاء أسرار المؤمنين، والأمر الآخر: رغبتها الملحة في هداية أخيها إلى الإسلام بعدما قرأتْ في وجهه وفي سلوكه علامات الهداية والإقبال، فكان أن جمعت بين الأمرين بإخباره عن مقر النبي ﷺ بعد أخذ العهد عليه بأن لا يجبهه بشيء يكرهه.

كما نلحظ مثالاً لما كان يتصف به العرب آنذاك من التحلي ببعض مكارم الأخلاق كالصدق والوفاء والأمانة مما جعلهم أهلاً لحمل هذه الرسالة العظيمة، وقد استقر في ذهن فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها اتصاف أخيها بهذه المعاني فإنها قد وثقت في أنه لن ينقض عهده ذلك فأقدمت على ما أقدمت عليه من إفشاء السر لتلك المصلحة العظيمة.

هذا ولما أسلم عمر سعى في إعلان إسلامه ليغيظ الكفار ولينال من الأذى على أيديهم مثل ما ناله إخوانه المسلمون من قبل، ويصور ذلك ما أخرجه ابن إسحاق قال: حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن بعض آل عمر أو بعض أهله قال: قال عمر: لما أسلمتُ تلك الليلة تذكرت أيَّ أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت، قال قلت: أبو جهل، - وكان عمر لحنتمة بنت هشام ابن

المغيرة [1]- قال فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، قال: فخرج إليّ أبو جهل فقال: مرحبا وأهلاً يا ابن أختي ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله ورسوله محمد وصدقت بما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي وقال: قبحك الله وقبح ماجئت به [2].

وهكذا بلغ من قوة إيمان عمر أن تحدى بإسلامه أقوى رجل في قريش وأشدهم عداوة للإسلام، وكان بإمكانه لو أراد السلامة لنفسه أن يستخفي بإسلامه، أو على الأقل أن يترك الأمر حتى يعلم الكفار عن ذلك بالتدريج.

وحينما لم يصنع أبو جهل معه شيئًا ولم يعلن هذا الخبر بحث عن رجل آخر ليقوم بإعلان هذا الخبر.

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال: لما أسلم أبي عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره وأنظر مايفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له: أعلمت ياجميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟

---

(١) يعني أن حنتمة أمه وهي أخت أبي جهل.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٤.

فو الله ماراجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر واتبعت أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يامعشر قريش – وهم في أنديتهم حول الكعبة -: ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ.

قال:ويقول عمر من خلفه:كذب ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم،قال وطَلَحَ[1] فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا مابدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حَبرة وقميص موشًّى، حتى وقف عليهم، فقال: ماشأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، قال: فمه؟ رجل اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل،قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كشط عنه.

قال: قلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذلك أي

(١) يعني تعب.

بني العاص بن وائل السهمي [1].

وهكذا نجده رضي الله عنه يعلن إسلامه أمام الملأ من قريش وهو يعلم أنهم سيجتمعون على ضربه وربما قتلوه لكثرتهم ولم يكن في توقعه أن يأتي خاله العاص بن وائل السهمي لينقذه، وذلك لأن إيمانه كان قويًا فهانت عليه نفسه من أجل إظهار عزة الإسلام وإرهاب الكافرين.

هذا وقد جاء في بعض الروايات أن عمر رضي الله عنه طلب من رسول الله ﷺ الظهور الجماعي بدعوة الإسلام إعزازًا لهذا الدين وتحديًا للمشركين.

ومما جاء في ذلك ماذكره الحافظ ابن كثير من رواية الحافظ أبي الحسين خيثمة بن سليمان الأطرابلسي من حديث عائشة رضي الله عنها قالت بعد أن ذكرت حادثة هجوم الكفار على المسلمين وعلى أبيها خاصة: وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهرًا وهم تسعة وثلاثون رجلاً، وقد كان حمزة أسلم يوم ضُرب أبو بكر، ودعا رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب أو لأبي جهل ابن هشام، فأصبح عمر وكانت

(١) سيرة ابن هشام١/ ٣٦٢.وقد أخرج الإمام البخاري هذا الخبر مختصرًا – صحيح البخاري رقم ٣٨٦٥، كتاب مناقب الأنصار (الفتح ٧/ ١٧٧)-. وذكره الهيثمي من رواية الطبراني في الأوسط وقال:ورجاله ثقات – مجمع الزوائد ٩/ ٦٥-.وكذلك أخرجه الحاكم وقال:صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي – المستدرك ٣/ ٨٥-. وذكره الحافظ ابن كثير وقال:وهذا إسناد جيد قوي – السيرة لابن كثير ٢/ ٣٩ -.

الدعوة يوم الأربعاء فأسلم عمر يوم الخميس، فكبرَّ رسول الله ﷺ وأهل البيت تكبيرة سُمعت بأعلى مكة، وخرج أبو الأرقم – وهو أعمى كافر – وهو يقول: اللهم اغفر لبَنِيَّ غير الأرقم فإنه كفر.

فقام عمر فقال: يارسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق ويظهر دينهم وهم على الباطل؟ قال: ياعمر إنا قليل وقد رأيت مالقينا، فقال عمر: فو الذي بعثك بالحق لايبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان.

ثم خرج فطاف بالبيت ثم مر بقريش وهي تنتظره فقال أبو جهل ابن هشام: يزعم فلان أنك صبوت؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فوثب المشركون إليه، ووثب على عتبة فبرك عليه وجعل يضربه وأدخل إصبعه في عينيه فجعل عتبة يصيح فتنحى الناس، فقام عمر فجعل لايدنو منه أحد إلا أخذ بشريف ممن دنا منه حتى أعجز الناس، واتبع المجالس التي كان يجلس فيها فيظهر الإيمان.

ثم انصرف إلى النبي ﷺ وهو ظاهر عليهم، قال: ماعليك بأبي وأمي والله مابقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولاخائف.

فخرج رسول الله ﷺ وخرج عمر أمامه وحمزة بن عبد المطلب حتى طاف بالبيت وصلى الظهر مؤمَّنا،ثم انصرف إلى دار الأرقم ومعه عمر،ثم انصرف عمر وحده،ثم انصرف النبي ﷺ (1).

هذا وماجرى من عمر من تخصيص مزيد من الهجوم على عتبة ابن ربيعة يعدُّ انتقامًا منه لما صنعه عتبة قبل ذلك بأبي بكر.

وبهذه المعركة التي صارع بها عمر وحده مجموعة من المشركين أثبت أن شأن الكفار ضعيف وأنه بإمكان المسلمين أن يُظهروا دينهم في وسط مجامع الكفار.

وقد جاء في آخر رواية أبي نعيم السابقة زيادة تفصيل لما جرى من عرض عمر على رسول الله ﷺ الخروج وقيامهم بذلك حيث جاء فيها « قلت: يارسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متم وإن حييتم، قال قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه في صفين: حمزة في أحدهما وأنا في الآخر،له كديد ككديد الطحين (2) حتى دخلنا

---

(1) البداية والنهاية ٣/ ٣٠.

(2) الكديد التراب الناعم فإذا وطيء ثار غباره، أراد أنهم كانوا في جماعة وأن الغبار كان يثور من مشيهم – النهاية ٤/ ١٥٥ -.

المسجد، فنظَرَتْ إليَّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها،فسماني رسول الله ﷺ الفاروق،وفرق الله بين الحق والباطل[1].

وهكذا تقَوَّى الصحابة بإسلام عمر بعد إسلام حمزة رضي الله عنهم فخرجوا جماعة إلى الحرم، وماكانوا قبل ذلك يخرجون إلا فرادى، بل كان الكثير منهم لايتمكنون من الصلاة في الحرم كما جاء في قول ابن مسعود رضي الله عنه السابق « ولقد كنا مانصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر».

هذا وإن موافقة النبي ﷺ على ذلك الخروج الجماعي من أجل إظهار شعائر الإسلام دليل على أنه كان ينتظر ذلك اليوم الذي يتمكن فيه من إظهار عزة الإسلام وقوة المسلمين من غير أن يتعرضوا للأذى، فلما عرض عليه عمر هذا الأمر وافق على ذلك، حيث انضم إلى صف المسلمين بَطَلان لكل واحد منهما مكانة كبيرة في مجتمع مكة المكرمة، وهذا دليل على أن الأصل هو إظهار شعائر الإسلام والاجتماع على ذلك ليكون أبلغ في الدعوة، وأكثر ارهابًا للأعداء، وذلك لأن كثيرين في ذلك المجتمع مقتنعون بالإسلام ولكنهم

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٧٩.

ينتظرون بإسلامهم ظهور قوة المسلمين وانخفاض قوة الكافرين حيث إنهم لم يصلوا من القناعة إلى حد التضحية والبذل في سبيل الله تعالى.

ولهذا فإن رسول الله ﷺ لم يَعدَّ عرض عمر هذا تعجلا في الظهور الجماعي لأن أمة المسلمين قد بلغت بانضمام هذين العملاقين إلى صفها حدا يمكِّنها من مقاومة زعماء الباطل لو فكروا في صد ذلك الجمع بالقوة.

وهكذا رأينا تأثر المشركين واغتمامهم حينما رأوا المسلمين يخرجون لإظهار دينهم مجتمعين، وقد كان النبي ﷺ يخرج كل يوم إلى الحرم، فيعلن صلاته ويجهر بقراءته، ولم يكن لخروجه وإعلانه الأثر نفسه الذي كان للجماعة مع أنه رسول الله، وهذا يدلنا على أهمية اجتماع المسلمين لإظهار دينهم وإنكار المنكر، فإن الأعداء لايبالون بالأفراد الذين ليسوا في جماعة مهما علا ذكرهم واشتهر أمرهم لأنهم لن يغيروا من الأمور المنكرة شيئا يذكر،ويستطيع الأعداء أن يحتووهم أحيانًا وأن يجابهوهم أحيانًا أخرى حتى يضعفوا وينتهي وجودهم.

ومن خروج النبي ﷺ يقود تلك الجماعة حينما أصبحت جماعة المسلمين قادرة على المجابهة السلمية.. من ذلك نستفيد وجوب

اجتماع المسلمين لإظهار وجود الإسلام وإعزازه وإنكار المنكر، وذلك في المنكرات الظاهرة التي تحميها بعض القوى المهيمنة ولايستطيع الأفراد أن يغيروها.

ومما يؤيد ثبوت خروج النبي ﷺ مع أصحابه ما أخرجه الحاكم من حديث عثمان بن عبد الله بن الأرقم عن جده الأرقم وكان بدريًّا، وكان رسول الله ﷺ أوى في داره عند الصفا حتى تكاملوا أربعين رجلاً مسلمين، وكان أخرهم إسلامًا عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، فلما كانوا أربعين خرجوا إلى المشركين.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي [١].

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام أحمد والطبراني أخرجاه وقال: ورجال الطبراني ثقات [٢].

وهكذا تم إسلام عمر رضي الله عنه، وانطلق من تلك اللحظة في العمل لخدمة الإسلام متفانيًا في الدفاع عنه معليا من شأن المسلمين، وما زال بعد ذلك مجاهدًا في سبيل الله واهبًا نفسه بكل ما تملك من طاقات لخدمة

---

(١) المستدرك ٣/ ٥٠٤.

(٢) مجمع الزوائد ٤/ ٥.

الإسلام والمسلمين حتى قتل شهيدًا في سبيل الله تعالى في آخر خلافته.

وكان كما وصفته عائشة رضي الله عنها: « كان والله أحوذيّا نسيجَ وحْدِه، كأنما خلق للإسلام، قد أعدَّ للأمور أقرانها » فرضي الله عنه وأرضاه.

مثل من الصبر على الشدائد

(حصار الشعب)

لقد غاظ المشركين إسلام بعض أشراف مكة وزعمائها خاصة حينما أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما حيث امتنع بهم المسلمون وعز بهم الإسلام، فأقدم المشركون على أسوء وأخطر محاولة فكروا فيها وهي القضاء على حياة النبي ﷺ واجتمع أمرهم على ذلك.

وكان من أثر ذلك أن قام أبو طالب بتأكيد حماية النبي ﷺ، فأمر بني عبد المطلب بالقيام بذلك داخل شعبهم المسمى شعب أبي طالب[1]، ودخل معهم في هذه الحماية بقية بني هاشم وبني المطلب مسلمهم وكافرهم،فلما رأى المشركون ذلك قاموا بمقاطعتهم اقتصاديًّا واجتماعيًّا.

وقد أخرج الخبر في تفاصيل ذلك الإمام البيهقي من طريقين عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري قال:«ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهدُ، واشتد عليهم البلاء،واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية.

فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يُدْخلوا رسول الله شعْبَهم، ويمنعوه ممن أراد قتله،فاجتمعوا على ذلك

(١) ويسمى الآن شعب علي وهو مقابل الحرم المكي الشريف .

مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا.

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ واجتمعوا على ذلك، اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يَدخُلوا بيوتهم حتى يُسلِموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق أن لا يقبلوا من بني هاشم أبدًا صلحًا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم في شعبهم يعني ثلاث سنين (١) واشتد عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركون طعامًا يَقْدمُ مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفكَ دمِ رسول الله ﷺ.

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكرًا به واغتياله، فإذا نوّم الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه.

---

(١) وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة كما جاء في إحدى روايات ابن سعد – طبقات ابن سعد ١/ ٢١٠ فيكون دخولهم في العام السابع.

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن بني قصي، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ماتعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه، وبعث الله عز وجل على صحيفتهم التي المكْرُ فيها برسول الله ﷺ الأَرَضَة فلحست كل ماكان فيها من عهد وميثاق.

ويقال كانت معلقة في سقف البيت، ولم تترك اسمًا لله عز وجل فيها إلا لحسته، وبقي ماكان فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم، وأطلع الله – عز وجل – رسوله على الذي صنع بصحيفتهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب.

فقال أبو طالب: لا والثواقب ماكذبني، فانطلق يمشي بعصابة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد، وهو حافل من قريش فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوا ليعطوهم رسول الله ﷺ.

فتكلم أبو طالب فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها،

فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لايشكُّون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم، فوضعوها بينهم وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطرًا لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمرًا لكم فيه نَصَفٌ، إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني: أن الله عز وجل بَرِئَ من هذه الصحيفة التي في أيديكم ومحا كلَّ اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم [1]، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا، فو الله لانسلمه أبدًا حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم.

قالوا: قد رضينا بالذي يقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحرًا من صاحبكم! فارتكسوا وعادوا بشرِّ ماكانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين رهطه، والقيام بما تعاهدوا عليه.

---

(١) ورد في رواية ابن هشام عكس ذلك وهو أن الأرضة أكلت الصحيفة ماعدا « باسمك اللهم » سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٥ – ولكن ذكر الإمام الزرقاني أن الرواية الأولى أثبت وهي رواية موسى بن عقبة وعروة بن الزبير – شرح المواهب اللدنية ١/ ٢٩٠ –.

فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب: إن أَوْلَى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون؟ فإنا نعلم أن الذي أجمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهي في أيديكم، طمس الله ماكان فيها له من اسم[1]،وماكان من بغي تركه، أفنحن السحرة أم أنتم؟

فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف وبني قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء من بني هاشم،منهم أبو البَخْتَري والمطعم بن عدي وزهير بن أبي أمية بن المغيرة وزمعة بن الأسود وهشام بن عمرو،وكانت الصحيفة عنده، وهو من بني عامر بن لؤي في رجال من أشرافهم ووجوههم:نحن براء مما في هذه الصحيفة، فقال: أبو جهل: هذا أمر قُضِي بليل[2].

وقال الإمام البيهقي بعد رواية هذا الخبر: وهكذا ذكر شيخنا أبو عبد الله الحافظ رحمه الله هذه القصة عن أبي جعفر البغدادي عن محمد ابن عمرو بن خالد عن أبيه عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير[3].

وقد ذكر البيهقي هذه الرواية لتقوية الرواية السابقة حيث إنها

---

(١) يعني من أسماء الله تعالى.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١١ – ٣١٤.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤.

مرسلة لأن الزهري لم يذكر من روى عنهم من الصحابة.

وأخرجه أبو نعيم من طريق أبي الأسود عن عروة بن الزبير قال: لما أقبل عمرو بن العاص من الحبشة من عند النجاشي إلى مكة قد أهلك الله صاحبه ومنع حاجته اشتد المشركون على المسلمين كأشد ماكانوا، حتى بلغ[بالمسلمين] [1] الجهد، واشتد عليهم البلاء، وعمد المشركون من قريش فأجمعوا مكرهم وأمرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية فلما رأى ذلك أبو طالب جمع بني عبد المطلب، فأجمع لهم أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله.. ثم ذكر مثل خبر موسى بن عقبة السابق [2].

وأخرج الإمام البيهقي رواية أخرى من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: فلما مضى رسول الله ﷺ على الذي بعث به، وقامت بنو هاشم وبنو المطلب دونه وأبوا أن يسلموه وهم من خلافه على مثل ماقومهم عليه، إلا أنهم أنفُوا أن يُستَذلُّوا ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه، فلما فعلت ذلك بنو هاشم وبنو المطلب وعرفت

---

(١) مابين القوسين مستدرك من كتاب الخصائص،أفاده محققا الطبعة الثانية لدلائل النبوة.

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني / ٩٢.

قريش أن لاسبيل إلى محمد ﷺ معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب أن لايُنكحوهم ولاينكحوا إليهم ولايبايعوهم ولايبتاعوا منهم،وكتبوا صحيفة في ذلك وعلقوها بالكعبة، ثم عَدَوْا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديدًا.

ثم ذكر نحو خبر موسى بن عقبة، إلا أن فيه من وصف ما تعرض له بنو هاشم وبنو المطلب أن أصوات صبيانهم تسمع من وراء الشعب وهم يتضاغون من الجوع [1].

وأخرجه ابن هشام من روايته عن ابن إسحاق قال: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا بينهم أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على أن لايُنكحوا إليهم ولايُنكحوهم ولا يبيعوهم شيئًا ولايبتاعوا منهم..

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤ – ٣١٥.

ثم ذكر خبر الصحيفة إلى أن قال : فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيه الذي صنعوا قال أبو طالب :

ألا أبلغا عــني عــلى ذات بَيْننا [1]
لُؤَيًّا وخُصًّا مـن لـؤيّ بني كـعـب
ألم تعلموا أنـا وجـــدنا محمـدًا
نبيًّا كموسى خُطَّ في أول الـكـــتب
وأنّ عـليه فـــي الـعباد مـحبـةً
ولاخير ممن خصـه الله بالـحـــب
وأن الذي ألصقْتُمُ مـــن كتابكم
لَكُـم كائـن نحسًا كَراغية السَّــقب [2]
أفيقُوا أفيقوا قبل أن يُحفر الثَّرى
ويصُبح مَنْ لم يَجْن ذنبا كذي الذَّنب
ولاتَتْبعوا أمـرَ الوُشاة وتَقْطَعوا
أواصـرَنا بعـد الـمودّة والــقـرْب

(١) يعني الخصومة والعدواة.

(٢) يعني أن تلك الصحيفة ستكون شؤما عليكم كشؤم ناقة صالح وولدها على ثمود حين عقروها،والراغية هي الناقة والسقب ولدها.

وتَسْتجلبوا حـَرْبًا عَوَانًا، وربما

أمرّ على مـــن ذاقه جَلبُ الحـــرب[1]

فلسنا وربِّ البيت نُسـَلم أحمدًا

لِعزّاءَ مـــن عض الزّمان ولاكَـرْب[2]

ولّما تَبـِنْ منّا ومنكم سَـوالــف

وأيدٍ أُثــرّت بالقُسَاسيَّةَ الشُّـهــْب[3]

بُمعْترك ضَيْق تـُـرى كسَر القَنا

به والنسورَ الطُّخم يَعْكفن كالشِّربِ[4]

كـأن مجَال الخيـل فـي حَجَراته

ومَعْمَعة الأبطال مَعْركـة الحــــرْب[5]

(١) عوانا أي مستمرة، أي لاتتسببوا في وقوع حرب مستمرة ربما كان مذاقها مرّا على من جلبوها.

(٢) يعني لن نتركه يواجه سنة قاسية من عض الزمان وشدته.

(٣) «تبن»يعني تنقطع،والسوالف جمع سالفة وهي صفحة العنق و«أثرت»يعني قطعت و«القساسية»السيوف منسوبة إلى قاس مكان فيه معدن الحديد،و«الشهب» الصقيلة اللامعة.

(٤) الطخم جمع أطخم وهو الذي في لونه سواد، والشرب جماعة الشاربين.

(٥) المجال المكان الذي تجول فيه الخيل، الحجرات النواحي، والمعمعة صوت الأبطال في المعركة.

ألیس أبـونا هـاشــمٌ شـَدَّ أُزْرَه

وأوصى بنيه بالطعان وبالـــضـرب؟

ولسنا نَـمَلّ الحـربَ حتى تَمَلَّنا

ولانَشْتكى ما قد ينوب مـــن النكب

ولكنَّنَا أهـلُ الحَـفائظ والنـُّهى

إذا طار أرواحُ الكماة مــــن الرُّعب[1]

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا،حتى جُهدوا،لايصل إليهم شيء إلاسرّا مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش.

وقد كان أبو جهل بن هشام – فيما يذكرون – لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، معه غلام يحمل قمحًا يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ، ومعه في الشعب، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فقال : مالك وله. فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال له أبو البختري : طعامٌ كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها

(١) الحفائظ جمع حفيظة وهي الغضب، والنهى جمع نهية وهي العقل، والكماة جمع كمي وهو الشجاع الذي يتكمى في سلاحه أي يستتر فيه.

بطعامها! خَلِّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ لـه أبو البختري لَحْيَ بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطأ شديدًا، وحمزةُ بن عبد المطلب قريبٌ يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فيشمتوا بهم، ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهارًا، وسرّا وجهارًا، مُباديًا بأمر الله لايتقي فيه أحدًا من الناس [1].

ففي هذه الأخبار تصميم من الكفار على قتل النبي ﷺ بعدما يئسوا من القضاء على دعوته، وهكذا أهل الباطل لايتورعون عن التصفية الجسدية لدعاة الحق إذا تمكنوا من ذلك، وذلك لعجزهم الفاضح عن مقاومة أهل الحق بالحجة والمنطق.

والقوة إذا لم يصاحبها دعوة حق فهي حماقة ورعونة لأن صاحبها–والحال هذه– ليس أمامه مبدأ سليم يدافع عنه، ولاضوابطُ محكمة يرجع إليها، فأما حينما تكون القوة مع أهل الحق فإنهم يستخدمونها عند الضرورة للدفاع عما يدعون إليه من الحق، وإزالة العوائق التي تحول دون انتشاره، ويتقيدون بضوابط إلهية لايمكن أن

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٤ – ٣٦٨.

يتطرق إليها شيء من الظلم والعدوان.

وهكذا يلجأ أهل الباطل في كل زمن إلى القوة والعنف حينما تكون حجتهم ضعيفة ومهزوزة، فيبطشون بأهل الحق إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لأنهم لايستطيعون الوقوف معهم في مجال الحجة والبيان، وهم يدركون جيدًا أن أي محاولة منهم لطرح القضايا الفكرية على بساط البحث والنقاش سيؤول في النهاية لغير صالحهم، لأنهم لم يُشغلوا أنفسهم منذ نعومة أظفارهم بالتأمل الجاد والبحث عن حقائق الأمور، وإنما بحثوا عن أسهل الطرق وأسرعها للسيطرة والتمكن في الأرض فسلكوه، وكوَّنوا لأنفسهم عقيدة يرون أنها تحمي نظامهم وتكفل لهم سيادتهم.

وقد تكون هذه العقيدة مزيجًا من الحق والباطل، فليس في مقدورهم أن يناقشوا أقوامًا وهبوا أنفسهم لفهم عقيدتهم الحقة وبيانها والدفاع عنها، فكان الطريق القويم في نظرهم أن يتفادوا الدخول مع دعاة الحق في نقاش علني يعلمون سابقًا نتيجته المروعة لهم، فلم يبق في نظرهم إلا وأد دعاة الحق مع دعوتهم ماداموا في حال ضعف قبل أن يعلو شأنهم ويعظم خطرهم، ومادام هؤلاء الطغاة مدعومين في مبادئهم الفاسدة من قوى الباطل.

وحينما اعتصم المسلمون بشعب أبي طالب لم يتركهم الكفار وشأنهم بل حاصروهم اقتصاديًّا،وضيقوا عليهم حتى انقطعت الموارد عنهم، وهذا سلاح خطير يستعمله أهل الباطل ضد أهل الحق، حيث يعملون دائمًا على إضعافهم من الناحية المالية، والحيلولة بينهم وبين الموارد التي ترفع اقتصادهم، وتمنحهم شيئًا من القوة والمنعة.

وإن بقاء المسلمين ثلاث سنوات داخل الشعب مع ذلك الحصار الشديد الذي ألجأهم إلى أكل أوراق الشجر، ورفع أصوات أبنائهم بالبكاء من الجوع، وعزلهم تمامًا عن المجتمع.. إن بقاءهم على هذا الوضع دليل على قوة إيمانهم بقضاء الله وقدره، وتجملهم بالصبر على الأذى.

هذا خبر من أسلم من بني هاشم وبني المطلب، أما بقية المسلمين من قريش فإن منهم من هاجر إلى الحبشة ومنهم من بقي في مكة، وهؤلاء وقعوا تحت حصار المشركين ورقابتهم وأذاهم كما جاء في الرواية السابقة التي رواها يونس بن بكير عن ابن إسحاق وفيها «ثم عدوا – يعني المشركين – على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم».

وإنهم بقيادة رسول الله ﷺ لأعلى مثل يمكن أن يَقتدي به كل من حوصر وسجن من المسلمين من أجل إيمانهم بالله تعالى ودعوتهم إلى سبيله.

وإنه لمما يطلب من المسلم في حال النكبات والشدائد أن يرضى بقضاء الله وقدره، وأن يصبر صبرًا جميلاً، وأن يكون مستسلمًا لله تعالى بحيث لايقوم أثناء المحنة بأي عمل مخالف للإسلام، كأن يحني رأسه للطغاة، أو يتنازل عن شيء من دعوة الحق التي يمثلها، أو أن يهبط مستواه في مخاطبة ظالميه أو من تقاعسوا عن نصرته.

ثم هو مكلف بأن يعمل جهده بالأسباب المشروعة للخروج من المحنة،وأن يَكل أمره قبل ذلك كله إلى الله تعالى، مستحضرًا عظمته وجلاله وهيمنته عليه وعلى ظالميه، وأن يكون دائمًا حسن الظن بالله تعالى عظيم الأمل بقرب الفرج، شديد الفزع من الذنوب والمخالفات التي تصرف عنه رحمة ربه جل وعلا.

فإذا فعل ذلك فإن الله سبحانه بمَنِّه وكرمه يكشف ضره وييسر لـه أمره، ويخرجه من محنته، كما أخرج نبيه ﷺ والمؤمنين معه من محنة الحصار في الشعب، وذلك بتسليط الأرضة على صحيفة المشركين، وإعلام النبي ﷺ عمه أبا طالب ليخبر المشركين فتكون آية على صدقه

ونبوته، ثم بتسخير طائفة من زعماء المشركين ليعلنوا براءتهم من تلك الصحيفة الظالمة، مما جعل المشركين ينقسمون إلى قسمين : قسم ظل معاديًا للمسلمين متربصًا بهم الدوائر، وقسم ظل معتدلاً نحوهم يحاول دفع الظلم عنهم وتأنيب الظالمين في مغامراتهم الكبيرة التي تسيء سمعة القبيلة بأسرها.

وقد كان ذلك من أهم أسباب خروج المسلمين من المحنة وعدم تكررها بنفس الحجم والمستوى.

هذا ومما يدل على أثر هذا الفريق المعتدل ما جاء في رواية الواقدي عند ابن سعد وفيها : وتلاوم رجال من قريش على ماصنعوا ببني هاشم، فيهم مطعم بن عدي، وعدي بن قيس، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري بن هشام وزهير بن أبي أمية، ولبسوا السلاح ثم خرجوا على بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، فلما رأت قريش ذلك سُقط في أيديهم، وعرفوا أن لن يسلموهم [1].

ولقد كان بعض هؤلاء وقف مع المسلمين حتى في أثناء

---

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢١٠.

حصارهم في الشعب كما سبق في رواية ابن إسحاق من خبر حكيم بن حزام وإيصاله الطعام إلى عمته خديجة رضي الله عنها، وماكان من صراع بين أبي جهل وأبي البختري بن هشام حول هذا الأمر، وقد كانت نهاية ذلك الصراع أن غلب أبو البختري في دفاعه عن المسلمين ولم يستطع أبو جهل منع حكيم بن حزام من إيصال ذلك الطعام داخل الشعب.

هذا وإن وقوف طائفة من المشركين مع المسلمين مبني على كون المسلمين جميعًا بقيادة النبي ﷺ كانوا يمتازون بمكارم الأخلاق كالصدق والوفاء والأمانة وبذل المعروف، ومن يتصف بمكارم الأخلاق يكون موضع التكريم عند العقلاء الذين يقدرون مكارم الأخلاق ومن يتصف بها، فكان العقلاء من قريش يكرهون ذلك الحصار، ولكن الكلمة الأخيرة عند وقوع الخلاف تكون غالبًا للغوغائية الميالين للبطش والانتقام.

وقد يسكت المنكرون على مضض،ويمنعهم من الإنكار الخوف من نقمة الغوغائية وتسلطهم، فلما حصلت تلك الآية الباهرة حيث أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى سلط الأرضة على صحيفة قريش وقام أبو طالب بتلك المفاوضة التي تقضي بنقض ميثاق الصحيفة إن كان كما

أخبر، أو بتسليم النبي ﷺ لهم إن كان على غير ما أخبر به، ثم كان الأمر على ما أخبر به.. لما كان ذلك ونكص زعماء الكفر على أعقابهم واتهموا النبي ﷺ بالسحر تشجع أولئك المعتدلون فأعلنوا رأيهم بالبراءة مما جاء في تلك الصحيفة.

وهكذا كان تخلُّق المسلمين بمكارم الأخلاق سببًا في انجذاب بعض زعماء المشركين إليهم والوقوف في صفهم لأنه لابد أن يوجد في كل مجتمع من يقدِّرون مكارم الأخلاق وينحازون إلى أصحابها.

ولهذا ينبغي للدعاة في كل زمن أن يجتذبوا إلى صفهم من ليسوا معهم في دعوتهم ولكنهم معهم في تمثيل مكارم الأخلاق والدفاع عن المظلومين،والنقد الهادف للطغيان ومظاهره وسائر مساوئ الأخلاق.

ولقد كان تفرق الكفار إلى حزبين مما صنعه الله تعالى لنبيه ﷺ ليكون تمهيدًا لفترة المواجهة الصعبة التي تلت موت أبي طالب حيث كان عَقَبةً تحول بين كفار مكة وتنفيذ كثير مما يعزمون عليه يوم أن كان أمرهم جميعا، فلما مات أبو طالب أصبح أفراد الحزب المعتدل يتولون التخفيف من حدة الحزب المتشدد المندفع نحو الانتقام.

وهكذا كانت مكيدة كفار مكة بذلك الحصار الاقتصادي وبالاً عليهم،حيث كان انتصار النبي ﷺ في تلك المفاوضة في أمر الصحيفة

سببًا في تفرقهم وضعفهم عن مواجهة المسلمين بالقوة لوجود فريق معتدل من الكفار يمانع من استعمال القوة ضدهم، فكان وجود هذا الفريق المعتدل تعويضًا للنبي ﷺ عما فقده من حماية عمه أبي طالب، إلى أن اجتمع أمرهم بعد ثلاث سنوات يوم أن اتفقوا في دار الندوة على قتل النبي ﷺ فأنقذه الله عز وجل وأمره بالهجرة إلى المدينة.

ولايمكن أن يُظنَّ بالنبي ﷺ وأصحابه أبدا أن ثناء بعض الكفار عليهم مترتب على تساهلهم ببعض أمور دينهم، لأن سيرة النبي ﷺ وأصحابه تأبى ذلك، وقد سبقت أمثلة تبين صلابتهم في دعوتهم، وإنما كان الدافع لأولئك الكفار المعتدلين إلى الوقوف مع المسلمين هو إعجابهم بهم في النواحي الأخلاقية.

صبر جميل وعزيمة نافذة

(وفاة الحاميين : خديجة وأبي طالب)

تقدم لنا خبر مرض أبي طالب وما كان من زعماء قريش من محاولة استمالته إلى صفهم ليتخذ موقفًا يوهن فيه من دعوة الإسلام وما كان من موقف النبي ﷺ في الثبات والحكمة في الدعوة.

وقد توفي أبو طالب في مرضه ذلك، وذلك في العام العاشر للبعثة ففقد النبي ﷺ بموته ناصرًا مخلصًا وحاميًا قويًّا.

ويشاء الله تعالى أن تموت في هذا العام نفسه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الوفية الصابرة رضي الله عنها فيجتمع على رسول الله ﷺ بموتهما مصيبتان كبيرتان، فلقد كان كل واحد منهما يقدم له جانبًا من الحماية والتأييد، كان أبو طالب يحميه من الأعادي، ويهددهم أحيانًا بخوض معامع القتال دونه إذا لزم الأمر، وكانت خديجة تحوطه بعطفها وحنانها إذا عاد إلى البيت وتَمسح من نفسه آثار الصدام والصراع الذي يجري بينه وبين المناوئين لدعوته، وتَبُثُّ له سمعة واسعة في مجتمع النساء، ببيان أخلاقه العالية ومعاملته الكريمة، وصدق دعوته وسمو أهدافه.

ولاشك أن النساء لهن تاثير كبير على الرجال، فإذا وجد الواحد

منهم في بيته من يلومه على عداوة الرسول ﷺ ويدافع عنه فإن ذلك يكسر مما في نفسه من تحديه ومحاولة إيذائه.

يقول محمد بن إسحاق رحمه الله في بيان وفاة الحاميين، خديجة وأبي طالب وماحصل على النبي ﷺ من المصائب بفقدهما :

ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب : بهُلْك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وبهُلْك عمه أبي طالب وكان لـه عضدًا وحرزًا في أمره، ومنعة وناصرًا على قومه، وذلك قبل مُهَاجَره إلى المدينة بثلاث سنين. فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابًا.

قال ابن إسحاق : فحدثني هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير، قال : لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها : لاتبكي يابنية فإن الله مانع أباك، قال: ويقول بين ذلك: مانالت مني

قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب[1] .

ولكن مع فقد رُكْنَي الحماية القويين فإن النبي ﷺ لم يضعف أمام أعدائه الذين كشَّروا له عن أنيابهم، ولم يتراجع عن دعوته قيد أنملة، بل استمر في دعوته داخل مكة وخارجها.

ولقد ركز دعوته ﷺ خارج مكة، حيث كان يبحث في قبائل العرب عن ناصر قوي يتكفل بحماية الدعوة والمؤمنين بها .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩.

مواقف وعبر في دعوة أهل الطائف

بعدما نصر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين على أعدائهم من زعماء مكة،واضطر هؤلاء الأعداء إلى فك الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضوه على المسلمين في حصار الشِّعب حصل شيء من الانفراج للدعوة حيث كسب المسلمون أنصارًا من الكفار غير بني هاشم وبني المطلب، ولكن ما أن تم ذلك حتى قدر الله تعالى وقوع مصيبتين كبيرتين على رسول الله ﷺ والمؤمنين، وهما وفاة عمه أبي طالب وخديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، وذلك في العام العاشر من البعثة، فقوي بذلك موقف الأعداء من المشركين، وبدؤوا في تدبير المكائد والتخطيط للقضاء على وجود الإسلام في مكة.

عند ذلك فكر النبي ﷺ في البحث عن قبيلة قوية تقوم بحمايته وأتباعه حتى يبلغ رسالة ربه جل وعلا، ووقع اختياره على قبيلة ثقيف في الطائف.

قال ابن إسحاق رحمه الله: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى مالم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجا أن يقبلوا منه ماجاءهم به من الله عز وجل،

فخرج إليهم وحده[(١)].

قال: فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عَمَدَ إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافُهم وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليلْ ابن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، وذكر نسبه.

ولم يذكر الثالث وهو مسعود بن عمرو كما جاء في روايات أخرى[(٢)].

قال: فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله تعالى وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم:هو يمرط[(٣)] ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك.

وقال آخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك!

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب

---

(١) يعني لم يكن في جماعة من أصحابه ولكن ثبت في روايات أخرى أنه كان معه مولاه زيد بن حارثة، (وكان ذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من البعثة – طبقات ابن سعد ١/ ٢١١) -.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤١٥.

(٣) يعني يمزق.

على الله ماينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم – فيما ذُكر لي –: إذ فعلتم مافعلتم فاكتموا عني، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فَيُذْئرهم [1] ذلك عليه، فلم يفعلوا، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه.

ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان مالقي من سفهاء أهل الطائف [2].

وقد جاء في بعض الروايات أن زيد بن حارثة كان معه، وكان يصد بعض الحجارة عنه حتى أصيب ببعض الشجاج رضي الله عنه [3].

في هذا الخبر بيان واضح لاهتمام النبي ﷺ بأمر دعوته فهو لم يقتصر على الدعوة داخل مكة وإنما خرج بها خارج حدودها.

وقد جاء في هذه الرواية أن خروج النبي ﷺ إلى الطائف كان بعد

---

(١) يعني يهيجهم.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣.

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ٢١١.

موت عمه أبي طالب واشتداد أذى الكفار عليه وعلى أتباعه، فكان يرجو بذلك أن يجد متنفسًا للدعوة فتقوى وتنتشر.

ولكن زعماء ثقيف ردوا عليه ردًّا سيئًا كما جاء في الخبر وآذَوه في بدنه حتى احتمى بأحد البساتين وكان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من زعماء المشركين في مكة.

وكون رسول الله ﷺ يتعرض لمثل هذا النوع من البلاء دليل على علو مكانته عند الله تعالى كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: « قلت يارسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه »[1].

والرسول ﷺ هو القدوة العليا لهذه الأمة، فإذا تصور الدعاة إلى الله تعالى ماأصابه من الأذى وقوة صبره وتصميمه على مواصلة الدعوة فإنه يهون عليهم مايصيبهم من الأذى والمكروه في هذه الحياة.

وكون زيد بن حارثة يقي رسول الله ﷺ بنفسه من الحجارة حتى أصيب ببعض الشجاج يدل على أنه قد بذل جهدًا كبيرًا في حماية

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، رقك: ٤٠٢٣، سنن الدارمي، كتاب الرقائق، رقم: ٢٧٨٣.

رسول الله ﷺ حيث كان يتلقى الحجارة ببدنه ولم يصل منها إلى رسول الله ﷺ إلا التي وجهوها إلى قدميه، وهذا موقف من مواقف زيد الكثيرة التي كان جُلُّها في خدمة رسول الله ﷺ وحمايته، فلا غرابة بعد ذلك في أن يكون هو وابنه أسامةُ من أحب الناس إليه ﷺ وآثرهم عنده.

وكون هؤلاء الزعماء الثلاثة يردون بهذه الردود القاسية دليل على قسوة قلوب الكفار، واعتزازهم بما يعتقدون من الباطل، وتكبرهم عن سماع الحق، ومايحدثه الكفر في قلب صاحبه من إغلاق الفكر عن النظر فيما يدعو إليه الآخرون بعقل رشيد وفكر سديد.

كما أن هذا دليل على ما يتصف به الكفار من الإسفاف في القول في تعاملهم مع دعاة الحق، وتعمد المبالغة في التحدث لتحطيم معنوية هؤلاء الدعاة، وإذا كان هذا شأن السادة الذين كانوا في الجاهلية يختارهم قومهم لكمال صفاتهم التي تؤهلهم للسيادة، فكيف يكون شأن عامة الناس في مجتمعات الجاهلية؟!

على أنه مما يجب التنويه به أن تلك القبيلة التي كانت متصلبة في الكفر حتى تأخر إسلامها بعد فتح مكة كانت بعد ذلك من أشد القبائل التزامًا بالإسلام والدفاع عنه، فقد كانوا من القلائل الذين

ثبتوا على إسلامهم وولائهم لدولة الإسلام يوم الردة، وأمدوا الجهاد الإسلامي بقادة وجنود أكفاء، ولعل تصلُّبهم في التمسك بعقيدتهم الباطلة في الجاهلية تحوَّل إلى تصلب في التمسك بعقيدة الإسلام بعدما هداهم الله تعالى.

قال ابن إسحاق في سياق هذا الخبر: فلما اطمأنَّ رسول الله ﷺ قال – فيما ذُكر لي –: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنـزل بي غضبك أو يَحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى ولا حول ولاقوة إلا بك [1].

لقد كان النبي ﷺ شديد الحزن على واقع أمته عظيم الأسى على واقع خلَّفه وراء ظهره في الطائف وواقع أليم ينتظره وهو قادم إلى مكة، ولقد أخذ به الهمُّ المتكاثف من ذلك الصدود المتواصل من قومه

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤، وذكر الهيثمي أن الطبراني ذكر هذا الدعاء في رواية له ووثق رجال هذه الرواية – مجمع الزوائد (٦/ ٣٥).

ومن القبائل التي عرض عليها الإسلام، وإنا لنلمح ذلك في هذا الدعاء المشهور الذي دعا الله به مُنْصرفه من الطائف، حيث اشتكى إلى ربه جل وعلا ضعف قوته، فهو لايملك القوة التي يجابه بها المعاندين ويزيل بها الطغاة الذين فرضوا الحجر الفكري على الناس وضيقوا مجال الاستجابة للدعوة.

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي » حيث لايستطيع الخروج بواقع الدعوة من المأزق الذي وضعها فيه أعداؤه.

« وهواني على الناس » حيث يتجرأ أعداء الله على السخرية منه والاعتداء على جسده الشريف، وإنه لعجب أن يوجد في وقت واحد من يسيل دمه ومن يتبرك بدمه، فليس على وجه الأرض من يعظمه أتباعه ويتبركون به مثله، ومع ذلك ينتهك أعداؤه من حرماته ما لايُقْدمون عليه مع خدمهم ومماليكهم.

ثم يستجدي رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء ويعلن ضعفه واضطراره إلى ربه جل وعلا الذي يملك أمره وأمر كل شيء: « يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي»، فهو سبحانه سند أوليائه المؤمنين، وتكرار ذكر ربوبية الله تعالى بالتخصيص بعد التعميم لتأكيد أمر اللجوء إلى الله جل وعلا.

ثم يسأل ربه أن يكون معه وأن لايتخلى عنه وأن لايكل أمره إلى بعيد يعبس بوجهه له ويترفع عليه كما حصل من أهل الطائف ولا إلى قريب له السيطرة والنفوذ في بلده كالملأ من أهل مكة: « إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى قريب ملَّكته أمري».

ثم يبين ﷺ أن الشيء الذي امتلك عليه لبَّه وأخذ عليه مشاعره هو أن يحوز على رضوان الله تعالى، وأن يكون بعيدًا عن سخطه وغضبه..إذا تم له ذلك فلْيُعَاده من شاء أن يعاديه من البشر، وليعملوا ماشاؤوا في أذيته والكيد له.

غير أن الجمع بين الظفر برضوان الله تعالى والتمتع بعافيته من أذى الناس هو أرفق بالعباد الذين من شأنهم الضعف والافتقار: «إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي ».

وفي هذه الفقرة يتبين عمق توحيد النبي ﷺ، ومبلغُ تجرده لله جل وعلا، فهو لم يشعر بهذا الحزن المضني والهمِّ المتواصل ليدرأ عن نفسه الأذى أو ليجلب لنفسه شيئًا من حياة الهدوء والنعيم، بل هو يستعذب كل هذا الأذى من أجل الله تعالى، غير أنه مشفق من غضب ربه سبحانه أن يكون قصَّر في أمر من أمور الدعوة من غير أن يشعر فيتعرض لشيء من غضب مولاه جل وعلا، فإذا لم يكن صدود

الناس وأذيتهم إياه بسبب تقصير حصل منه فإنه لايبالي بما حصل له من الأذى على يد أعدائه لأنه إنما يحتسب ذلك عند ربه جل وعلا.

ويؤكد النبي ﷺ رجاءه بنيل البراءة من سخط الله تعالى وغضبه بهذا التوسل العظيم والالتجاء البليغ « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تُنـزل بي غضبك، أو يَحَلَّ عليَّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ».

فرضوان الله تعالى إذًا هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ، وهو المطلوب الأعظم الذي تُسَخَّر له كل المطالب، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحل رضاه وينجلي سخطه فحيهلاً بالبلاء، وهو ساعتئذٍ نعمة ورخاء.

ثم يختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة التي يقولها وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره « ولاحول ولاقوة إلا بك » فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشدة إلى حال الرخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى، ولا قوة لـه على مواجهة الشدائد وتحمُّل المكاره إلا بالله جل وعلا.

قال ابن إسحاق رحمه الله في سياق روايته: « فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة ومالقي تحركت له رحمهما فدعوا غلاما لهما نصرانيًّا يقال

له: عداس، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكلْ منه.

ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام مايقوله أهل هذه البلاد.

فقال رسول الله ﷺ:ومن أهل أي البلاد أنت ياعداسُ ومادينك؟ قال: أنا رجل نصراني وأنا رجل من أهل نينوى[1]، فقال رسول الله ﷺ:من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى، فقال له عداس: ومايدريك مايونس بن متى؟فقال رسول الله ﷺ:ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا لـه: ويلك ياعداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: ياسيدي مافي الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر مايعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك لايصرفَنَّك عن

---

(١) هي مدينة عراقية قرب الموصل- معجم أماكن الفتوح – ص ١٠١ .

دينك فإن دينك خير من دينه [1].

هذا وإن تسمية النبي ﷺ قبل الأكل تطبيق لسنة من سنن الإسلام الظاهرة، وقد كان من بركة ذلك انجذاب رجل نصراني إلى الإسلام، فما أن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل حتى اهتز كيان ذلك المولى النصراني وجاشت مشاعره فأخبر النبي ﷺ بعجبه من ذلك حيث لايعرف أهلُ تلك البلاد ذكرَ اسم الله تعالى.

والتسمية قبل الأكل كسائر السنن الظاهرة من أسباب تميز المسلمين على من حولهم من الوثنيين، وهذا التميز يلفت أنظار الكفار ويدفعهم إلى السؤال عن سبب ذلك، ثم يقودهم ذلك إلى فهم الدين الإسلامي والانجذاب إليه، وإن لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيث جهر بتطبيق الإسلام بكل تكاليفه ولم يخف في ذلك لومة لائم، أما محاولة الاندماج في المجتمعات الوثنية والاستخفاء بمعالم الإسلام الظاهرة، فإن هذا يحصر انتشار هذا الدين، إلى جانب أنه يضعف شخصية المسلمين.

وبينما كان رسول الله ﷺ يعاني من ذلك الأذى النفسي والجسماني

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٥.

من صدود الأعداء وإهانتهم إياه إذا به يفاجأ برجل يُقبِّل رأسه ويديه وقدميه، لقد شاء الله تعالى أن يحتجب هذا النور الإلهي عن سادة ثقيف وأن يبصره مولى من الموالي كان محل الاحتقار وموئل الذلة والمهانة لدى عِلْيَتهم.

ولاشك أن عثور النبي ﷺ على رجل يحفظ له حق النبوة ويعظمه بعدما واجهه الأعداء بأشد أنواع القسوة والعنف يعدُّ مواسيًا له وباعثًا على الشعور بعدم خلو البلاد ممن يقدِّرون دعاة الحق ويحفظون لهم كرامتهم.

ولقد كان يقين عداس بنبوة رسول الله ﷺ قويّا، حيث كان في اعتقاده أنه سينتصر على أعدائه وأنه لايقف لـه أحد، يدل على ذلك موقفه من سيِّدَيه عتبة وشيبة ابني ربيعة لما أرادا الخروج إلى بدر وأمراه بالخروج معهما حيث قال لهما: قتالَ ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله ماتقوم له الجبال، فقالا: ويحك ياعداس قد سحرك بلسانه [1].

وهكذا كانت شفافية تفكير ذلك الغلام المملوك وعمق إدراكه

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٥٧٨.

لكونه على علم بالكتب السماوية، في مقابل قساوة قلوب سيديه وأمثالهما من الكفار الذين يحملون كل أثر للنبي ﷺ في قلوب الناس على السحر.

وخرج سيداه فما رجعا بل قتلا وسحبا مع من سحب من قتلى الكفار إلى قليب بدر، وكان عداس المحتقر عندهما أعلم منهما بالله تعالى وبسنَنه في خلقه، وأدرى منهما بعوامل انتصار الأمم وعوامل اندحارها[1].

وأبلغ من خبر عداس مع النبي ﷺ أن الله جل وعلا صرف نفرًا من الجن إلى رسول الله ﷺ وهو في وادي نخلة مرجعه من الطائف فسمعوا قراءته فأسلموا، كما جاء في رواية ابن إسحاق أنه قال: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة [2] قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر

---

(١) هذا الخبر والخبر السابق يدلان على أن عداسا قد أيقن بنبوة رسول الله ﷺ، ولكن هل دخل في الإسلام؟ ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمته أن سليمان التيمي ذكر في سيرته أنه قال للنبي ﷺ: « أشهد أنك عبد الله ورسوله » – الإصابة ٢ /٤٥٩ – وإن ثبت هذا فإنه لم يعلن إسلامه قطعا وإلا لحصل له الإيذاء والتعذيب كما تعرض لذلك الموالي في مكة وقد كان في مكة في العهد المكي، فربما كان من الأفراد الذين كانوا يكتمون إيمانهم.

(٢) هو واد بين مكة والطائف، قال البكري: موضع على ليلة من مكة وهي التي ينسب إليها بطن نخلة وهي التي ورد فيها الحديث ليلة الجن – معجم معالم الحجاز ٩/ ٤٢ –.

من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى وهم – فيما ذكر لي – سبعة نفر من جنِّ أهل نصيبين[1]، فاستمعوا له فلما فرغ من صلاته وَلَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ماسمعوا، فقص الله تعالى خبرهم عليه ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩ – ٣١].

وقال تبارك وتعالى﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ١] إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة[2].

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن حميد عن سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن إسحاق به وذكر مثله[3].

---

(١) نصيبين بفتح النون وكسر الباء مدينة في شمال العراق الذي كان يسمى الجزيرة وتقع على الطريق بين الموصل والشام – معجم البلدان ٥/ ٢٨٨ – وهي الآن في سوريا.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٦.

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٤.

وأخرج نحوه الإمام البيهقي من حديث الإمام الزهري مرسلاً[1].

وأخرج الإمام أحمد خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف مختصرا من حديث خالد العدواني رضي الله عنه[2].

وأخرجه الطبراني مختصرا من حديث عبد الله بن جعفر وذكر دعاء النبي ﷺ كاملاً، ذكره الهيثمي وقال: وفيه ابن إسحاق مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات[3].

وماجاء في آخر هذا الخبر من سماع الجن يعدُّ تبكيتا لقساة القلوب من الإنس الذين يتكرر عليهم سماع كلام الله تعالى ولايتأثرون به، بينما سمعه الجن مرة واحدة فأسلموا.

هذا ومن العرض السابق في رواية ابن إسحاق تبين لنا كيف عانى رسول الله ﷺ من المشاقِّ في رحلة الطائف الدعوية، إضافة إلى أن خروجه ﷺ إلى الطائف ماشيًا على قدميه ذهابًا وإيابًا يعدُّ بحد ذاته مجهودًا ضخمًا وتضحية كبيرة، حتى لو قوبل مقابلة حسنة، فكيف إذا اجتمع مع هذا الجهد الكبير والعناء البالغ سوء المقابلة والتعرض للأذى؟

---

(١) دلائل النبوة ٢/ ٤١٤.

(٢) المسند ٤/ ٣٣٥.

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٣٥.

ومما يصور هذه المعاناة ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

قال: لقد لقيت من قومك مالقيت وكان أشدَّ مالقيت منهم يوم العَقَبة إذ عرضْتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب [1]، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وماردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداني ملك الجبال، فسلَّم عليَّ ثم قال: يامحمد فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين.

فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئًا [2].

وقوله ﷺ « وكان أشدَّ مالقيت منهم يومَ العقبة » يعني أن إصابته على يد أعدائه يوم الطائف أشد من إصابته يوم أحد.

---

(١) هو قرن المنازل ميقات أهل نجد (المواهب اللدنية ١/ ٢٩٩) ويسمى الآن « السيل الكبير».

(٢) صحيح البخاري رقم ٣٢٣١، كتاب بدء الخلق (٦/ ٣١٢).

وإننا إذا نظرنا إلى الموضوع من ناحية الإصابة الجسمية فإن إصابته في أحد أبلغ، ولكننا إذا نظرنا من الناحية النفسية فإن إصابته يوم الطائف أبلغ وأشد لأن فيها إرهاقًا كبيرًا لنفسه ومعاناةً فكرية شديدة جعلته يستغرق في التفكير من الطائف إلى السيل الكبير كما جاء في الرواية، ولاشك أن المعاناة النفسية أشدُّ وأقسى من الإصابة الجسمية.

وقوله ﷺ « فانطلقت وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب» يدل على مبلغ الهمِّ الذي أخذ بفكر النبي ﷺ وهو نازل من الطائف، وإذا نظرنا إلى المسافة بين الطائف وبين قرن الثعالب نجد أنها مسافة طويلة نسبيًا خاصة وأن النبي ﷺ كان يمشي على قدميه كما جاء في رواية الطبراني [1].

فبأي شيء كان يفكر رسول الله ﷺ؟ وعلام يدل هذا الاستغراق الطويل في التفكير؟

لعل رسول الله ﷺ كان يفكر في أمر الدعوة إلى هذا الدين.

كيف مر عليه عشر سنوات ولم يستطع نشر الإسلام في مكة

---

(١) انظر إلى مجمع الزوائد ٦/ ٣٥.

بالحجم الذي يتمناه، ولم يستطع نقل الإسلام إلى القبائل الأخرى رغم ماحاول من عرض هذا الدين في المواسم!

وكيف كانت مواجهة أهل الطائف له بهذا الأسلوب من الجفاء!

وكيف سيدخل مكة وقد خرج منها وهي تغلي حقدًا عليه وتربصًا به! فهو بين عدوين: عدوّ قد خلفه وراء ظهره قد أساء معاملته ولم يسمح له بالدعوة في بلده، وعدو مقبل عليه ينتظره ليوقع به الأذى،ولقد عبر عن ذلك بقوله في دعائه المشهور « إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهَّمني أم إلى قريب ملَّكته أمري ».

هذا التفكير المتواصل يدل على أن النبي ﷺ يعيش قضيته بكل مشاعره وأحاسيسه، والذي يعيش قضيته بهذه القوة من الحماس والاهتمام لابد أن يصل إلى النجاح بتوفيق الله تعالى، وهو إن أخفق مرات فسينجح مرات أخرى، ولذلك نجد أن النبي ﷺ نجح بتسديد من الله تعالى في اجتذاب أفضل العناصر البشرية في مكة المكرمة.

وإذا كان لم ينجح هذه المرة مع أهل الطائف فقد نجح بعدها في موسم ذلك العام في اجتذاب نفر من الخزرج اعتنقوا الإسلام لما عرضه عليهم، ثم كانوا سببا في انتشار الإسلام في المدينة .

هذا وإن للمسلمين أسوةً حسنة برسول الله ﷺ في أن يجعلوا الإسلام هو قضيتهم الكبرى في الحياة، يطبقونه كما جاء من عند الله تعالى، ويدعون إليه باهتمام وحماس، ويدافعون عنه بقوة وحكمة، ويجاهدون في سبيله بجد وإخلاص.

ولقد كان رسول الله ﷺ رحيما بقومه إذ عرض عليه ملك الجبال أن يُطْبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة أبو قبيس وقعيقعان فلم يستجب لذلك على الرغم من المعاملة القاسية التي عاملوه بها، بل رجا الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله جل وعلا ولايشرك به شيئًا، وقد استجاب دعاءه فأسلم قليل منهم قبل فتح مكة وأسلم بقيتهم بعد الفتح.

كما كان رسول الله ﷺ عظيم الأمل في هداية قومه وإن قَدَّر الله تعالى أن تحقيقة بعيدُ الأجل، فهو قد رجا أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى إن كان في قدر الله تعالى أن أولئك لن يدخلوا في الإسلام، وإن هذا الأفق البعيد في الأمل يدلنا على مقدار اهتمام النبي ﷺ بدعوته حتى أصبح الأمل في هداية الناس يفوق في إحساسه الشعور بالرغبة في الانتقام من أعدائه واغتنام ذلك العرض الكبير للتشفي من قومه الذين أنزلوا به وبأتباعه صنوف الأذى وأحاطوا

دعوته بالأغلال والقيود.

هذا وقد ذكر الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ بعث «أريقطَ» إلى الأخنس بن شريق فطلب منه أن يجيره بمكة فقال: إن حليف قريش لايجير على صميمها، ثم بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره فقال: إني بني عامر بن لؤي لاتجير على بني كعب بن لؤي، فبعثه إلى المطعم ابن عدي ليجيره فقال: نعم قل له فليأت، فذهب إليه رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة – أو سبعة – مُتَقَلِّدي السيوف جميعًا، فدخلوا المسجد، وقال لرسول الله ﷺ: طف، واحَتبَوا بحمائل سيوفهم في المطاف.

فأقبل أبو سفيان إلى مطعم فقال: أمجير أو تابع؟ قال: لا بل مجير، قال: إذًا لاتُخْفَر، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه، وذهب أبو سفيان إلى مجلسه.

ثم ذكر أبياتًا لحسان بن ثابت رضي الله عنه في مدح مطعم بن عدي لهذا الموقف حيث قال:

فلو كان مجدٌ مُخْلد اليومَ واحـــــدا

من الناس نَجَّى مجدُه اليوم مطعما

أجرتَ رسول الله منهم فأصبحوا

عبادك ما لبَّى مُحلٌّ وأحرَمَا

فلو سُئلتْ عنه مَعَدٌّ بأسرها

وقحطان أو باقي بقية جرهما

لقالوا هو المُوفي بخُفْرة جاره

وذمته يوما إذا ماتجشّما

وماتطلع الشمس المنيرة فوقهم

على مثله فيهم أعزَّ وأكرما

إباءٌ إذا يأبى وألينُ شيمة

وأنومُ عن جار إذا الليل أظلما

ذكره الحافظ ابن كثير[1].

وذكر الحافظ ابن حجر أن الفاكهي أورد هذه القصة بإسناد حسن مرسل[2].

وأخرج الإمام البخاري من حديث الزهري عن محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيه « أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر: لو كان المطعم

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٣٥.

(٢) فتح الباري ٧/ ٣٢٤.

ابن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النَّتْنَى لتركتهم له»[1].

يعني لتركهم له بغير فداء مكافأة له على ذلك الموقف النبيل.

وهكذا رأينا رسول الله ﷺ - بأبي هو وأمي – يدخل مكة في جوار رجل من أشرافها وهو القادر على أن يسأل الله تعالى أن يحميه بملائكته أو بأي أمر آخر خارق للعادة.

لقد عرض عليه في هذه الرحلة ملَك الجبال ماهو أكبر من ذلك حيث عرض عليه أن يُطبق على أهل مكة جبليها، ولكن رسول الله ﷺ أبى رجاء أن يُخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله جل وعلا.

ولقد حماه الله سبحانه قبل ذلك بملائكته ولكن بدون طلب منه، ونراه يدخل مكة كما يدخل البشر العاديون فيحتاط لنفسه بطلب الجوار.

إنه ﷺ قدوة عليا لأمته، وإذا كان الله تعالى قد منَّ عليه بالعصمة والحماية فليس ذلك مما يتحقق لأفراد أمته، وهو قدوتهم في تطبيق شريعة الله تعالى، فهو لذلك يقوم بالتصرفات المطلوبة من أي مسلم عاديٍّ حيث يعمل بالأسباب الممكنة للوصول للنتائج المطلوبة، ثم

---

(١) صحيح البخاري رقم ٤٠٢٤، المغازي (فتح الباري ٧/ ٣٢٣).
والنتنى جمع نَتن أي كريه الرائحة، والمقصود الرائحة المعنوية لاتصافهم بالكفر.

يَدَع مافوق قدرته وطاقته لله تعالى.

وكونه ﷺ دخل في جوار المطعم بن عدي لايتنافى مع التوكل على الله تعالى، بل إن ذلك من الأسباب التي كان يفعلها تلافيًا لوقوع حرب بينه وبين الكفار، والله سبحانه لم يأذن له بالقتال في ذلك الوقت.

هذا وكون النبي ﷺ أقرَّ حسان بن ثابت رضي الله عنه في ثنائه البالغ على المطعم بن عدي، وكونه ﷺ أثنى عليه أيضًا إلى حدٍّ أنه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرى لو كان المطعم حيّا وكلمه فيهم.. دليل واضح على أن من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل والثناء عليهم بمالَهم من معروف وإن كانوا غير مسلمين.

وإن هذا الموقف الكريم من رسول الله ﷺ يعدُّ أكبر مشجع لعقلاء الكفار على مناصرة المسلمين وحمايتهم والدفاع عنهم.

وكم يحتاج المسلمون إلى مثل هؤلاء ليقفوا في صفهم في مثل العصر الحاضر الذي تكالب فيه الأعداء على المسلمين الصادقين في إسلامهم، وحاربوهم بالمواجهة أحيانًا، وبالمكر في الخفاء أحايين كثيرة، بينما قل وجود المناصرين لهؤلاء الصادقين حتى من إخوانهم المسلمين.

هذا ومِنْ طلب النبي ﷺ لهذه الحماية والاستفادة منها في حماية الدعوة وتثبيتها نستفيد جواز قبول حماية المعتدلين من الكفار بشرط وجود التمثيل الكامل لدعوة الإسلام من غير نقص ولا انحراف، وذلك في حال ضعف المسلمين وعدم وجود قوة لهم يستغنون بها عن حماية الكفار أما في حال وجود هذه القوة فيجب على المسلمين أن يقوموا بحماية الدعاة إلى الله تعالى حتى يتمكنوا من القيام بمهمتهم في الدعوة، وإذا نكل المسلمون عن القيام بحماية الدعاة بالدرجة الكافية أو ضعفوا عن ذلك فإنه يجوز للدعاة أن يبحثوا عن مصادر أخرى للحماية وإن كانت من الكفار المعتدلين في نظرتهم إلى الإسلام والذين يقدِّرون عادةً قيام العدل وينصبون أنفسهم للانتصار للمظلومين.

مثل أعلى للشجاعة في قول الحق

(خبر الإسراء برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس)

حينما يكون القلب معمورًا بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وممتلئًا يقينا بالحقائق الكبرى المنبثقة عن ذلك فإن هذا الإيمان لايبقى حبيسا في نفس صاحبه، بل لابد أن يظهر أمام الناس وإن قاموا بمجابهته وإنكاره، لأن الإيمان القوي يولِّد الشجاعة العالية في قول الحق والدفاع عنه، وكلما كان الإيمان أقوى كانت الشجاعة أبلغ وأوسع مجالاً.

وإن أصدق مثال على ذلك ماقام به رسول الله ﷺ صبيحة ليلة الإسراء من إعلان الإسراء به من المسجد الحرام إلى بيت المقدس.

ومن أكمل الروايات التي رويت في حادث الإسراء ما أخرجه الحافظ أبو يعلى بإسناده إلى أم هانيء رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ بغلس، فجلس، وأنا على فراشي، فقال: شَعُرْتِ أني بتُّ الليلة في المسجد الحرام [1]، فأتاني جبريل، فذهب بي إلى باب المسجد، فإذا بدابة أبيض، فوق الحمار، ودون البغل، مضطرب الأذنين، فركبت وكان يضع حافره مد بصره، إذا أخذني في هبوط طالت يداه

---

(١) يعني هل عَلْمتِ؟ أراد إخبارها بذلك.

وقصرت رجلاه، وإذا أخذني في صعود طالت رجلاه وقصرت يداه، وجبريل لايفوتني، حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فأوثقته بالحلقة التي كانت الانبياء توثق بها،فَنُشر لي رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، فصليت بهم، وكلمتهم.

وأُتيتُ بإناءين أحمر وأبيض، فشربت الأبيض، فقال لي جبريل: شربت اللبن، وتركت الخمر، لو شربت الخمر لارتدت أمتك. ثم ركبته، فأتيت المسجد الحرام وصليت به الغداة.

قالت: فعلقتُ بردائه: أنشدك الله يا ابن عمي! أن تحدِّث بهذا قريشا، فيكذبك من صدّقك. فضرب بيده على ردائه، فانتزعه من يدي، فارتفع عن بطنه فنظرت إلى عُكَنه (١)،فوق إزاره كأنها طيُّ القراطيس، فإذا نور ساطعٌ عند فؤاده، كاد يخطف بصري، فخررت ساجدةً، فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج، فقلت لجاريتي نبعة: ويحك اتبعيه، فانظري ماذا يقول، وماذا يقال له.

فلما رجعت نبعة، أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من قريش، في الحطيم، فيهم المطعم بن عدي، وعمرو بن هشام والوليد

---

(١) جمع عُكْنة وهي ما انطوى وتثَنَّى من لحم البطن.

ابن المغيرة، فقال:«إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد،وصليت به الغداة،وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس، فَنُشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى وعيسى، وصليت بهم وكلمتهم ».

فقال عمرو بن هشام كالمستهزيء به: صفهم لي، فقال: أما عيسى، ففوق الربعة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صهبة (١)، كأنه عروة بن مسعود الثقفي. وأما موسى، فضخم آدم،طوالٌ، كأنه من رجال شنوءة متراكب الأسنان، مقلص الشفة، خارج اللثة، عابس. وأما إبراهيم فو الله إنه لأشبه الناس بي، خَلْقًا، وخُلقًا.

قال: فضجوا، وأعظموا ذلك، فقال المطعم بن عدي: كل أمرك قبل اليوم كان أَمَمًا(٢) غير قولك اليوم، أما أنا، فأشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، نصعد شهرًا،ونحدر شهرًا، تزعم أنك أتيته في ليلة،واللات والعُزى لا أصدقك،وماكان الذي تقول قَطّ.

وكان للمطعم بن عدي حوض على زمزم أعطاه إياه عبد

---

(١) أي بياض بحمره.

(٢) أي قريبا.

المطلب فهدمه وأقسم باللات والعزى لايسقي قطرة أبدًا، فقال أبو بكر: يامطعم، بئس ماقلت لابن أخيك جبهته وكذبته، أنا أشهد أنه صادق.

فقالوا: يامحمد! فصف لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً» فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «باب منه كذا و في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا »، وأبو بكر يقول: صدقت، قالت نبعة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ:«يا أبا بكر! إني قد سميتك الصديق».

قالوا: يامطعم! دعنا نسأله عما هو أغنى لنا من بيت المقدس، يامحمد! أخبرنا عن عيرنا، فقال: أتيت على عير بني فلان بالروحاء[1]، قد أضلوا ناقةً لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، فأسألوهم عن ذلك« _ قالوا: هذه والإله آية – »ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبلُ، وبرك منها جمل أحمر، عليه جُوالق[2] مخطط ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا، فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية- « ثم

(١) تقع جنوب المدينة على بعد ٧٥كم- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص١٦٤.
(٢) هو العدْل الذي يوضع فيه المتاع.

انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدُمها جمل أورق [1]، وها هي ذه تطلع عليكم من الثنية [2]» فقال الوليد بن المغيرة: ساحر.

فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال، فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال [3].

وأخرجه الحافظ ابن سيد الناس من طريق الحافظ أبي يعلى وذكر مثله [4].

وأخرجه بنحوه الإمام ابن إسحاق بلاغا عن أم هانيء رضي الله عنها [5].

ورواه الإمامان أحمد ومسلم مختصرا من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه [6].

وذكره الحافظ الهيثمي مختصرا من حديث ابن عباس رضي الله

---

(١) أي لونه أبيض وفيه سواد.

(٢) أي الطريق الجبلي.

(٣) المطالب العالية للحافظ ابن حجر ٤/ ٢٠١ – ٢٠٤.

(٤) عيون الأثر ١ / ١٤٠ – ١٤٢.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ١١.

(٦) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٥١، صحيح مسلم رقم ١٦٢ ؛ كتاب الإيمان، باب الإسراء (ص١٤٥).

عنهما وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح [1].

ورواه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي [2].

وأخرج الإمام البخاري من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لما كذَّبتني قريش قمت في الحجْر فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » [3].

ولم يَرد في رواية أم هانيء السابقة ذكر المعراج ولكنه ورد في روايات أخرى أخرجها الإمام البخاري وغيره [4]،ولم أذكرها لأن المقصود هو الإشادة بالمواقف المترتبة على الإسراء، لأن النبي ﷺ أعلنه أمام الكفار متحديا إنكارهم وجحودهم لما يخبرهم به من خبر السماء، وطوى رسول الله ﷺ خبر المعراج عن المشركين لَمَّا أخبرهم بخبر

---

(١) مجمع الزاوئد ١/ ٦٤.

(٢) المستدرك ٣/ ٦٢.

(٣) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار حديث رقم ٣٨٨٦ (الفتح ٧/ ١٩٦).

(٤) انظر صحيح البخاري رقم ٣٨٨٧ ومسلم رقم ٢٥٩.

الإسراء لأنهم باعتبار أنهم لم يكونوا يصدقونه في خبر السماء مع وضوح الفرق الشاسع بين كلام الله تعالى المنـزل وكلامهم فكيف يصدقونه في خبر العروج إلى السماء، وليس هناك دلائل مشاهدة تلزمهم بالتصديق كما هو الحال في الإسراء.

أما الإسراء إلى بيت المقدس فقد أظهر الله تعالى علامات مشاهدة تلزم الكفار بالتصديق وهذه العلامات هي:

أولاً: وصف النبي ﷺ بيت المقدس، وبعضهم قد سافر إلى الشام ورأى المسجد الأقصى، وقد سبق في رواية البخاري أن الله تعالى كشف لنبيه ﷺ المسجد الأقصى حتى وصفه للمشركين، وقد أقروه بصدق الوصف ومطابقته للواقع الذي يعرفونه.

ثانيًا: إخباره عن العير التي بالروحاء، والبعير الذي أضلوه، وما قام به من شرب الماء الذي في القدح.

ثالثًا: إخباره عن العير الثانية التي نفرت فيها الإبل ووصفه الدقيق لأحد جمالهم.

رابعًا: إخباره عن العير الثالثة، ووصفه الجمل الذي يقدمها، وإخباره بأنها تطلع ذلك الوقت من ثنية التنعيم.

وقد جاء في رواية ابن عباس والرواية التي أخرجها ابن إسحاق

أن المشركين ذهبوا إلى ثنية التنعيم فوجدوا العير كما وصفها الرسول ﷺ.

وجاء في رواية ابن إسحاق أن المشركين سألوا أصحاب العير الأخرى الذين أضلوا بعيرهم وفقدوا ماءهم، فكان جوابهم كما أخبر النبي ﷺ.

فكانت هذه الأدلة الظاهرة مفحمة لهم ولايستطيعون معها أن يتهموه بالكذب.

وبعد عرض حادث الإسراء تبين لنا مثل فريد من شجاعة النبي ﷺ العالية فقد واجه المشركين بأمر تنكره عقولهم ولاتدركه في أول الأمر تصوراتهم، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم وتلقي نكيرهم واستهزائهم، فضرب بذلك لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل وإن تحزبوا ضد الحق وجندوا لحربه كل مافي وسعهم.

لقد قام سريعًا حال عودته من هذه الرحلة العلوية المباركة وأخبر بها أعداءه قبل أكثر المؤمنين به، ولم يستأن بالأمر حتى يخبر المؤمنين ويتقوى بموقفهم، بل جابه الكفار بهذا الخبر وهو يعلم ما سيترتب عليه من الإنكار والسخرية، وذلك أن من مرَّ بهذه الرحلة

العظمى سيرى الأرض كلها بما فيها من مخلوقات نقطةً صغيرة في ذلك الكون الفسيح.

ثم ما مقام كفار مكة في هذه النقطة؟ إنهم لايمثِّلون إلا جزءًا يسيرا جدًّا من هذا الكون، فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه وخصه بتلك الرحلة العلوية الميمونة وجمعه بالملائكة والأنبياء عليهم السلام وأراه السموات السبع وسدرة المنتهى والبيت المعمور وكلمه جل وعلا؟

لقد عاد النبي ﷺ بقوة عظمى لايقاومها بأس الكفار الضعيف، فكانت المواجهة والمجابهة ثم التفوق والانتصار للحق على الباطل.

ومن هنا وبصورة مصغرة جدا نتصور قوة المؤمن الحق الذي يمتلىء قلبه بالإيمان، وتُشحَن مشاعره بتصور عظمة مخلوقات الله جل وعلا من السماوات والأرض ومابينهن، وما أخبر الله تعالى به عن يوم القيامة ومافيه من أهوال ونعيم أو جحيم، ومابين الدنيا والآخرة من الحياة البرزخية، ثم مقارنة مقام المرء في هذه الحياة الدنيا بالنسبة لما بعدها من حياة الخلود ومابين ذلك.

لاشك أن من عُمرَ قلبه بهذه المشاعر سيحتقر كل مافي الدنيا من مظاهر العظمة وأسباب القوة التي ينخدع بها قصار النظر، الخاويةُ

قلوبهم من نفحات الإيمان الحية التي تهز المشاعر وتتحكم في السلوك.

قال الحافظ ابن كثير بعد ذكر روايات عديدة في الإسراء: (فائدة حسنة جليلة) روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدي قال: حدثني مالك بن أبي الرجال عن عمر بن عبد الله بن محمد بن كعب القرظي قال: «بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر.. فذكر وروده عليه وقدومه إليه، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل، ثم استدعى من بالشام من التجار فجيء بأبي سفيان بن صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده، قال في هذا السياق عن أبي سفيان: والله ما منعني من أن أقول عليه قولا أسقطه من عينه إلا أن أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علي ولا يصدقني في شيء، قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسري به، قال: فقلت: أيها الملك ألا أخبرك خبرًا تعرف أنه قد كذب؟ قال: ماهو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح، قال: وبِطْرِيقُ إيلياء عند رأس قيصر، فقال بِطْرِيقُ إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال:

فنظر إليه قيصر وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم معالجة، فغلَبَنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول جبلا، فدعوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أُتي، قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين[1] فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة، قال: فقلت لأصحابي: ما حُبس هذا الباب الليلة إلا على نبي، وقد صلى الليلة في مسجدنا، وذكر تمام الحديث[2].

وهذا خبر مهم يصدق أخبار الإسراء بأمور حسية شاهدها ذلك البطريق.

---

(١) يعني مصراعي الباب.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٦.

مثل من الالتزام بتطبيق الإسلام
(بيعة العقبة الأولى)

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي عن عبادة بن الصامت قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب: على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا، وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتُم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل: إن شاء عذب، وإن شاء غفر » (١).

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله (٢).

وقد أخرجه الإمام البخاري من طريق الليث بن سعد بهذا الإسناد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ، ثم ذكر نحوه غير أنه لم يذكر أن هذه البيعة كانت بيعة العقبة الأولى (٣).

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٦.

(٣) صحيح البخاري رقم ٣٨٩٣ (الفتح ٧/ ٢١٩).

وما ذكره ابن إسحاق من تحديد ذلك ببيعة العقبة الأولى هو الظاهر، حيث لم يذكر الجهاد في هذه البيعة وذلك قبل أن يفرض الجهاد كما جاء مصرحًا به في هذه الرواية.

وقوله: « فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض الحرب »، يعني أن رسول الله ﷺ بايع النساء بعد ذلك بهذه البيعة بأمر الله تعالى كما جاء في قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وقد بايع النساء رسول الله ﷺ بهذه البيعة بعد فتح مكة بعد نزول هذه الآية، فكون النبي ﷺ قرر هذه البيعة على الأنصار قبل الهجرة مما أمره الله تعالى به من غير أن ينزل فيه قرآن، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك.

لقد كانت هذه البيعة تأكيدًا على تطبيق الإسلام، حيث تتضمن الالتزام بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته، فلقد آمن أولئك الأنصار بالإسلام حقًّا، ولكن النبي ﷺ أراد تأكيد إيمانهم بالبيعة على العمل الصالح واجتناب العمل السيئ، حتى يكونوا من المتقين.

والمتقون هم الذين يستطيعون حمل دعوة الإسلام والجهاد في سبيلها، وذلك لأن الاتجاه نحو الدعوة والدفاع عنها من غير أن يسبق ذلك الالتزام بتقوى الله تعالى مع الاستقامة يسيء إلى دعوة الإسلام، فالمدعوُّون ينظرون أولاً إلى سلوك الدعاة وأخلاقهم فإذا عملوا بالصالحات واجتنبوا السيئات كانوا قدوة صالحة للآخرين وأصبحوا دعاة إلى الإسلام بأعمالهم وإن لم يباشروا الدعوة بأقوالهم، فكيف إذا جمعوا بين الأمرين؟

أما إذا كانوا بضد ذلك فإنهم يكونون دعاية سيئة للإسلام ولا يصلحون بسبب ذلك لحمل دعوة الإسلام، وإذا دخلوا في مجال الجهاد قبل أن يحققوا صفة التقوى في أنفسهم فإنهم لن ينجحوا في هذا المجال ؛ لأن أهم أسباب الفشل في الحروب هو انهزام المجاهدين أمام أنفسهم وذلك باتباعهم أهواءهم في معصية الله تعالى، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: « المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله » [1].

إن أفراد الجيل الأول لم ينتصروا في الميدان الحربي إلا بعد أن انتصروا على أنفسهم فحملوها على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته، وعلى ذلك رباهم رسول الله ﷺ، وما هذه البيعة إلا مثلٌ من أمثلة تلك

(١) مسند أحمد ٦/ ٢٢، جامع الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ٢ -.

التربية النبوية الناجحة.

هذا وقد نشط المشاركون في تلك البيعة في الدعوة إلى الإسلام في المدينة، ومن أمثلة هذا النشاط ما قام به رافع بن مالك بن العجلان الزرقي من حفظ ما نزل من القرآن آنذاك من النبي ﷺ، وقراءته على قومه في مسجد بني زريق الذي تم إنشاؤه قبل الهجرة النبوية.

وقد روى في ذلك الزبير بن بكار عن عمر بن حنظلة أن مسجد بني زريق أول مسجد قرئ فيه القرآن، وأن رافع بن مالك لما لقيه ﷺ بالعقبة أعطاه ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت، فقدم به رافع المدينة، ثم جمع قومه فقرأ عليهم في موضعه.

قال: وتعجب رسول الله ﷺ من اعتدال قبلته [(١)].

وهذا موقف في الدعوة يذكر لرافع بن مالك، ولاشك أن بقية أصحاب البيعة قد بذلوا جهودًا كبيرة في الدعوة إلى الإسلام، مما كان سببًا في انتشاره في المدينة بسرعة فائقة رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣١١.

فهم دقيق وإيمان عميق وتضحية خالدة
(بيعة العقبة الثانية)[1]

إن سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم كلها مواقف رائعة، وإن من أبرز هذه المواقف موقف الأنصار رضي الله عنهم حينما بايعوا رسول الله ﷺ على حمايته حتى يبلِّغ رسالة ربه، وإن كلفهم ذلك أموالهم وأنفسهم.

وقد أخرج ابن إسحاق رحمه الله خبرهم في السيرة فيما رواه عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال بعدما ذكر خروجهم من المدينة إلى مكة: « ثم خرجنا إلى الحج، فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، قال: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلةُ التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من سادتنا، أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من سادتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبًا ».

وهنا نقف قليلاً لنتأمل هذا الأسلوب البارع في الدعوة إلى الله،

---

(١) العقبة هي جمرة العقبة الكبرى ، وكانت البيعة قربها مما يلي مكة المكرمة .

ومانتج عنه من سرعة في الإجابة وقوة في التأثير، فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم حينما أرادوا دعوة عبد الله بن حرام رضي الله عنه نادوه بكنيته، والنداء بالكنية تكريم للرجل عند العرب ورفع من قدره، ثم أثنوا عليه بأنه سيِّد من ساداتهم وشريف من أشرافهم، والثناء على الرجل الكريم يُقلِّص من نفسه الأنانية والتعصب للذات، ويفتح فكره لتقَبُّل الأمور العالية وإن خالفت هوى النفس في بداية الأمر. لأن الثناء على الكريم يُشبع رغبته في النظر إلى حظ النفس من غير طغيان نحو الكبرياء ولاجنوح نحو الغَضِّ من شأن الآخرين، ثم إنهم ذكَّروه بمآله في الآخرة إذا لم يُسلم، فأشعروه بأنهم إنما أرادوا نفعه بإنقاذه من سوء المصير بعد الموت، وهذا يبعده – أيضًا- من التعصب للذات لشعوره بأنهم إنما أرادوا نفعه الخاص.

« قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا، نُسَيبة بنت كعب أمّ عمارة، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، إحدى نساء بني سَلمة وهي أم منيع ».

وهذا نوع رفيع من التخطيط المنظم والتدبير المحكم حيث

يتسلل خمسة وسبعون من بين أظهر المشركين ويجتمعون في مكان واحد من غير أن يشعر بهم أحد، ولاشك أن هاتين المرأتين اللَّتين شهدتا معهم البيعة قد بلغ الإيمان لديهما من القوة إلى الحد الذي دفعهما إلى ركوب المخاطر والمجازفة بالنفس لتشهدا مشهدًا عظيمًا طالما تاقت نفوس المؤمنين إليه، وذلك بسماع كلام من هو أعز عليهم من أنفسهم ﷺ.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحبّ أن يحضر أمرَ ابن أخيه ويتوثَّق له. فلما جلس كان أوَّلَ متكلم العباس ابن عبد المطلب، فقال: يامعشر الخزرج – قال: وكانت العرب إنما يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها – إن محمدًا منّا حيث قد علمتم،وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه،فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وماتحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فَمنَ الآن فَدَعُوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

قال: فقلنا له قد سمعنا ماقلتَ، فتكلم يارسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسولُ الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ».

وهكذا جاءت هذه البيعة مختصرة في رواية كعب بن مالك رضي الله عنه، وجاءت مبسوطة في رواية عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وذلك فيما رواه الإمام البيهقي بإسناده عن عبيد بن رفاعة قال: قَدمَتْ روايا خمر فأتاها عبادة بن الصامت فخرقها، وقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لاتأخذنا فيه لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب بما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة، فهذه بيعة رسول الله ﷺ بايعناه عليها»[1].

وفي هذا الأثر دلالة واضحة على ما لهذه البيعة من أثر عميق في نفوس أصحابها.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٥١ – ٤٥٢.

وقد يقال: لماذا يطلب النبي ﷺ الحماية من البشر وهو يعلم أن الله تعالى قادر على أن يحميه بالملائكة عليهم السلام أو بدونهم؟ فيقال:إن النبيﷺمشرِّع لأمته وهو قُدْوَتُهم في أقواله وأفعاله، فهو يسير في دعوته في السلم والحرب في حدود ما يستطيعه البشر العاديون.

وإذا كان الأنبياء عليهم السلام – على جلالة قدرهم – بحاجة إلى حماية من المؤمنين الصادقين فإن الدعاة إلى الله تعالى الذين ورثوا هذه الدعوة من رسول الله ﷺ أحوج إلى هذه الحماية.

إن الدعاة المصلحين يواجهون أهل الباطل والإفساد، وقد يتعرضون للأذى على أيديهم، فهم بحاجة ماسة إلى أن يقوم أهل التقوى بحمايتهم وتأييدهم حتى ينجحوا في مهمتهم، وقد تكون جهود هؤلاء أكبر من جهود المصلحين، لأن جهود أهل الإصلاح إنما تتم بحمايتهم، وبهم تعمر الدعوة ويثمر الإصلاح.

«قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق نبيّا لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا[1]، فبايعنا يارسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة [2] ورثناها كابرًا عن كابر».

---

(١) أي نساءنا هو جمع إزار.

(٢) الحلقة بفتح اللام وسكونها اسم للسلاح كله.

وهذا مثال عال من المواقف الإيمانية التي تتلاشى فيها المصالح الذاتية في سبيل خدمة المبدأِ السامي والدفاع عنه، فلقد تكفل هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم بحماية النبي ﷺ بما يحمون به نساءهم، وهذا أبلغ مستوى يمكن تصوره من النصرة لأن الإنسان يبذل في حماية عرضه من الطاقة مالا يبذله في حماية نفسه، ولقد صدقوا رضي الله عنهم فيما تكفلوا به، فحموا رسول الله ﷺ ومنعوه من أعدائه، وناصروا دين الإسلام بكل ما أوتوا من قوة، حتى استحقوا بجدارة لقب«الأنصار ».

« قال: فاعترض القول – والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التَّيِّهان فقال: يارسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً [1] وإنا قاطعوها – يعني اليهود - [2] فهل عسينا إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟! قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ».

وقوله « بل الدم الدم » يعني من طلب دمكم فقد طلب دمي،

(١) الحبال العهود.

(٢) يهود المدينة.

وقوله«والهدم الهدم»يعني القبر والمنـزل، والمعنى: أُقْبَر حيث تقبرون.

وهكذا كان هذا الاعتراض الوجيه من أبي الهيثم بن التيهان سببا في بروز هذا الموقف الجليل من رسول الله ﷺ حيث أعلن بهذه الكلمات القوية أن موطن المسلم ليس هو الذي ولد فيه وعاش فيه آباؤه من قبل، وإنما هو الذي يستطيع أن يعبد ربه فيه بحرية، وأن يطبق فيه الإسلام كاملاً، ومن هذا المنطلق كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

لقد كان رسول الله ﷺ يحب مكة حبا عظيما، وقد سجل هذا الحب بقوله « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليَّ وإلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ماخرجت» أخرجه الأئمة الترمذي وابن ماجه والدارمي (١).

ولكن حبه لها لايعني بقاءه فيها والطغيان يَحكُمها، ويحُول بينه وبين حرية الدعوة، وتطبيق الإسلام كاملاً، ولذلك سعى في وقت مبكر في عرض نفسه على القبائل علَّه يجد قبيلة تأخذه معها وتنصره حتى يبلغ رسالة ربه ويطبق شريعته.

---

(١) سنن ابن ماجه، المناسك رقم ٣١٠٨، جامع الترمذي، المناقب، باب ٦٨، سنن الدارمي، السير، باب ٦٦.

هذا وقد أصبح رسول الله ﷺ بهذا الموقف قدوة عليا لمن جاء بعده من الدعاة ومرُّوا بمثل هذا الوضع، ومن ذلك ما جرى بين الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود رحمهما الله، حيث وجه له محمد بن سعود أثناء البيعة والتعاقد على نصرة دعوة التوحيد هذا التساؤل نفسه، فرد عليه الشيخ بجواب رسول الله نفسه.

هذا وإننا لنلحظ في اعتراض أبي الهيثم بن التَّيِّهان نموذجا من الحرية العالية التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبر عما في نفسه بكامل حريته، مع أنه كان يخاطب رسول الله ﷺ والحال أن أبا الهيثم بن التَّيِّهان يقطع جازمًا بأن رسول الله ﷺ لن يسلك معهم إلا ما فيه خيرهم، ولكنه خشيَ أن يَبُرَّ بهذا الخير قومه وأن يقدِّمهم عليهم.

لقد كان العرب في جاهليتهم من أعظم الناس في عصرهم حرية ولكنهم مع ذلك كانوا مأسورين لإرادة كبرائهم وسادتهم، فأخرجهم الإسلام من هذا الأسر ليكونوا جميعًا عبادًا لله تعالى ولايستعبد بعضهم بعضًا.

هذا ولما تمت البيعة أراد رسول الله ﷺ أن يؤكدها باختيار

مجموعة من أولئك المبايعين يكونون قادة لقومهم يكفلونهم في الاستمرار بالعمل فيما تمت عليه البيعة والنشاط في الدعوة وتطبيق الإسلام، يقول كعب بن مالك في روايته المذكورة: « وقد كان رسول الله ﷺ قال: أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ».

وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء النقباء وأنسابهم وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع ابن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو فهؤلاء التسعة من الخزرج، ومن الأوس أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر[1].

قال ابن إسحاق: « فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى

(١) قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التَّيِّهان ولايعدون رفاعة، وذكر قصيدة لكعب بن مالك يتحدى فيها زعماء أهل مكة ويبين لهم أن الرهط الذين بايعوا لن ينقضوا بيعتهم، وذكر أسماء النقباء فذكر أباالهيثم بن التيهان ولم يذكر رفاعة بن المنذر.

ابن مريم وأنا كفيل على قومي – يعني المسلمين- قالوا:نعم».

وفي هذا النص حدد النبي ﷺ مهمة النقباء، وهي أن يكفلوا له قومهم فيما يتعلق ببنود البيعة خاصة، وبكل مايتعلق بالالتزام بالدين والدعوة إليه والجهاد في سبيله عامة.

ثم إن النبي ﷺ أعطى هذه المهمة قدرًا كبيرًا من الأهمية حينما شبه هؤلاء النقباء بالحواريين الذين كانوا مع عيسى عليه السلام، وذلك فيما إذا شعروا بأنهم حلقة في سلسلة ذهبية رافقت الأنبياء عليهم السلام، ثم زاد الأمر أهمية حينما عدَّ نفسه ﷺ كفيلا على قومه، وفي ذلك توثيق لأهمية هذا التكليف حيث يكون طرفًا آخر في المسؤولية، كما أن فيه رفعًا لمعنوية هؤلاء النقباء حيث يشاركون رسول الله ﷺ في هذا التكليف، إضافة إلى رفع ماقد يتوهمه بعض الناس من احتمال نقص الثقة بالمشاركين في تلك البيعة، فما أعظم هذا التكليف! وما أبلغ هذا التوجيه النبوي!

هذا وإن من أهم فوائد تحديد المسؤولين أن ذلك مما يكفل نجاح القضية، لأن بقاء المسؤولية عائمة وسط جمع كبير قد يجعل الأذهان كلها مفرغة من الشعور بالمسؤولية وأداء الواجب، لإمكانية شيوع التواكل بينهم، بحيث يعتمد كل واحد منهم على أن الآخرين قد

قاموا بالأمر المطلوب، فإذا تركزت المسؤولية في أفراد معروفين، فإن كل واحد منهم يشعر بمسؤوليته في حدود قبيلته أو في فرع من فروعها.

والإنسان المؤمن بموجب إيمانه وإخلاصه لابد أن يفكر في الأمور التي تكفل نجاح دعوة الإسلام، والأمور التي تكون سببًا في إخفاقها، ولكن حينما يكون مسؤولاً فإن تفكيره في هذا الموضوع يتضاعف بقدر مسؤوليته، وذلك أدعى إلى الظفر بالنجاح، والسلامة من الإخفاق.

« قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عُمَر بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاريُّ أخو بني سالم بن عوف: يامعشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم: قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبةً وأشرافُكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فهو والله – إن فعلتم – خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهَكَة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا

بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك فبسط يده فبايعوه ».

وهذا النص يهدينا إلى الهدف السامي الذي يجب أن يكون ماثلاً أمام كل مسلم وهو يقوم بأي عمل في خدمة الإسلام، ذلكم هو طلب الفوز بالجنة الذي يترتب على ابتغاء رضوان الله تعالى، وفي هذا النص دلالة واضحة على أن الصحابة رضي الله عنهم قد تجردوا لإرادة الآخرة، ولم يَعدُّوا الدنيا إلا عرضًا موصلاً للآخرة، وهذا هو سر نجاحهم في الدنيا وانتصاراتهم الباهرة.

هذا وإن مبايعتهم رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود وقتل أشرافهم ونهك أموالهم دليل على قوة إيمانهم ووعيهم لما يتطلبه الإيمان الحق بهذا الدين.

فالذي يؤمن بهذا الدين كاملاً ويعلم بأن عليه أن يطبقه كاملاً، وأن يدعو الناس إلى الإيمان به وتطبيقه لابد أن يكون في وعيه وإدراكه أن كثيرين من الناس سيعادونه ويقاومون دعوته، لأن الإسلام يقاوم في بعض تشريعاته أهواءهم، ويقضي على أحلامهم وتطلعاتهم المنحرفة، ولابد أن يكون في تخطيطه وحساباته أن هؤلاء سيتصدون لدعوته بالقوة إذا لزم الأمر، وأن عليه أن يقاوم ويجاهد

حتى تعلو كلمة الله تعالى، ويتم تطبيق الإسلام.

وهكذا فكر أولئك الصحابة رضي الله عنهم، وخططوا لما يمكن أن يكون مستقبلاً مع حداثة عهدهم بالإسلام، بينما نجد السواد الأعظم من المسلمين في هذا العصر وقد مر على كثير منهم عقود من الزمن وهم يطبقون مافهموه ووعوه من الإسلام.. نجدهم لايفكرون في جهاد الأعداء ولايحسبون حسابًا لإمكانية غزو الأعداء بلادهم، وإن من أهم أسباب ذلك أنهم ورثوا الإسلام على فهم ناقص ووعي قاصر، فظلوا حياتهم على هذا القصور في الفهم والوعي، وأصبحوا ينكرون أي دعوة تدعوهم إلى فهم الإسلام كاملاً وتطبيقه كاملاً كما جاء من عند الله تعالى، ولذلك تقلص مفهوم بعض التكاليف الشرعية في أذهانهم التي من أبرزها الجهاد في سبيل الله تعالى.

وهكذا تمت بيعة أهل المدينة بعدما فهموا مقاصد الإسلام وأدركوا مايطلبه الإسلام منهم.

وأما رأس الشر في هذا العالم الذي كُتبَ عليه أن يعاصر الشر من أوله إلى آخره في حياة بني آدم، وهو إبليس اللعين فإنه لم يكن غائبًا عن ذلك الاجتماع المبارك، ولو شاء الله لحال بينه وبين ذلك،

لكن الله جل وعلا أراد له أن يطَّلع، وأن يمتليء قلبه غيظًا وحقدًا، وأن يقوم بما قام به من الإعلان عن ذلك الاجتماع، ثم لايكون لإعلانه أي أثر في نقض شيء مما تم فيه.

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه في روايته المذكورة: « فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب– والجباجب المنازل-: هل لكم في مذمَّم والصُّباء معه[1]،قد أجمعوا على حربكم،قال:فقال رسول الله:هذا أزَبُّ العقبة، هذا ابن أزْيَب[2] أتسمع عدو الله: أما والله لأفرغن لك.

وجاء في رواية أخرجها الطبراني: « وصرخ الشيطان من رأس الجبل: يامعشر قريش هذه الخزرج والأوس تبايع محمدًا على قتالكم، ففزعوا عند ذلك وراعهم[3]،فقال رسول الله ﷺ: لايَرُعْكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس ليس يسمعه أحد ممن تخافون، وقام رسول الله ﷺ فصرخ بالشيطان: يابن أَزَبّ هذا عملك فسأفرغ لك.

---

(١) يريد بمذمَّم: محمدًا ﷺ كما كان المشركون يسمونه سخرية به، والصباء: جمع صابئ يعني المسلمين سموهم بذلك لخروجهم عن دين قومهم.

(٢) قال ابن هشام: ويقال ابن أُزَيْب.

(٣) يعني الأنصار .

ذكره الهيثمي وقال: رواه الطبراني هكذا مرسلاً وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف[(١)].

هذا وإن موقف رسول الله ﷺ في ثباته وتهديده الشيطان دليل على قوة قلبه وشجاعته، وعلمه اليقيني بضعف كيد الشيطان أمام قوة إيمان المؤمنين الموصولين بحبل الله المتين، وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر بأن الشيطان يفر من عمر كما سيأتي فكيف يقف لرسول الله ﷺ؟!

قال كعب بن مالك في هذه الرواية: « ثم قال رسول الله ﷺ: ارْفَضُّوا إلى رحالكم، قال فقال له العباس بن عبادة ابن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلَنَّ على أهل منى غدًا بأسيافنا! قال فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم، قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا ».

وهذا الإقدام الرائع والتطلع السريع للجهاد دليل يضاف إلى ما سلف ذكره على قوة إيمان أولئك الصحابة حيث تخطوا مرحلة الالتزام الخاص، والدعوة إلى الإسلام، إلى مرحلة الجهاد في سبيل الله تعالى، وبهذا التوثب نحو معالي الأمور والاستعداد المبكر لمقارعة

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٤٧.

الأعداء كان قسط كبير من نجاح هؤلاء المؤمنين في نزالهم مع الأعداء بعد ذلك.

وفي قول رسول الله ﷺ « لم نؤمر بذلك » تركيز تربوي على أمر مهمّ وهو أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكًا لاجتهاد اتباعه وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى وتشريعاته الحكيمة، فإذا شرع الجهاد فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه.

هذا وعلى الرغم من كون أولئك المسلمين من الأوس والخزرج يشكِّلون جماعة كبيرة بالنسبة لذلك الزمن فقد وصلوا إلى مضارب قومهم ولم يشعر بهم أحد، ومن غير شك أنهم تسللوا متفرقين كما جاؤوا حتى لايلفتوا الأنظار بجماعتهم.

ومما يدل على أن قومهم لم يشعروا بهم ماكان من جواب قومهم من المشركين لمشركي مكة حينما اتهموهم بالتخطيط لإخراج رسول الله ﷺ إلى المدينة والاتفاق معه على حربهم كما جاء في هذه الرواية حيث يقول كعب بن مالك: « فلما أصبحنا غَدَتْ علينا جلَّة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على

حربنا، وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث مَنْ هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ماكان من هذا شيء وما علمناه، قال: وقد صدقوا، لم يعلموه ؛ قال: وبعضنا ينظر إلى بعض.

قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدتان، قال: فقلت كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث، فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إليّ وقال: لتَنْتَعلَنَّهما، قال: يقول أبو جابر: مَهْ أَحْفَظْتَ والله الفتى [1] فاردد إليه نعليه، قال قلت: والله لا أردهما، فأل والله صالح، لئن صدق لأسلبنَّه ».

هذا وإن معرفة مشركي مكة بلقاء تم بين الرسول ﷺ ومسلمي المدينة قد يكون لأن بعضهم أحسوا ببعض الاتصالات الأخرى التي تمت بزيارة فرد أو أفراد لرسول الله ﷺ إن كان وقع شيء من ذلك، حيث لم يحدِّد المشركون مكان ولازمان هذا اللقاء الذي ارتابوا منه.

---

(١) يعني اكفف فقد أغضبته.

أما صياح الشيطان من فوق الجبل فمن المؤكد أنهم لم يسمعوه لقول رسول الله ﷺ السابق:«لايرعْكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس، ليس يسمعه أحد ممن تخافون » وهذا من دلائل نبوته ﷺ حيث أخبر بشيء لايمكن معرفته إلا بإعلام الله تعالى إياه بذلك، كما أنه مَعْلَم من معالم معية الله تعالى لأوليائه بالحماية والتأييد.

ومن الحكَم البالغة في سماع المسلمين ذلك الصوت وحجبه عن الكافرين مع أن الشيطان قد وجهه إليهم تقوية إيمان أولئك المؤمنين والربط على قلوبهم وهم يستقبلون واقعا مليئا بالابتلاءات والتضحيات.

ومما يدل على عدم سماع المشركين ذلك الصوت أن المسلمين وصلوا إلى مضارب قومهم وباتوا تلك الليلة من غير أن يشعر بهم أحد، ولو كان المشركون سمعوا ذلك الصوت لهبُّوا من نومهم وسارعوا إلى مضارب الأوس والخزرج لمعرفة حقيقة ماجرى.

وقول كعب عن نعلي الحارث بن هشام لاقيمة له بحد ذاته، ولكن قيمته في أن كعبا أراد أن يُشغل القوم بواقعة حاضرة، هي وإن كانت صغيرة إلا أنها تشغل تفكيرهم عن قراءة ماقد يظهر على وجوه بعض المؤمنين من انفعال يوحي بأن لديهم معرفة بما وَجَّه إليهم

القرشيون من اتهام، وقد انشغلوا بها فعلاً، مابين كرم فياض من ذلك القرشي وعتاب من أبي جابر عبد الله بن حرام لكعب بن مالك، فحصل ماأراده كعب من تلك المشاركة.

هذا وإن في قول كعب حينما ألقى إليه الحارث بن هشام نعليه: «فَأل صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنه » لفتة جليلة تدلنا على نموذج مما كان يدور في أفكار أولئك الصحابة الكرام، حيث ذهب فكر ذلك الصحابي حالاً إلى الجهاد في سبيل الله تعالى فقارن بين حصوله على نعلي ذلك الرجل وبين أخذ سلبه إذا قتله في المعركة، وهذا يعطينا تصورا واضحا لبروز الروح الجهادية لدى المسلمين آنذاك، والتي نجحوا بها في إقامة دولة الإسلام الكبرى.

إن نجاح كل أمة يترتب على مايدور في أفكار أفرادها بصورة ضاغطة تحُوِّل تلك الأفكار إلى قضية تشغل بالهم وتستحوذ على تفكيرهم، وبقدر ضخامة هذه القضية، وطموح أصحابها نحو السمو إلى المعالي يكون تقدم تلك الأمة، وبقدر ضآلة القضية وتقاعس أصحابها يكون تخلف تلك الأمة.

والآن بعد أن عرفنا تشكك زعماء مكة في ذلك الخبر فهل استمروا على ذلك الارتياب؟

إن آخر الرواية يفيد بأن ارتيابهم استمر وأنهم تأكدوا من الخبر ولكن بعد رحيل حجاج المدينة، يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: «ونفر الناس من منى، فتنطَّس القوم الخبر[1] فوجدوه قد كان، وخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر[2]، والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيبا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجُمَّته، وكان ذا شعر كثير.

قال سعد: فو الله إني لفي أيديهم إذ طلع عليهم نفر من قريش فيهم رجل وضيئ أبيض شعشاع حلو من الرجال، قال فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا، قال فلما دنا مني رفع يديه فلكمني لكمة شديدة، قال: فقلت في نفسي: لا والله ماعندهم بعد هذا من خير[3].

قال: فو الله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي رجل ممن كان

(١) يعني استقصوه وتحروا عنه.

(٢) أذاخر مكان بمكة يقع شرق الحجون وهو الآن حي الجعفرية- معالم مكة التاريخية والأثرية – ص ٢٢.

(٣) وهذا الرجل هو سهيل بن عمرو كما ذكر ابن إسحاق.

معهم [1] فقال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولاعهد؟ قال قلت: بلى والله لقد كنت أُجير لجبير بن مُطعم بن عدي بن نوفل ابن عبد مناف تُجَّاره، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر مابينك وبينهما، قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا، قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة، قالا: صدق والله إن كان ليجير لنا تُجَّارنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده، قال: فجاءا فخلَّصا سعدا من أيديهم فانطلق [2].

وأخرجه الإمام أحمد بنحوه [3] وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع [4].

وأخرجه الحاكم وذكر نحوه وقال: هذا حديث صحيح جامع

---

(١) وهو أبو البَخْتَرِي بن هشام كما ذكر ابن هشام.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٦ – ٦٩.

(٣) مسند أحمد ٣/ ٤٦٠ – ٤٦٢.

(٤) مجمع الزوائد ٦/ ٤٥.

لبيعة العقبة ولم يخرجاه وأقره الذهبي (1).

وأخرجه الإمام أحمد والبزار من حديث جابر رضي الله عنه وذكر نحوه، ذكره الهيثمي وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح (2).

لقد أظهر الكفار شراستهم وانتقامهم حينما ظفروا بواحد من مسلمي المدينة، ولم يخلصه منهم إلا معرفته باثنين من أشرافهم كان يحمي تجارهما إذا قدموا المدينة.

وهكذا كانت حياة المشركين في مكة حيث يتزعمهم مجموعة من الطغاة، كانوا يعدُّون أنفسهم سادة البلد، ويحترم بعضهم بعضًا غاية الاحترام، ويحفظ بعضهم حقوق بعض، ومبادئهم التي يرجعون إليها ويقدسونها تخضع لمصالحهم الشخصية، فهذا سعد بن عبادة قد قبضوا عليه بتهمة التآمر على مقدساتهم التي يعظمونها، وعذبوه من أجل ذلك، ثم أفرجوا عنه حالاً حينما تدخَّل رجلان منهم كان له معروف سابق عليهما.

وهكذا الطغاة في كل زمن يرفعون شعارات وهمية يعدُّونها مبادئ سامية، يدعون إليها بحماس، ويدافعون عنها بقوة، ويحملون

---

(1) المستدرك 2/ 624 – 625.

(2) مجمع الزوائد 6/ 46.

الناس على اعتناقها، ومن خالفهم فيها كان مصيره السجون والتعذيب والتشريد،ثم يكون هؤلاء الطغاة هم أول من ينقض أنظمة هذه المبادئ إذا خالفت منافعهم الشخصية، والحق عندهم مارأوه وقرروه ولو كان ذلك مجاملة لواحد منهم، وقد يغيرون المبادئ التي كانوا يقدسونها إذا فقدت بعض مفعولها، وينتحلون مبادئ أخرى يرون أنها تحقق لهم قدرًا أكبر من التضليل واستغلال غفلة العقول.

والحقيقة الكبرى أن مبادئ هؤلاء المقدسة إنما هي مصالحهم الخاصة، فمن أجلها يشرِّعون، ومن أجلها ينقضون ماشرعوا، ومن أجلها يوالون، ومن أجلها يعادون.

هذا وقد كان لحسان بن ثابت رضي الله عنه موقف يذكر في إسهامه بشعره الرائع في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وتبكيت المشركين، وقد قال في خبر ملاحقة المشركين للأنصار شعرًا يردُّ به على أحد شعراء المشركين، وفي ذلك يقول ابن إسحاق: وكان أول شعر قيل قبل الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بني محارب بن فهر، فقال:

تـداركتُ سعدا عنوةً فأخــذته ... وكان شفاءً لـو تداركت منذرا

ولو نلته طُلَّتْ [1] هناك جراحه وكـــان حـريًّا أن يُهان ويهدرا

وينبغي أن يُعلم بأن ضرارًا أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه.

وقد ذكر ابن إسحاق أن حسان بن ثابت رضي الله عنه أجابه بأبيات منها:

ولستَ إلى سعد ولا المرء منذر إذا مامطايا القوم أصبحن ضُمَّرا [2]

فـلا تك كالوسنان يحلم أنـــه بـقرية كســـرى أو بقرية قيصرا

فإنا ومن يُهدي القصائد نحونا كَمُسْتَبْضع تمـرا إلى أرض خيبرا [3]

---

(١) أي أهدرت.

(٢) جمع ضامر،والضامر من الخيل والإبل الخفيف اللحم من التدريب والعمل لامن الهزال.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٩ – ٧٠

الهجرة إلى المدينة النبوية

لقد كان العهد المكي منذ أن أعلن رسول الله ﷺ دعوته حافلا بصنوف الأذى لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من المشركين الذين كانوا يسيطرون على مكة المكرمة كما تقدم ذكر أمثلة لذلك، ولقد كان موقف الرسول ﷺ وأصحابه إزاء ذلك هو الصبر الجميل وانتظار الفرج من الله تعالى، ولقد حصل نوع من الفرج لبعض الصحابة بالهجرة إلى الحبشة، ولكن تلك الهجرة لم تكن شاملة لجميع المسلمين، كما أنه لم يُقصد منها إقامة دولة الإسلام في تلك البلاد.

ولما أن بلغت الدعوة في مكة نهايتها واستنفدت مقاصدها أذن الله تعالى لرسوله ﷺ وللمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة بعد أن انتشر الإسلام فيها وأصبح المسلمون من أهلها هم أصحاب القوة والغلبة.

ولقد أخبر النبي ﷺ المسلمين بدار هجرتهم التي قدرها الله تعالى لهم، ومما جاء في ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة: يثرب »[1].

---

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار باب ٤٥(٧/ ٢٢٦).

وجاء في حديث آخر أخرجه الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: فقال النبي ﷺ للمسلمين: «إني أُريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان. فهاجر من هاجر قبَلَ المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: على رِسْلك، فإني أرجو أن يُؤْذن لي. فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليَصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر – وهو الخَبَط – أربعة أشهر»[1].

ولقد وجه النبي ﷺ أصحابه إلى الهجرة وأمرهم بها.

أخرج ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمر الواقدي قال: حدثني معمر بن راشد عن الزهري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالا: لما صدر السبعون[2] من عند رسول الله ﷺ، طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقومًا أهل حرب وعُدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ونالوا منهم

(١) صحيح البخاري رقم ٣٩٠٥ (٧/ ٢٣١).

(٢) يعني الذين بايعوه بيعة العقبة الثانية.

مالم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال: قد أريت دار هجرتكم، أُريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي.

ثم مكث أيامًا ثم خرج إلى أصحابه مسرورًا فقال: قد أُخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها، فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت حثمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة.

ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً [1] فنزلوا على الأنصار في دورهم، فآووهم ونصروهم وآسوهم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يَؤُمُّ المهاجرين بقباء[2] قبل أن يقدم رسول الله ﷺ، فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة كَلبتْ قريش عليهم وحَربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم.

(١) أي متتابعين جماعة بعد جماعة.

(٢) حي قباء يقع جنوب المسجد النبوي ، وفيه مسجد قباء المشهور .

وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ، في العقبة الآخرة ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة فهم مهاجرون أنصاريون، وهم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد.

وخرج المسلمون جميعًا إلى المدينة، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعلي، أو مفتون محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج [1].

وأخرج محمد بن إسحاق هذا الخبر مختصرًا [2].

ولقد كانت الهجرة صعبة على المسلمين الذين ولدوا ونشؤوا بمكة ولكنهم هاجروا منها استجابة لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وقد رُويت أشعار وأقوال تدل على صعوبة مفارقة الوطن على المهاجرين، ومن ذلك قول بلال رضي الله عنه:

ألا ليت شعري هــل أبيتنَّ ليلة ... بــوادٍ وحـــولي إذخـر وجَليل

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٦.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨.

وهــل أَرِدَنْ يــــومًا مياه مجَنَّة　　وهـل يبدوَنْ لي شامة وطفيل[1]

ومما جاء من الأشعار التي تصور مشاعر المسلمين حول الهجرة قول أبي أحمد بن جحش رضي الله عنه:

ولـمـا رأتنـــي أم أحمد غـاديـًا　　بذمة من أخشى بغَيْب وأرهبُ
تقـول: فإمَّا كنت لابـــد فاعلا　　فيمِّم بنا البلـــدان ولتُنْأ يـثرب
فقلت لها: بـل يثرب اليوم وجهنا　　ومايشإ الـــرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول،ومن يُقم　　إلى الله يــــومـا وجهه لايُخيَّب
فكم قد تركنا مــن حميم مناصح　　وناصحــة تبكي بـدمع وتندب
تــرى أن وترًا نأيُنا عـــن بلادنا　　ونحن نرى أن الرغائب نطلب[2]

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٩٢٦.
والإذخر والجليل نوعان من النبات، ومجنة مكان على بعد أميال من مكة وبه السوق المشهور، وشامة وطفيل جبلان بمكة (الفتح ٧/ ٢٦٣).
(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٤.

هجرة أبي سلمة
ومثل من الصبر الجميل

قال ابن إسحاق: فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين، من قريش، من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه عبد الله، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، كان قَدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجرًا.

قال ابن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة، زوج النبي ﷺ قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحَّل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتَنَا عليها، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت: فنـزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة،

فقالوا: لا والله لانترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: فَفُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي، حتى أُمسي سنةً أو قريبًا منها، حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى مابي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة ! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يابنت أبي أمية ؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أو مامعك أحد ؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبُنيّ هذا.

قال: والله مالك من مَتْرَك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي

يَهْوي بي فو الله ماصحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنـزل أناخ بي، ثم أستأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى الشجرة،فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينـزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية – وكان أبو سلمة نازلا فيها – فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة [(1)].

في هذا الخبر مثل من قساوة المشركين وفظاظتهم، حيث لايردَعُهم عن الظلم رادع إلا خوف محاسبة الناس في الدنيا

(1) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨ – ٩١ ؛ وعثمان بن طلحة هو العبدري حاجب البيت، أسلم بعد الحديبية وهاجر مع خالد بن الوليد، وشهد الفتح مع النبي ﷺ فأعطاه مفتاح الكعبة – الإصابة ٢/ ٤٥٢ رقم ٥٤٤٢ –.

وانتقامهم، وقد أمنوا حساب الدنيا في معاملتهم لهذه المرأة المسكينة، وهم لايؤمنون بحساب الآخرة الذي لايفرق بين قوي وضعيف وشريف ووضيع لأنهم لايُؤمنون بالآخرة.

وأخيرًا أدركت الرحمة أحد أقارب أم سلمة رضي الله عنها فطالب بإنصافها بدافع من القرابة، ونجت من يد الأعداء ولكن كيف لها أن تسافر ذلك السفر الطويل وحدها ؟ وهنا يقيض الله تعالى لها عثمان بن طلحة العبدري رضي الله عنه الذي أبت شهامته أن يتركها تسافر وحدها فصحبها طول الطريق وقام بشؤونها خير قيام.

وإن ظهور هذا السيد الشهم لها واستعداده للسفر معها وهي على أبواب مغادرة مكة دليل واضح على عناية الله تعالى بأوليائه وتسخيره لهم، فهو جل وعلا الذي سخر قلب ذلك الرجل للعناية بها وبَذْل الجهد والوقت من أجلها.

ومما ينبغي أن يلاحظ أن عثمان بن طلحة لم يكن آنذاك مسلما، ومع ذلك قدَّم هذه الخدمة الجليلة لامرأة كانت على دين أعدائه، وهذا مثل مما كان العرب يتصفون به من مكارم الأخلاق، وخاصة قبيلة قريش التي اختار الله جل وعلا نبيه ﷺ منها.

مثل من فطنة عمر وإيثار إخوانه

(هجرة عمر وخبره مع عياش بن أبي ربيعة)

قال ابن إسحاق: « ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي حتى قدما المدينة، فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر ابن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتَّعدت، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي ربيعة،وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضبَ من أضاة بني غفار [1] فوق سَرف [2] وقلنا:أينا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه قال: فأصبحت أنا وعياش ابن أبي ربيعة على التناضب، وحُبس عنا هشام، وفُتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء،وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لايمس رأسها مشط حتى تراك

---

(١) التناضب بكسر الضاد نوع من الشجر تألفه الحرباء، والأضاة: الغدير، وأضاة بني غفار على عشرة أميال من مكة – الروض الأنف للسهيلي ٤/ ١٨٩ – ١٩٠ –.

(٢) بفتح السين وكسر الراء هو واد قرب مكة على طريق المدينة، وقد قام العمران حوله حاليا.

ولاتستظل من شمس حتى تراك فرقًّ لها ».

وهكذا ندرك كيف يبذل دعاة الضلالة من وقتهم وجهدهم وأموالهم في سبيل نصرة باطلهم ومحاولة إخماد دعوة الحق، حيث خرج أبو جهل وأخوه من مكة إلى المدينة وتحملا عناء السفر من أجل محاولة فتنة فرد واحد عن دينه، أفلا يتحمل المسلمون مثل هذا الجهد أو أفضل منه من أجل دعوة الناس إلى الرشد واتباع الحق ؟!

ولقد حاول أبو جهل أن يدخل على عياش من الجانب المؤثر عليه، حيث ذكر وضع أمه ليكسب موافقته على العودة، وهو يعلم أن عياشًا من أهل البر والصلة، وهذا مشهد يبين لنا صورة من مخططات أعداء الإسلام التي يحاولون بها صرف المسلمين عن التمسك بدينهم.

« قال عمر رضي الله عنه في سياق روايته: فقلت له: ياعياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم فو الله لو قد آذى أمَّك القمل لامتشطت،ولو قد اشتد عليها حَرُّ مكة لاستظلت».

وهكذا كان عمر رضي الله عنه فطنًا مدركًا لمكائد الكفار، فقد تَفَرَّس في وجوه القوم فعرف فيهم الغدر والمكيدة مع ما اشتهر عن أبي جهل قبل ذلك من عداء المسلمين.

وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون حذرًا من الكفار وإن أظهروا النوايا الحسنة، وأن يغلِّب جانب إساءة الظن بهم وأن لايضع ثقته بهم، لأن الأصل فيهم أنهم لايراعون في مسلم عهدًا ولاذمة لشدة حقدهم على الإسلام والمسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ١٠] أي لايراعون حرمة القرابة ولا الجوار ولا العهد.

« قال: فقال – يعني عياش –: أبرُّ قسم أمي ولي هناك مال فآخذه ».

وهكذا استطاع عدو الإسلام أبو جهل أن يخدع عياشا وأن يستميله للموافقة على العودة إلى مكة.

« قال – أي عمر –: فقلت: والله إنك لتعلم أني لَمَنْ أكثر قريش مالاً فلك نصف مالي ولاتذهب معهما، قال فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلاّ ذلك قال: قلت له: أما إذ قد فعلت مافعلت فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول. فالزم ظهرها. فإن رابك من القوم ريب فانج عليها ».

وهذه تضحية كبيرة من عمر حيث تنازل لعياش عن نصف

ماله وهو صاحب المال الكثير في مقابل حمايته من الفتنة في الدين، وإنَّ بذل المال في سبل الخير دليل على قوة الإيمان ووضوح الهدف الإسلامي العالي، ألاَ وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة، وذلك لأن المال من أعز المحبوبات لدى الإنسان فإذا جاد به من أجل الله تعالى فهو من أهل الإيمان الراسخ.

« قال عمر: فخرج عليها – يعني على ناقة عمر – معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا ابن أخي والله لقد استغلظ عليَّ بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عَدَوَا عليه فأوثقاه رباطًا، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا مكة دخلا به نهارًا موثقًا ثم قالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا ».

وهكذا تحقق ظن عمر بأبي جهل وأمثاله، ووقع عياش في مكائد المشركين لأنه وضع ثقته بهم ولم يغلِّب جانب الحذر منهم، وفي ذلك عبرة للمسلمين حتى لايأمنوا الكفار وإن أظهروا لهم المودة وقدَّموا لهم المعونة فإن ذلك نوع من الطُّعم الذي يصطادون به

المسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨].

وفي المشهد المؤلم الذي دخل فيه عياش مكة موثقًا، ووصفه بالسفاهة إمعان من أبي جهل في إذلال المسلمين وتحطيم معنوياتهم، فكيف يثق المسلمون بالكفار وهم لايريدون بهم إلا الشر.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أخا أبي جهل الحارث بن هشام قد أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه وكان له في الجهاد بلاء كبير .

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع، عن عبد الله بن عمر، عن عمر في حديث قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفًا ولا عدلاً (١) ولاتوبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لِبَلاءِ أصابهم ! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿ ۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن

(١) الصرف: التوبة وقيل النافلة، والعدل: الفدية وقيل الفريضة. ذكره ابن الأثير في النهاية، فيكون ذكر التوبة على القول الأول من باب عطف التفسير.

يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الزمر:٥٣-٥٥][1].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاصي، قال: فقال هشام بن العاص: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طُوَى[2] أصعِّد بها فيه وأصوِّب ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهِّمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة[3].

وذكر الحافظ الهيثمي نحو هذا الخبر، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات[4].

وقال الحافظ ابن حجر: وأخرج ابن السَّكَن بسند صحيح عن

---

(١) أخرج هذا الجزء من الخبر الحاكم وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي ٢/ ٤٣٥.

(٢) هو المكان الذي بين الحجون وريع الكحل بمكة وفيه الآن عدد من الأحياء السكنية- معالم مكة التاريخية والأثرية – ص ١٦٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٥ – ٩٨.

(٤) مجمع الزوائد ٦/ ٦١.

ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر. ثم ذكر أول الخبر[1].

وهكذا كانوا يظنون أن مَنْ فَتَنَه الكفار فافتتن ورضي بالعيش معهم أن الله تعالى لايقبل منه توبة حتى نزلت هذه الآيات ففرح بها عمر رضي الله عنه،وقد كان في همٍّ وأسف على إخوانه الذين استجابوا لفتنة الكفار فبادر بكتابة هذه الآيات إلى هشام بن العاص.

وقد كان هشام وأمثاله في حالة يأس وقنوط من رحمة الله تعالى لظنهم بأن من كان في مثل حالهم لاتوبة له، فلما أخذ الصحيفة التي كتبها عمر وقرأ الآيات أصبح في حيرة من أمره إذ أنه لم يكن يتصور أن رحمة الله تعالى تتسع لأمثاله، فسأل الله تعالى أن يفهمه المقصود من الآية – وإن كان يفهم معناها – فألهمه الله سبحانه أنه وأمثاله هم المقصودون بها فتاب إلى الله تعالى وعزم على الهجرة.

---

(١) الإصابة ٣/ ٥٧٢ رقم ٨٩٦٧.

مثل عظيم من الإيثار والتوكل على الله تعالى

بعد أن أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة ورغَّبهم فيها سارعوا إلى ذلك حتى لم يبق من القادرين على الهجرة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما.

وفي ذلك يقول محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى: وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فُتن إلا عليَّ ابن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: لاتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا، فيطمع أبو بكر أن يكونه [(١)].

لقد حبب رسول الله ﷺ الهجرة للمسلمين وحثهم عليها، ولم يعدَّها مجرد رخصة للخروج من أذى المشركين وحصارهم، بل عدَّها عملاً صالحًا يثاب عليه فاعله ثوابًا جزيلاً، فتسابق المسلمون لهذا العمل الصالح وخرجوا جماعات جماعات بتسلُّل واختفاء من المشركين حتى لايحبسوهم وتركوا ما لايستطيعون حمله من أموالهم التي استولى عليها المشركون بعد ذلك.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢.

لقد خرج المهاجرون من وطنهم الذي كانوا يعيشون فيه برغد وسعة إلى ضيق من العيش وضيق من السكن في المدينة طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، ليتكوَّن بهم وبالأنصار المجتمع الأول المتكافل الذي قامت به دولة الإسلام بعد هجرة الرسول ﷺ.

ولقد كان عجيبًا أن يخرج المسلمون من مكة جميعًا، ولايبقى فيها من غير المحبوسين والمفتونين غير أبي بكر وعلي بن أبي طالب اللَّذَين بقيا مع رسول الله ﷺ بأمر منه.

وإنه لموقف عظيم من رسول الله ﷺ أن أفرد نفسه من جنوده المخلصين له الذين يفدونه بأرواحهم وهو القائد المستهدف من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ليقتلوه أو يحبسوه، ولكنه القائد العظيم الذي يكون في ساقة جنوده حتى يحرزهم، ثم هو من عظمة توكله على ربه جل وعلا موقن بأنه سبحانه معه بنصره وتأييده ولن يسلمه لأعدائه.

ولقد كان بقاء رسول الله ﷺ في مكة حماية للمؤمنين، فلو أنه هاجر لقضى المشركون على من بقي معلنًا إسلامه من المستضعفين، ولعل بقاءه سهَّل هجرة المؤمنين لِمَا كان المشركون يخططون له من قتله، فلم يعرقلوا هجرة أصحابه ليتم ما ارادوا من الكيد به، وما

حصل من الحبس لبعضهم كعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص كان من أقاربهم المتصلبين في الكفر فلم يشمل ذلك جميع المسلمين.

ولاشك أن هجرة عمر وحمزة وأمثالهما مما يسهل على المشركين تنفيذ مؤامرتهم على رسول الله ﷺ، ولقد تم كل ذلك بأمر الله تعالى وتوجيهه ليتم ما أراده جل وعلا من هذه الهجرة المباركة التي كانت فتحًا عظيمًا للإسلام والمسلمين.

الهجرة النبوية

وبعد أن أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة ولم يبق في مكة من القادرين على الهجرة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب كَبُر ذلك على المشركين ورأوا أن خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة يُعدُّ خطرًا كبيرًا على أمْنهم، فاجتمع زعماؤهم في دار الندوة[1] واتخذوا بعد المشاورة أسوأ وأخطر قرار اتفقوا عليه وهو الإقدام على قتل النبي ﷺ.

١ – قال محمد بن إسحاق رحمه الله: ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم مَنَعَة، فَحذرُوا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة – وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لاتقضي أمرًا إلا فيها – يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه[2].

ثم ذكر فيما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما ما تم بينهم من

---

(١) هي الدار التي بناها قصي بن كلاب، وكان أهل مكة يجتمعون فيها للمشاورة، وقد دخلت في توسعة الحرم في عهد الدولة العباسية – معجم معالم الجغرافية في السيرة النبوية – ص ٣١٨.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢.

مشاورة ومداولة، حيث رأى بعضهم أن يحبسوه في الحديد حتى يموت، ورأى بعضهم أن يخرجوه من بلادهم ورأى بعضهم أن يقتلوه وأن يتولى قتله شباب من قريش حتى يتفرق دمه في القبائل وكان هذا رأي أبي جهل، وقد استقر رأيهم على ذلك [1].

وهكذا عقد زعماء قريش ذلك المجلس الخطير في دار الندوة وخرجوا منه بنشوة الماكرين وفرحة الآثمين، وهم يظنون لجهلهم ونظرهم القاصر أنهم قد أصابوا من الإسلام موجعا، وأضافوا إلى ماورثوه من مهازل الجاهلية رفعة وعلوا.

إن ما عمله زعماء مكة من التخطيط الأثيم لقتل النبي ﷺ وهو أعزل من جنوده، خوفًا من أن يهاجر فيقيم دولة ويثيرها حربا عليهم.. إن ذلك دليل على اتصافهم بالجبن والبعد عن الحياة الحربية التي يعتز بها العرب المعاصرون لهم.

لقد كان مما يعتز به العرب إنشاء الحروب فيما بينهم، وأشعارهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٣ – ١٠٥، تاريخ الطبري ٢/ ٣٧٠ – ٣٧٢.
وقد جاء في رواية ابن هشام عن زياد البكائي قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح، وجاء في وراية الطبري عن سلمة بن الفضل الأبرش قال: حدثني محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، وهذا يعني أن ابن إسحاق رواه مرة عن ابن أبي نجيح بواسطة. فحدث بذلك زيادًا البكائي، ورواه عنه مرة أخرى بدون واسطة فحدث به سلمة بن الفضل فهو بهذا محمول على الاتصال.

طافحة بالحماسة والاعتزاز بالشجاعة والافتخار بخوض المعارك، فما بال جبابرة مكة آنذاك يصولون ويجولون على العزَّل من السلاح، الداعين إلى السعادة والصلاح!

ومابالهم لما لاحت لهم بوارق الحرب التي سيثيرها عليهم رسول الله ﷺ حاولوا كتم أنفاسه قبل أن يثيرها !

إنهم لايفعلون ذلك بدافع من محاولة الإصلاح، بل يفعلونه لكبْت دعوة الإصلاح العظمى،وكَتْم صوت المصلح الأكبر والداعية الأعظم ﷺ.

وقد ذكر الله سبحانه هذه الآراء الثلاثة بقوله: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله تعالى ﴿لِيُثۡبِتُوكَ ﴾ أي ليحبسوك.

٢ – ماأخرجه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قول الله عز وجل ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ ﴾ قال تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ،وقال بعضهم بل اقتلوه،وقال بعضهم بل أخرجوه،

فأَطلَع الله عز وجل نبيه على ذلك، فبات عليٌّ رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ تلك الليلة.

وخرج رسول الله ﷺ، حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا ؟ قال: لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا نسج العنكبوت على بابه، فبات فيه ثلاث ليال.

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أحمد والطبراني وفيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح[1].

وذكره الحافظ ابن كثير وقال: وهذا إسناد حسن وهو من أجود مارُوي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ[2].

وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر[3]،وكذلك حسَّنه الزرقاني[1].

---

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٢٧.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٧٩.

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٣٦.

وقوله: « فأطْلَع الله عز وجل نبيه على ذلك » يعني على مؤامرة قريش ضده، وجاء في رواية ابن إسحاق: « فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: لاتَبتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه » [٢].

وهكذا كان الله تعالى مع نبيه ﷺ بنصره وحمايته، ومن هنا نعلم أن المعركة بين الحق والباطل ليست معركة أرضية فقط لأن الحق موصول بالسماء، وجنود الحق مؤيدون من الله تعالى.

ولئن كان رسول الله ﷺ مؤيدًا من الله تعالى بجبريل عليه السلام الذي يخبره بما يدبر له أعداؤه ويوجهه إلى خطة العمل المضاد لذلك، فإن جنود الحق من أتباع رسول الله ﷺ مؤيدون من الله تعالى بأنواع من النصر قد تظهر تكريمًا من الله تعالى لأوليائه وقد لاتظهر، وقد أيد الله نبيه ﷺ وأصحابه بالكثير من ذلك كما سيتبين لنا في مواقف أخرى بإذن الله تعالى، وذلك تفسير واقعي لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٧]، فنصر الله تعالى

---

(١) شرح المواهب ١/ ٣٢٣.

(٢) تابع لرقم (١).

يكتب لكل من ناصر هذا الدين.

وبهذا التدبير الإلهي أحبط الله مؤامراتهم وأبطل مكرهم كما بين ذلك بقوله: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

٣- أخرج الإمام البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعًا - في ساعة لم يكن يأتينا فيها - فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذنَ، فأذنَ له، فدخل. فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أَخْرجْ مَنْ عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنتَ يارسول الله، قال: فإني قد أُذنَ لي في الخروج. فقال أبو بكر: الصِّحابة بأبي أنت يارسول الله. قال رسول الله ﷺ: نعم. قال أبو بكر: فخُذ بأبي أنت يارسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين. قال رسول الله ﷺ: بالثمن.

قالت عائشة: فجَّهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سُفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على

فم الجراب، فبذلك سُمِّيت ذات النطاق.

وأخرجه ابن إسحاق من حديث عائشة رضي الله عنها وفيه أن اليوم الذي جاء فيه رسول الله ﷺ هو اليوم الذي أذن له بالخروج فيه من مكة.

وعلى هذا فإن النبي ﷺ جاء لإخبار أبي بكر بذلك وللاتفاق معه على كيفية الخروج ليلاً.

وجاء فيه أن أبا بكر بكى من الفرح بصحبة النبي ﷺ، وتقول عائشة: فو الله ماشعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ [1].

لقد جاء النبي ﷺ إلى بيت أبي بكر مستخفيا قد قَنَّع وجهه حتى لايراه المشركون، واختار وقت الظهيرة لأن الناس لايخرجون من بيوتهم من شدة الحر، فهو قد دخل في معركة غير متكافئة إطلاقا حيث يمثلها النبي ﷺ وحده من جانب ويمثلها الكفار بعددهم وعُددهم من الجانب الآخر،فهو مضطر إلى الاستخفاء وتدبير الخطط التي تضمن خروجه من بين ظهرانيهم بسلام، وهذا هو النجاح في

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٨.

تلك المعركة الذي يخشاه المشركون.

وأبو بكر رضي الله عنه يبكي من الفرح بصحبة النبي ﷺ في تلك الرحلة الجهادية المحفوفة بالمخاطر من أول قدم فيها إلى نهايته .

أَوَلَيْسَ رسول الله ﷺ وصاحبه يتحديان بذلك الخروج إرادة جميع زعماء مكة وجنودهم المسخرين لهم ؟! فما الذي يحمل أبابكر على الفرح بالصحبة في تلك الرحلة الشاقة الخطرة ؟!

إنه الإيمان القوي بالإسلام، ومادام وجود هذا الدين وقيامه مترتبا على سلامة النبي ﷺ وتمكنه من الدعوة فلمَ لايستسهل أبو بكر كل صعب من أجل حماية النبي ﷺ ؟ولمَ لايبكي فرحا بصحبته والفوز بخدمته والدفاع عنه؟!

وقوله في رواية ابن عباس: « فبات عليٌّ على فراش رسول الله ﷺ»[1]كان ذلك بأمر من رسول الله ﷺكما جاء في رواية ابن إسحاق:«فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي:نَمْ على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه فإنه لايخلص إليك شيء تكرهه منهم »[2].

(١) الحديث رقم (٢).

(٢) تابع الحديث رقم (١).

وهذا جزء من تدبير الله تعالى لرسوله ﷺ، حيث علم أن قيام علي بن أبي طالب بذلك الدور لن يؤدي إلى قتله.

ومع الثقة والطمأنينة التي حصلت لعلي رضي الله عنه بوعد النبي ﷺ فإن بياته في ذلك المكان الخطر الذي كان هدفاً لعدد كبير من المشركين قد تجمعوا وراء الباب يعدُّ شجاعة فذة وجسارة عظيمة، ولعل هذه أول تجربة كبيرة لقوة قلبه ورباطة جأشه، وقد سجل له التاريخ بعد ذلك مواقف عالية في الشجاعة والإقدام.

وقول رسول الله ﷺ حينما عرض عليه أبوبكر إحدى الناقتين: «بالثمن »[1] بيان لاهتمام النبي ﷺ بالعمل الصالح فهو يريد أن تكون هجرته من ماله ليكسب العمل الصالح في الجهد البدني والمالي، وإلا فإنه يعلم أن أبابكر لايهمه المال بقليل ولابكثير وأنه قد أعد تلك الراحلة عن طيب نفس.

وهذا مثل من أمثلة كون النبي ﷺ القدوة العظمى لهذه الأمة، فينبغي للمسلم أن ينافس إخوانه على العمل الصالح، وأن لاتستريح نفسه لكون غيره يبذل عنه المال فيما إذا كان بذل المال عملاً صالحًا.

---

(١) حديث رقم (٣).

وجاء في سياق حديث عائشة رضي الله عنها السابق قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور[1]، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقفٌ لَقنٌ، فَيدَّلج من عندهما بسحر [2]،فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يُكتادان به إلا وَعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رِسْل - وهو لَبنُ منحتهما ورَضيفهما[3]-حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

وفي هذا الخبر فضائل أخرى لأبي بكر رضي الله عنه، منها أنه كلف ابنه عبد الله بأن يسمع ما يقوله المشركون وما يخططونه نهاراً ثم يأتيهما ليلاً فيزودهما بالأخبار.

ومنها أنه كلف مولاه عامر بن فهيرة بأن يأتي بغنم أبي بكر ليلاً

(١) هو جبل يقع جنوب مكة المكرمة وفيه غار ثور المشهور .

(٢) يقال: أدلج بالتخفيف إذا سار من أول الليل، وادَّلج بالتشديد إذا سار من آخره، والاسم منهما الدُّلْجَة.

(٣) الرسل بكسر الراء اللبن الخفيف، والرضيف بفتح الراء وكسر الضاد اللبن الغليظ وكانوا يضعون فيه الحجارة المحماة لينعقد، والمنحة الشاة (فتح الباري ٧/ ٢٣٧).

فيتزود هو ورسول الله ﷺ من حليبها ، وتلك من فضائل أبي بكر رضي الله عنه الذي جنَّد في تلك الرحلة نفسه وأهله وماله في سبيل الله تعالى.

إلى أن قالت: واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجُلاً من بني الدِّيل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خرِّيتا - والخرِّيت الماهر بالهداية - قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش،فأمِناه،فدفعا إليه راحلتيهما،وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث،وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل،فأخذ بهم طريق الساحل[1]. وهذا هو الذي جعل رسول الله ﷺ وأبا بكر يبحثان عن دليل وذلك لأنهما أرادا السفر من طريق غير مألوف للتعمية على قريش.

وأخرجه الإمام الطبراني من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ومما جاء فيه من الزيادات:

فخرجا فمكثا في الغار في جبل ثور فلما انتهيا إليه دخل أبو بكر الغار قبله فلم يترك فيه جُحْراً إلا أدخل فيه إصبعه مخافة أن يكون فيه هامَّة.

---

(١) صحيح البخاري / مناقب الأنصار رقم ٣٩٠٥ (٧/ ٢٣١).

وخرجت قريش حين فقدوهما في بغائهما وجعلوا في النبي ﷺ مائة ناقة، وخرجوا يطوفون في جبال مكة حتى انتهوا إلى الجبل الذي هما فيه فقال أبو بكر لرجل مواجه الغار: يارسول الله إنه ليرانا، فقال: «كلا إن ملائكة تسترنا بأجنحتها»، فجلس ذلك الرجل فبال مواجه الغار، فقال رسول الله ﷺ: «لو كان يرانا مافعل هذا».

ذكره الإمام الهيثمي وقال: وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره وضعفه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح[1].

٤- قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعلتْ لكم جنان كجنان الأُرْدُنّ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جُعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، وأخذ الله تعالى على أبصارهم

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٥٣ – ٥٤.

عنه، فلا يرونه. فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ١ – ٩] حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات. ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً. ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب[(١)].

وهكذا حينما أظلم الليل نادى أهل الباطل بعضهم بعضاً واجتمعوا لتنفيذ الخطة المرسومة التي اتفقوا على تنفيذها في تلك الليلة،والغرور يحدوهم،والحبور بالإثم يغمرهم حتى قال أبو جهل هذا الكلام الساخر.

إن خروج النبي ﷺ وحده من بين جمع من أعدائه المسلحين الذين ينتظرون خروجه ليقتلوه يعدُّ مثلاً عالياً للشجاعة الفذة.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٧.

وإن أبلغ صورة لهذه الشجاعة قوله لأبي جهل « نعم،أنا أقول ذلك».

لقد كان رسول الله ﷺ ثابت الجنان راسخ اليقين، على ثقة كاملة بوعد ربه جل وعلا له بالنصر والتمكين.

ولقد اغتر أبو جهل بذلك الجمع من الشباب المسلحين الذين استطاع أن يجندهم لقتل رسول الله ﷺ فقال ذلك الكلام الساخر، ولكن ما أن خرج عليهم رسول الله ﷺ حتى أعمى الله تعالى أبصارهم وطمس بصائرهم، فذرَّ ﷺ التراب على رؤوسهم ومر من بين أيديهم وهم لايبصرون.

وهذه معجزة ظاهرة من دلائل نبوته ﷺ، ومثل واضح لمعية الله تعالى لأوليائه بالنصر والحماية.

قال ابن إسحاق في سياق رواية محمد بن كعب القرظي: فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ماتنتظرون هاهنا ؟ قالوا: محمداً، قال: خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون مابكم ؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًّا على الفراش مُتسجِّياً ببرد رسول الله ﷺ،

فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش، فقالوا:والله لقد كان صدَقَنا الذي حدثنا[1].

ولكن حتى بعد أن أيقنوا بتلك المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ فإنهم استمروا في المعركة معه وجدُّوا في البحث عنه ليقتلوه،ولو عقلوا لعرفوا أنه في حماية الله تعالى ورعايته وأنهم لن يصلوا إليه مهما بذلوا من جهد ومحاولات.

لقد كان إفلات النبي ﷺ من بين أيديهم بداية واضحة لخذلانهم وفشل خطتهم، ودليلا ظاهرًا لكل ذي عقل سليم بأنه لم يكن في الميدان وحده وأنه مؤيد بقوة عظمى لايستطيعون إدراكها ولامجابهتها.

٥- وأخرج أبو عبد الله الحاكم رحمه الله تعالى من حديث عمرو ابن ميمون عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: شَرَى عَلِيّ نفسه[2] ولبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه، وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ، وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه برده، وكانت قريش تريد أن تقتل النبي ﷺ فجعلوا يرمون عليّا ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده، وجعل

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٧.

(٢) يعني باع نفسه إلى الله تعالى.

علي رضي الله عنه يتضوَّر، فإذا هو علي فقالوا: إنك للئيم إنك لتتضور وكان صاحبك لايتضور ولقد استنكرناه منك.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد رواه أبو داود الطيالسي وغيره عن أبي عوانة بزيادة ألفاظ، وأقره الإمام الذهبي(١).

وأخرجه الإمام أحمد بنحوه وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى(٢).

وهذا الحديث الصحيح يفيد بأن النبي ﷺ نام على فراشه أول الليل، وأن المشركين لما طوقوا بيته رأوا النائم على الفراش فتوقعوه هو فصاروا يرمونه بالحجارة ليقوم ويخرج إليهم، ولكنه تحمل وقع الحجارة ولم يتحرك، وهذا دليل على قوة احتماله وطول صبره، ثم إنه قام وأمر عليّا رضي الله عنه أن ينام في فراشه ذلك، ثم خرج عليهم وحصل ماحصل من طمس أبصارهم وذَرِّ التراب على رؤوسهم والنجاة منهم.

ولكنهم لم يدركوا حقيقة ماحدث فاستمروا يرمون ذلك النائم

(١) المستدرك ٣/ ٤.

(٢) مسند أحمد بتحقيق شاكر ٥/ ٢٦ – ٢٧.

على الفراش، وأنه كان يتحرك ويضطرب وهم لايدرون أنه علي رضي الله عنه.

ولقد كان من حكمة أمر النبي ﷺ عليّا بأن ينام على فراشه إيهام المشركين بأنه ﷺ مايزال داخل البيت، وذلك يتيح له فرصة الذهاب إلى أبي بكر ثم اللجوء إلى الغار قبل أن يبدأ الكفار في البحث عنه.

٦ - أخرج أبو عبد الله الحاكم بإسناده عن محمد بن سيرين قال: ذُكر رجال على عهد عمر رضي الله عنه فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر رضي الله عنهما قال: فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فقال: والله لَلَيْلَة من أبي بكر خير من آل عمر، ولَيوم من أبي بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي ؟» فقال: يارسول الله أذكر الطَّلَب فأمشي خلفك ثم أذكر الرَّصَد فأمشي بين يديك، فقال:« يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني ؟» قال: نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من مُلمَّة إلا أحببت أن تكون بي دونك، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يارسول الله حتى أستَبْرئَ لك الغار فدخل واستبرأه حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه

لم يستبرئ الجحَرة[1] فقال: مكانك يارسول الله حتى استبرئ الجحَرة فدخل واستبرأ ثم قال: انزل يارسول الله فنـزل.

فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر .

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرسال فيه ولم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح مرسل[2].

وأخرجه الحافظ البيهقي عن شيخه الحاكم بهذا الإسناد نفسه[3].

وأشار إليه الحافظ ابن حجر من رواية البيهقي والبغوي[4].

وقد ذكر في هذا الأثر ليلة أبي بكر الفاضلة ويومه الفاضل مجملاً ثم جاء البيان لليلة الفاضلة ولم يأت بيان اليوم الفاضل وهو يوم الردة حيث وقف أبو بكر للمرتدين والمتمردين بقوة وحزم.

وقد ذكر الحافظ البيهقي رواية أخرى فيها بيان هذا اليوم وقد جاء فيها: وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب، فقال

---

(١) بكسر الجيم وفتح الحاء جمع جُحْر، والمراد أن يتأكد من خلوها من الهوامّ.

(٢) المستدرك ٣/ ٦، وفيه أخطاء تم تصحيحها من دلائل النبوة للبيهقي.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٧٦.

(٤) فتح الباري ٧/ ٢٣٧.

بعضهم: نصلي ولانزكي، وقال بعضهم: لانصلي ولانزكي، فأتيته ولا آلُوهُ نصحاً، فقلت: ياخليفة رسول الله تألَّف الناس وارفق بهم، فقال: جَبَّار في الجاهلية خوَّار في الإسلام ! فبماذا أتألفهم أبشعر مفتعل أو بشعر مفترى ؟ قُبض النبي ﷺ وارتفع الوحي، فو الله لومنعوني عقالاً مما كانوا يعطون رسول الله لقاتلتهم عليه، قال: فقاتلنا معه فكان والله رشيد الأمر فهذا يومه [(١)] .

ولكن قال الإمام الذهبي عن هذا الخبر: وهو منكر سكت عنه البيهقي، ثم قال: وآفته من هذا الراسبي يعني عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي قال: فإنه ليس بثقة مع كونه مجهولا[(٢)] .

وكون هذا الخبر فيه ضعف شديد في إسناده لايخفى على الحافظ البيهقي ولكنه ذكره لما فيه من بيان ما أُجمل في الرواية السابقة، ولكن كان ينبغي له أن يبين ضعف إسناده .

وهذا الخبر فيه مثال عال من التضحية والفداء، فقد جعل أبو بكر من نفسه درعا لوقاية النبي ﷺ، فصار يمشي أحياناً أمامه ليتلقى هجوم الأعداء المترصدين له، وأحياناً خلفه ليتلقى هجوم الأعداء

---

(١) دلائل البيهقي ٢/ ٤٧٦ – ٤٧٧.

(٢) تاريخ الإسلام / السيرة / ٢٢١ – ٢٢٢.

الذين يطلبونه، وقد ذكر وهو الصادق الصِّدِّيق بأنه يفدي رسول الله ﷺ بنفسه في أي مُلمَّة.

والمثال الآخر في دخوله الغار قبل النبي ﷺ واستبرائه الجحور للتأكد من سلامتها من الهوام، وقد سبق في حديث أسماء رضي الله عنها أن أبا بكر لم يترك في الغار جحراً إلا أدخل فيه إصبعه مخافة أن يكون فيه هامَّة.

فهذا مثال واضح لتضحيته بنفسه في سبيل رسول الله ﷺ، وذلك لاحتمال أن يكون في بعض تلك الجحور حية أو عقرب فتلسعه، لكنه رضي الله عنه لم يُلق لهذا الاحتمال بالاً فداء للنبي ﷺ.

٧ - أخرج الإمام البخاري ومسلم - واللفظ له - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق حدثه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال: « يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ! » (١).

وذكر الحافظ ابن كثير نحوه من طريق الحافظ أبي بكر بن علي

---

(١) صحيح البخاري، التفسير رقم ٤٦٦٣، مناقب الأنصار رقم ٣٩٢٢ (الفتح ٨/ ٣٢٥، ٧/ ٢٥٧)، صحيح مسلم، فضائل الصحابة رقم ٢٣٨١ ص ١٨٥٤.

القاضي عن الحسن البصري قال: انطلق النبي ﷺ وأبوبكر إلى الغار. وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخل أحد، وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: هؤلاء قومك يطلبونك. أما والله ماعلى نفسي أئلُّ [1] ولكنه مخافة أن أرى فيك ما أكره. فقال له النبي ﷺ:« يا أبا بكر لاتخف إن الله معنا » وهذا مرسل عن الحسن،وهو حسن بحاله من الشاهد، وفيه زيادة صلاة النبي ﷺ في الغار [2] .

وهكذا وصل المشركون إلى مشارف الغار فأعمى الله تعالى أبصارهم عن رؤية من بداخله، وطمس بصائرهم عن التفكير في ماضي النبي ﷺ، وما أجرى الله تعالى على يديه من المعجزات التي كانوا يعدُّونها من السحر، فكان بإمكانهم أن يقدِّروا أن نسيج العنكبوت نوع من ذلك.

وقول أبي بكر « أما والله ما على نفسي أَئلُّ ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره » يدل على تجرده الكامل من حظِّ النفس وبيعه نفسه خالصة لله تعالى ولرسوله ﷺ، فالقضية الوحيدة التي ملأت جوانحه

---

(١) أي أحن وأبكي.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٧٩.

وشغلت باله هي نجاة رسول الله ﷺ ليستمر باستمرار بقائه نزول النور الإلهي وإكمال هذا الدين.

وفي جواب النبي ﷺ دلالة ظاهرة على نبوته إذ أن أقوى الناس إيماناً لايصل إلى هذه الدرجة من اليقين التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ فإن أبابكر كان أقوى هذه الأمة إيماناً كما ثبت عن رسول الله ﷺ ولم يصل إلى هذه الدرجة من اليقين.

٨ - قال ابن إسحاق: فحُدِّثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يابنت أبي بكر ؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي ! قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثًا - فلطم خدِّي لطمة طرح منها قُرطي [١].

وهذا مثل من أمثلة طغيان الكفار وجبروتهم، ولقد كان من عادة العرب تكريم النساء، والترفع عن الاعتداء عليهن لانهم يعدُّون أن ذلك مما يخل بالمروءة ويسقط الكرامة، ولكن أبا جهل لخبثه وشدة

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١١ - ١١٢.

حقده على رسول الله ﷺ وعلى الإسلام تناسى العرف السائد بين العرب وأفرغ حقده في لطم تلك الفتاة البريئة بعد أن عز عليه لطم الرجال والظفر بهم.

٩ - قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير أن أباه عبّادا حدثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدي أبوقحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت قلت: كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً.

قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كُوَّة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت،ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أُسَكِّن الشيخ بذلك (١) .

وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٣.

(٢) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٢.

وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع[1].

وأخرجه الحاكم من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق بهذا الإسناد وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الإمام الذهبي[2] مع أنه قد سقط من هذا الإسناد أحد الرواة وهو عباد بن عبد الله بن الزبير وقد جاء الإسناد كاملا في رواية ابن هشام وأحمد والطبراني، ولايخفى ذلك على الحافظين الحاكم والذهبي ولكن لعل ذلك سقط من أحد النساخ.

وهكذا يبذل أبو بكر رضي الله عنه ماله في سبيل الله تعالى كما بذل نفسه، فقد حمل معه ماله كله لينفق منه في تلك الرحلة الميمونة التي كان يُعدُّ لها نفسه وأسرته وماله.

إن الإيمان الذي يصل إلى حد بذل النفس والمال وكل الإمكانات من أجل نصر القضية التي يؤمن بها صاحبها لابد أن يصل إلى نتائج إيجابية فعالة، فكيف إذا كانت هذه الجهود تبذل لنصر دين الله تعالى والحال أن من نصر هذا الدين كان الله تعالى معه بنصره وحمايته ؟

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٥٩.

(٢) المستدرك ٣/ ٥.

١٠ - أخرج الإمام مسلم من حديث البراء بن عازب قال: جاء أبو بكر الصِّدِّيق إلى أبي في منـزله. فاشترى منه رَحْلاً. فقال لعازب: ابعث معي ابنك يحمله معي إلى منـزلي. فقال لي أبي: احمله فحملته .

وخرج أبي معه ينتقد ثمنه، فقال له أبي: يا أبا بكر حدثني كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ، قال: نعم، أسرينا ليلتنا كلها، حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد، حتى رُفعَتْ لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بَعْدُ فنـزلنا عندها، فأتيت الصخرة فسويت بيدي مكانا ينام فيه النبي ﷺ في ظلها، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يارسول الله وأنا أنفض لك ماحولك[1] . فنام.

وخرجت أنفض ماحوله، فإذا أنا براعي غنم مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فلقيته فقلت: لمن أنت يا غلام ؟ فقال لرجل من أهل المدينة، قلت: أفي غنمك لبن ؟ قال: نعم، قلت: أفتحلب لي ؟ قال: نعم، فأخذ الشاة فقلت له: انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى (قال فرأيت البراء يضرب بيده على الأخرى

---

(١) أي أنظر حتى لايكون هناك عدو.

ينفض) فحلب لي في قعب[1] معه كُثْبَةً من لبن، قال: ومعي إداوة أرتوي فيها للنبي ﷺ ليشرب منها ويتوضأ.

قال: فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقظه من نومه، فوافقته استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يارسول الله اشرب من هذا اللبن، قال: فشرب حتى رضيت، ثم قال:« ألم يَأْن للرحيل ؟ » قلت: بلى،قال: فارتحلنا بعد مازالت الشمس[2] .

هذه الرواية فيها تلخيص لبعض أحداث رحلة الهجرة النبوية وهي تبين شيئاً مما قام به أبو بكر رضي الله عنه في خدمة النبي ﷺ خلال هذه الرحلة.

ولئن بين أبو بكر شيئاً من ذلك فإن ماسكت عنه أعظم، فكم هي الأعمال الصالحة التي اكتسبها أبو بكر خلال تلك الرحلة المباركة ورُفعتْ له !

خبر سراقة بن مالك المُدلجي مع رسول الله ﷺ :

أخرج الإمام البخاري من حديث سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي أنه قال: « جاءنا رُسُل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ

(١) القعب قدح من خشب مقعر.

(٢) صحيح مسلم، الزهد رقم ٧٥ / ٢٠٠٩.

وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: ياسُراقة، إني قد رأيت آنفاً أسْودةً بالساحل أُراها محمداً وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم،فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلاناً انطلقوا بأعيننا ثم لبثتُ في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي - وهي من وراء أكمة - فتحبسها علي.

وأخذتُ رمحي فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجِّه الأرض[1]،وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرِّب بي، حتى دنوت منهم، فعثَرَتْ بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها:أضُرُّهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي - وعصيت الأزلام - تقرِّب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لايلتفت،وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تُخرج

---

(١) أي وضع حديدة الرمح على الأرض حتى لايراه قومه.

يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثان ساطع في السماء مثل الدخان[1]، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره.

فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أنْ سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[2]، ولم يسألاني إلا أن قال: «أخْف عنا». فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر ابن فهيرة فكتب في رقعة من أَدَم[3]، ثم مضى رسول الله ﷺ[4].

وأخرجه الإمام مسلم من حديث أبي بكر رضي الله عنه وجاء فيه: فلما دنا دعا عليه رسول الله ﷺ. فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه. ووثب عنه. وقال يامحمد ! قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، ولك عليَّ لأُعمِّين على مَنْ ورائي[5]. وهذه كنانتي، فخذ سهماً منها، فإنك ستمر على إبلي وغلماني بمكان كذا

---

(١) أي غبار يشبه الدخان.

(٢) يعني لم يأخذا مني شيئًا.

(٣) أي رقعة من الجلد.

(٤) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، رقم ٣٩٠٦.

(٥) لأعمين على من ورائي: يعني لأخفين عمن ورائي ممن يطلبكم، وألبِّس عليهم حتى لايتبعكم أحد.

وكذا، فخذ منها حاجتك. قال: «لا حاجة لي في إبلك».

وفي رواية أخرى لمسلم قال: فرجع لا يلقى أحداً إلا قال: قد كُفيتم ماههنا فلا يلقى أحداً إلا رده، قال: ووفى لنا [1].

وأخرجه ابن إسحاق من حديث الزهري بإسناد الإمام البخاري نفسه وزاد في آخره: حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله وفرغ من حنين والطائف خرجت ومعي الكتاب لألقاه، فلقيته بالجعرانة [2]. قال: فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرماح، ويقولون: إليك إليك، ماذا تريد ؟ قال: فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأنِّي أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جُمَّارة [3].

قال: فرفعت يدي بالكتاب، ثم قلت: يارسول الله هذا كتابك لي، أنا سراقة بن جعشم قال: فقال رسول الله ﷺ: « يومُ وفاء وبرّ، ادْنُهْ»، قال: فدنوت منه فأسلمت.

ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أني قلت: يارسول الله، الضالة من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها ؟ قال: نعم في كل ذات كبد حرَّى أجر، قال:

---

(١) صحيح مسلم، الزهد رقم ٧٥ / ٢٠٠٩ (ص ٢٣١٠ – ٢٣١١).

(٢) تقع شمال شرق مكة على بعد ٢٤كم – معالم مكة التاريخية والأثرية – ص ٦٥ .

(٣) الجمّار هو لب النخل ولونه أبيض بحمرة.

ثم رجعت إلى قومي، فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي [1].

وأخرج الإمام الطبراني من حديث أسماء نحو حديث الإمام البخاري وابن إسحاق.

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: فيه يعقوب بن حُمَيد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح [2].

هذا الحديث يشتمل على معجزة عظيمة وآية باهرة حيث دعا رسول الله ﷺ على ذلك الفارس فحصل له ما حصل.

وهذه حلقة من حلقات المعركة التي أثارها كفار قريش ضد النبي ﷺ فخسروا فيها ونجح في الخلاص منهم وممن سخَّروه لتعويق هجرته، ولو أدركوا من البداية أنهم يحاربون الله تعالى لوفَّروا على أنفسهم الجهد والمال، وإن هذا الانكسار والتغير الذي حصل لفارس من أقوى وأشجع فرسان العرب دليل واضح على أن معركة أعداء الإسلام مع الله تعالى بالدرجة الأولى، لأنه سبحانه مع أوليائه بنصره وحمايته ولن يخذلهم إذا صدقوا معه.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٥ – ١١٦.

(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٥٣ – ٥٤.

أخرج الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال:« أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يُعرَف ونبي الله ﷺ شاب لايعرف. قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول:يا أبابكر من هذا الرجل الذي بين يديك ؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق،وإنما يعني سبيل الخير. فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يارسول الله، هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبي الله ﷺ فقال: اللهم اصرعه، فصرعه الفرس، ثم قامت تحمحم، قال: يانبي الله مُرْني بما شئت. قال: فقف مكانك، لاتتركن أحداً يلحق بنا.

قال: فكان أول النهار جاهداً على نبي الله ﷺ وكان آخر النهار مَسْلَحةً له[1] .

وقال الحافظ ابن كثير في سياق خبر سراقة بن مالك ولما رجع سراقة جعل لايلقى أحداً من الطلب إلا رده وقال: كفيتم هذا

---

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، رقم ٣٩١١ (٧/ ٢٤٩) ، وقوله « وأبو بكر شيخ » يعني قد ظهر فيه الشيب وقوله « يُعرف» يبينه ماجاء في رواية الإمام أحمد عن أنس وفيها « وكان أبو بكر يختلف إلى الشام فكان يعرف » - مسند أحمد ٣/ ٢٨٧ -، وقوله «ونبي الله ﷺ شاب»يعني لم يظهر فيه الشيب مع كونه أكبر من أبي بكر بسنتين وأشهُر،وقوله «مسلحة له»يعني يدافع عنه بسلاحه.

الوجه،فلما ظهر أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة جعل سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهد من أمر النبي ﷺ وما كان من قضية جواده واشتهر هذا عنه. فخاف رؤساء قريش معرَّته، وخشوا أن يكون ذلك سبباً لإسلام كثير منهم، وكان سراقة أمير بني مُدْلج ورئيسهم، فكتب أبو جهل - لعنه الله - إليهم:

بني مدلج إني أخافُ سفيهكم سراقة مُستغْو لنصر محمد

عليكم به أَلاَّ يفرق جمعكم فيصبح شتى بعد عزٍّ وسؤدد

قال: فقال سراقة بن مالك يجيب أبا جهل في قوله هذا:

أبا حَكَم والله لو كنت شاهداً لأمر جوادي إذ تَسوخ قوائمه

عجبت ولم تشكك بأن محمداً رسول وبرهان فمن ذا يقاومه

عليك فكفَّ القوم عنه فإنني إخالُ لنا يوماً ستبدو معالمه

بأمر تَوَدُّ النصر فيه فإنهم وإنَّ جميع الناس طرّا[1] مسالمه[2]

وذكر الحافظ ابن حجر شعر سراقة هذا في ترجمته[3].

في هذا الخبر نجد الفرق واضحا بين أبي جهل وسراقة بن مالك،

---

(١) يعني كلهم.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٨٤.

(٣) الإصابة ٢/ ١٨ رقم ٣١١٥.

فسراقة لَمَّا شاهد معجزة واحدة من معجزات النبي ﷺ دخل قلبَه الإسلام وصار من جنوده، بينما نجد أبا جهل قد شاهد الكثير من المعجزات النبوية سواء منها ما كان معه أو مع غيره فلم يسلم وظل يقود العداء الشرس ضد النبي ﷺ، وإن هذا لهو الفرق بين المتجرد من الهوى المنحرف ومن استحوذ الهوى المنحرف على قلبه، فسراقة لم يحمل في قلبه بغضَ النبي ﷺ وإرادة حربه وعدائه، بينما حمل أبو جهل بغضَه ورفع لواء عدائه وحربه وامتلأ قلبه حسدا وضغنًا عليه،فلم تَعُد الآيات تؤثر على قلبه إلا بزيادة في الحقد وإرادة الشر.

وذكر الحافظ ابن حجر رواية عن الحسن البصري: أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك «كيف بك إذا لبست سوارَيْ كسري ؟ » قال: فلما أُتيَ عمر بسواري كسرى ومِنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه وكان رجلاً أزبَّ كثير شعر الساعدين فقال له: ارفع يديك وقل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابي، قال: وروى ذلك عنه ابن أخيه عبد الرحمن بن مالك بن جعشم [(١)].

وهذه معجزة أخرى لرسول الله ﷺ حيث أخبر سراقة بأنه

(١) الإصابة ٢/ ١٨ – ١٩ رقم ٣١١٥.

سيلبس سواري كسرى، إذ لايتصور من إنسان عادي وهو في قلة من أنصاره وقد خرج في خوف وخفية من قومه أن يخبر بزوال دولة الفرس على يد أنصاره وحصول سراقة على سواري كسرى، فلا يمكن أن يكون هذا الخبر إلا بوحي من الله تعالى.

ويتم ما أخبر به رسول الله ﷺ،وتزول دولة الفرس على يد الصحابة رضي الله عنهم، وتصل غنائمهم إلى المدينة في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فيدعو سراقة ويلبسه سواري كسرى.

نزول رسول الله ﷺ على أم معبد:

ذكر هذا الخبر العلامة القسطلاني في « المواهب » ونسبه شارحه العلامة الزرقاني إلى الحاكم وذكر تصحيحه إياه، والبيهقي وصاحب الغيلانيات، ومن طريقه اليعمري عن أبي سليط الأنصاري البدري، كما نسبه إلى ابن عبد البر وابن شاهين وابن السَّكن والطبراني وغيرهم عن أخي أم معبد حُبَيْش بن خالد الخزاعي صاحب رسول الله ﷺ قال: لما خرج ﷺ في الهجرة ومعه أبو بكر وابن فُهَيرة وابن أُرَيقط يدلهم على الطريق مروا بقُدَيد[1] على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية، وكانت بَرْزَة جَلْدة [2] تحتبي بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم من يمر بها،

(١) هي بلدة تقع شمال مكة على بعد ١٢٠كم-معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية-ص٢٤٩.

(٢) أي كبيرة تبرز للرجال ولاتحتجب، وجلدة أي قوية.

وكان القوم مُرْملين مُسْنتين[١]،فطلبوا لبنا،أو لحما،أو تمرا،يشترونه منها فلم يجدوا عندها شيئاً،وقالت والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى[٢] .

فنظر ﷺ إلى شاة في كِسْر الخيمة خلَّفها الجهد عـن الغنم، فسألها ﷺ: «هل بها من لبن »؟ قالت: هي أجهد من ذلك، فقال ﷺ: «أتأذنين أن أحلبها ؟ » فقالت نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا ﷺ بالشاة فاعتقلها،ومسح ضرعها وسمَّى الله تعالى، فتفاجَّت[٣] ودرَّت، ودعا بإناء يُربض الرَّهط[٤] فحلب فيه ثجًّا[٥]، وسقى القوم حتى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى عَلَلاً بعد نَهَل[٦] ثم غادره عندها.

وذهبوا، فمالبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنـزًا عجافا، يتساوكن[٧]هزلا فلما رأى اللبن أبو معبد عجب وقال: ماهذا يا أم

---

(١) مرملين أي قد فنيت أزوادهم، ومسنتين أي أصابهم القحط.

(٢) أي ما أحوجناكم إلى طلب الكرم منا الذي يُلمح إليه طلب الشراء.

(٣) يعني فرجت رجليها.

(٤) أي يشبع الجماعة حتى يستريحوا من الشبع.

(٥) أي حلبا قويا.

(٦) يعني ثانيا بعد الأول.

(٧) أي يتمايلن من الضعف.

معبد ؟ أنَّى لك هذا والشاة عازب حيال[1] ، ولاحـلوب في البيت فقالت أم معبد: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من شأنه كذا وكذا، فقال أبومعبد: صفيه يا أم معبد فقالت: رأيت رجلا ظاهر الوضاءة مُبلج[2] الوجه، حسن الخَلْق، لم تَعبْه ثُجْلة[3] ، ولم تُزْرِبِه صَعْلة[4]، وسيم قسيم[5] ، في عينيه دعج[6] ، وفي أشفاره وطف[7] ، وفي وفي صوته صحَل[8] ،أحور، أكحل أزجّ، أقرن[9] شديد سواد

(١) أي ليست بذات لبن.

(٢) أي مشرق الوجه.

(٣) الثجلة عظم البطن.

(٤) يعني صغر الرأس أو نُحُول البدن.

(٥) أي حسن الوجه.

(٦) أي شدة في سوادها.

(٧) الوطف كثرة شعر العينين.

(٨) أي لم يكن حاد الصوت.

(٩) الحور شدة سواد العين مع شدة بياضها، والكحل شدة سواد أجفان العين، والزجج دقة الجاجبين في طول. والأقرن المقترن الحواجب ، وذكر الشيخ العلامة صالح بن عواد المغامسي أن هذا القول لايُقبل ، فإما أن يكون خطأ منها وإما أن يكون خطأ من الرواة، وذكر أن اقتران الحاجبين صفة غير محمودة عند العرب، ذكر ذلك في كتابه «الأيام النضرة في شرح السيرة العطرة» ص ١٤٣ ، الذي علق فيه على كتاب «الدرة المُضيَّة في السيرة النبوية» للعلامة عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي رحمه الله، وقد قال العلامة عبد الغني المقدسي في هذا الكتاب عند ذكر صفات النبي ﷺ الخَلْقية « أَزجُّ الحواجب، سوابغ في غير قَرَن» - السيرة العطرة ص ١٤٥ - .

الشعر،في عنقه سطع[1] ، وفي لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نُظمْنَ يتحدرن، حلو المنطق، فصل لانزر ولاهذر[2] أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لاتشنؤه من طول، ولاتقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره، محفود محشود [3] لاعابس ولامُفنِّد[4] .

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لاتَّبعته[5] .

وجاء في رواية أبى عبد الله الحاكم: ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا، وأصبح صوت بمكة يسمعون الصوت ولايدرون من صاحبه وهو يقول:

جــزى الله رب الناس خير جزائه   رفيقين حـــــلاَّ خيمتَي أم معبد

---

(١) أي طول.

(٢) أي وسط لاقليل ولاكثير.

(٣) محفود أي مخدوم، ومحشود يعني عنده حَشْد وهم الجماعة.

(٤) المفنّد هو الذي يكثر اللوم.

(٥) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣٤٠ – ٣٤٣، وذكره الهيثمي وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير حزام بن هشام بن حبيش وأبيه وكلاهما ثقة – مجمع الزوائد ٨/ ٣١٣ –.

هما نـــــزلاها بالهدى واهتدت به فقد فاز مـــن أمسى رفيق محمد

فيا لقُصّيٍّ مــــا زوى الله عــنكم بصحبته مـــن يُسعد الله يسعَد

ليَهْن أبــــــا بكر سعادة جـده به مـــن فـعال لاتُجَارَى وسؤدد

ويَهْن بني كـعب مـــقام فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بـمـرصـد

سلوا أختكم عـــن شاتها وإنائها فإنكمُ إن تســألوا الشاة تـشهد

دعاها بشـــــاة حائل فتحلّبت عليه صريحًا ضَرَّة الشــاة مـزبد

فغــادره رهنًا لــديها لحـــالب يردِّدها في مصــدر بعــد مورد

فلما سمع حسان الهاتف بذلك شبَّب يجاوب الهاتف فقال:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم وقُدِّس من يسري إليهم ويغتدي

ترحَّل عن قوم فضلَّت عقولهم وحلَّ عـلى قــوم بـنـور مجـــدَّد

هـــداهم به بعد الضلالة ربهم فأرشدهم من يتبع الحق يـرشـد

وهل يستوي ضُلاَّل قوم تسفهوا عَمًى وهـــداة يهتدون بـمهـتـد

وقــد نزلت منه على أهل يثرب ركابُ هدًى حلَّت عليهم بأسعد

نبي يرى مالا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشـــهد

وإن قال في يـوم مقــالة غائب فتصديقها في اليوم أوفي ضحى الغد(١)

---

(١) المستدرك ٣/ ٩ – ١١.

وقال الحافظ ابن كثير عن أم معبد: وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا، وقد ذكر عددا من هذه الطرق[1] .

وفي هذه الرواية موقف يذكر لحسان بن ثابت رضي الله عنه حيث مدح النبي ﷺ وأشاد بالإسلام وضلل أعداءه.

أخرج الإمام البيهقي بإسنادين عن عبد الرحمن بن أبي ليلى من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة فانتهينا إلى حي من أحياء العرب، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت مُنْتحياً فقصد إليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة، فقالت: ياعبدالله ! إنما أنا امرأة، وليس معي أحد، فعليكما بعظيم الحي إذا أردتم القِرَى[2] ، قال: فلم يجبها وذلك عند المساء.

فجاء ابن لها بأعنز له يسوقها، فقالت له: يابني انطلق بهذه العنز والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما تقول لكما أمي: اذبحا هذه وكلا وأطعمانا، فلما جاء، قال له النبي ﷺ: انطلق بالشفرة وجئني بالقدح، قال: إنها قد عزبَتْ وليس لها لبن، قال: انطلق، فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها، ثم حلب حتى ملأ القدح، ثم قال:

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٨٨ – ١٩٢.

(٢) القرى بكسر القاف الضيافة.

انطلق به إلى أمك، فشربَتْ حتى رويت، ثم جاء به فقال: انطلق بهذه وجئني بأخرى، ففعل بها كذلك، ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها ذلك، ثم شرب النبي ﷺ .

قال: فبتنا ليلتنا،ثم انطلقنا فكانت تسميه المبارك وكَثُرَتْ غنمها، حتى جلبت جلباً إلى المدينة، فمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه، فقالت: ياعبد الله من الرجل الذي كان معك ؟ قال: وماتدرين من هو ؟ قالت: لا،قال:هو النبي ﷺ،قالت: فأدخلني عليه، قال: فأدخلها عليه، فأطعمها وأعطاها ».

زاد ابن عبدان في روايته: قالت: فدُلَّني عليه فانطلقتْ معي وأهدت له شيئاً من أقط ومتاع الأعراب قال: فكساها وأعطاها قال: ولا أعلمه إلا قال أسلمت.

قال البيهقي: وهذه القصة وإن كانت تنقص عما روينا في قصة أم معبد ويزيد في بعضها فهي قريبة منها ويشبه أن يكونا واحدة[١] ، ورجح الزرقاني تعدد القصةلاختلاف بعض تفاصيل الخبرين ونقل عن الحافظ ابن حجر القول باحتمال التعدد[٢] وهو الظاهر.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٩١ – ٤٩٢.

(٢) شرح المواهب ١/ ٣٤٩.

وذكر الحافظ ابن كثير هذه الرواية وحسَّن إسنادها [1].

في هذا الخبر أن النبي ﷺ قصد ذلك البيت المنفرد البعيد عن الحي، ولما أخبرته المرأة بعظيم الحي وأشارت عليه بأن يذهب إليه لم يفعل ذلك، وهذا التصرف هو الموافق للحكمة فإن زعماء قريش قد أرسلوا إلى زعماء القبائل وأغروهم بذلك الجُعْل الكبير من الإبل في مـقابل أن يأتوا برسول الله ﷺ،فكان الأمر يقتضي أخذ الحيطة والحذر، والابتعاد عن مضارب كبار القوم.

وفي هذا الخبر حدثت معجزة عظيمة لرسول الله ﷺ حيث مسح على ضرع تلك الشاة الخالية من اللبن فدرَّت حالاً وشربوا جميعاً من حليبها،وقد تكررت هذه المعجزة لرسول الله ﷺ في هذه الرحلة وفي غيرها.

كما أن هذا الخبر يشتمل على معجزة أخرى للنبي ﷺ وهي ما حصل لغنم تلك المرأة من البركة والنماء، حتى سَمَّت النبي ﷺ بسبب ذلك، الرجل المبارك.

وفي هذا الخبر من المواقف ما حصل من رسول الله ﷺ من إكرام تلك المرأة حينما وفدت إلى المدينة والاهتمام بها.

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٨٩ – ١٩٠.

خبر الراعي مع رسول الله ﷺ:

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث قيس بن النعمان قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفيين مرًّا بعبد يرعى غنما فاستسقياه من اللبن فقال: ماعندي شاة تحلب غير أن ههنا عَناقاً[1] حملت أول الشتاء وقد أخدجت[2] ومابقي لها لبن، فقال: «ادع بها»، فدعا بها فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت.

قال: وجاء أبو بكر رضي الله عنه بمجَنٍّ فحلب فسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت فوالله مارأيت مثلك قط، قال: «أوتُراك تكتم عليَّ حتى أخبرك ؟» قال: نعم، قال: «فإني محمد رسول الله»، فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ، قال: «إنهم ليقولون ذلك»، قال: فأشهد أنك نبي وأشهد أن ماجئت به حق وأنه لايفعل مافعلت إلا نبي وأنا متبعك، قال: «إنك لاتستطيع ذلك يومك فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[3].

---

(١) العناق هي الأنثى من الماعز.

(٢) أي أسقطت مافي بطنها.

(٣) المستدرك ٣/ ٩.

وقال البوصيري: رواه أبو يعلى بإسناد رواته ثقات[1] .

وهذا الخبر فيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ حيث مسح ضرع عَنَاق لا لبن فيها ودعا الله تعالى فدرَّت بالحليب فشرب هو وصحبه والراعي.

وقد اعترف الراعي بأن هذا التسخير لايكون لبشر عادي، وأن من تم على يديه ذلك نبي مرسل من الله تعالى فآمن به بعد أن عرَّفه رسول الله ﷺ بنفسه، وقد تم هذا الإقرار السريع من الراعي لتجرده من الهوى المنحرف،بينما كان أصحاب الهوى المنحرف من المشركين يتهمون رسول الله ﷺ بالسحر كلما أجرى الله تعالى على يديه آية من الآيات.

وفي هذا الخبر وأخبار سابقة نجد أمثلة من تواضع النبي ﷺ حيث كان يحلب الشياه بنفسه ويقدم أصحابه بالسقي ويكون آخرهم.

خبر اللصَّين ومواقف لرسول الله ﷺ:

أخرج عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده عن فائد مولى عبادل قال: خرجت مع إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة فأرسل

---

(١) المطالب العالية ٤/ ٢٠٩.

إبراهيم بن عبد الرحمن إلى ابن سعد حتى إذا كنا بالعَرْج[1] أتانا ابن سعد، وسعدٌ الذي دل رسول الله ﷺ على طريق رَكوبة[2] فقال إبراهيم: أخبرني ماحدثك أبوك ؟

قال ابن سعد حدثني أبي أن رسول الله ﷺ أتاهم ومعه أبو بكر وكان لأبي بكر عندنا بنت مسترضعة وكان رسول الله ﷺ أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة فقال له سعد: هذا الغائر[3] من رَكوبة وبه لصَّان من أسلم يقال لهما المُهَانان فإن شئت أخذنا عليهما،فقال رسول الله ﷺ: «خُذْبنا عليهما»، قال سعد: فخرجنا حتى أشرفنا إذا أحدهما يقول لصاحبه: هذا اليماني[4] ، فدعاهما رسول الله ﷺ فعرض عليهما الإسلام فأسلما ثم سألهما عن أسمائهما فقالا نحن المهانان، فقال: «بل المُكرمان »،وأمرهما أن يقدما عليه المدينة[5] .

في هذا الخبر أن رسول الله ﷺ فضَّل الطريق المختصر إلى المدينة لما تجاوز المراحل الأولى من الطريق، مع أن الدليل ذكر له أن الطريق

---

(١) هي قرية بين مكة والمدينة على أيام من المدينة.

(٢) هي ثنية عند العرج وهي الطريق الجبلي.

(٣) هو جبل قرب المدينة.

(٤) يعني القادم من جهة اليمن، وكانوا يعبِّرون عن جهة الجنوب باليمن.

(٥) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٩.

المختصر فيه خطر الهجوم عليهم من لصَّين مشهورين هناك، وهذا دليل على شجاعته ﷺ وإقدامه على المخاطر عندما تكون فيها المصلحة، وذلك من قوة توكله على الله تعالى.

وفيه اهتمامه ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى حيث اغتنم الفرصة فدعا اللصين المذكورين إلى الإسلام فأسلما، وإن في إسلام هذين اللصين مع ما ألفاه من حياة البطش والسلب والنهب دليلاً على سرعة إقبال النفوس على اتباع الحق إذا وُجد من يمثله بصدق وإخلاص، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرف.

وإن في إسلام هذين اللصين تقريعا وتوبيخاً لكفار مكة الذين بقي عندهم رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الله تعالى فما لانت قلوبهم ولا استنارت بصائرهم، حيث أصبح اللصوص المهانون المنبوذون أسرع منهم استجابة لنداء الحق وتأثرًا بدعاته.

وإن في اهتمام الرسول الله ﷺ بتغيير اسمَي هذين اللصين من المهانَيْن إلى المكْرَمَيْن دليلاً على اهتمامه بسمعة المسلمين ومراعاته مشاعرهم إكراماً لهم ورفعاً من معنويتهم، وإن في رفع معنوية الإنسان تقوية لشخصيته ودفعا له إلى الأمام ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والصلاح.

وصول النبي ﷺ إلى المدينة:

أخرج الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير: « أن رسول الله ﷺ لقىَ الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثياب بياض.

وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه، حتى يردَّهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أوَوْا إلى بيوتهم أوفَى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم[1] لأمر ينظر إليه،فبصُرَ رسول الله ﷺ وأصحابه مبيِّضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يامعاشر العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون[2] .

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول، فـقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يُحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر

(١) أي حصن من حصونهم.

(٢) أي هذا حظكم وصاحبكم.

حتى ظلَّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأَسَّس المسجد الذي أُسِّس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ. ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا للتمر[١] لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنـزل».

ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: لا، بل نهبه لك يارسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبنَ في بُنْيانه ويقول - وهو ينقل اللبن: -

هـــذا الحِمالُ لاحِمَالَ خَـــيبرْ[٢] هـذا أبـرُّ ربنـــا وأطـــهـر

ويقول:

اللهم إن الأجرَ أجرُ الآخرة فارحـــم الأنصارَ والمهاجرة

---

(١) يعني المكان الذي يجفف فيه التمر.

(٢) يعني هذا المحمول وهو لبن البناء هو الحِمال المعتبر لأنه يراد به ثواب الآخرة، بخلاف حمال خيبر من التمر ونحوه فإنه يراد منفعة الدنيا.

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسَمَّ لي[1].

في هذا الحديث بيان خبر وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وهو يصور مدى حب الأنصار له حيث كانوا يخرجون كل يوم لانتظاره إلى أن يمسهم حر الشمس، وقد استقبلوا رسول الله ﷺ استقبالاً كبيراً وكان عدد الذين استقبلوه خمسمائة[2].

ويصور البراء بن عازب رضي الله عنه الموقف بقوله: « ثم قدم رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله[3].

وصار الناس يهتفون « جاء نبي الله جاء نبي الله »[4].

ومما يشتمل عليه هذا الحديث بيان تواضع النبي ﷺ العظيم حيث لم يكن في لباسه مختلفا عن أبي بكر رضي الله عنه، حتى أصبح الذين لايعرفونه يحَيُّون أبا بكر يظنون أنه رسول الله ﷺ.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يظهر بهيئة متميزة، ولو فعل ذلك لم

---

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، رقم ٣٩٠٦ (٧/ ٢٣٩).
(٢) فتح الباري ٧/ ٢٥١.
(٣) صحيح البخاري رقم ٣٩٢٤ (٧/ ٢٦٠).
(٤) صحيح البخاري رقم ٣٩١١ (٧/ ٢٥٠).

يوجَّه إليه نقد لكون الرؤساء عادة يُعرفون بتميزهم، ولكن رسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى هاديا وقدوة في الخير لم يصنع شيئاً من ذلك تواضعا لله جل وعلا، وليكون أسوة لأمته في هذا الخلق النبيل.

ومما يشتمل عليه هذا الحديث من المواقف ما كان من رسول الله ﷺ من الاهتمام ببناء المساجد والإسراع في ذلك فقد بقي في بني عمرو ابن عوف بضع عشرة ليلة فقط،فأسس في حيِّهم مسجد قباء الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ثم لما تحول رسول الله ﷺ إلى داخل المدينةقام بتأسيس المسجد النبوي حال وصوله، وهذا يدلنا على أهمية بناء المساجد وأنها المَعْلَم الأول من معالم الإسلام.

ولقد كان رسول الله ﷺ مشاركاً لأصحابه في بناء المسجد ينقل معهم اللَّبن حتى قام المسجد واكتمل بناؤه، وكان في الصحابة رضي الله عنهم- الذين كانوا يفدونه بأرواحهم- مايكفي ويغني، ولكنه ﷺ كان حريصاً على السبق إلى الأعمال الصالحة، والمنافسة عليها، فما كان

ليفرِّط بتلك المناسبة الجليلة، ولقد ضرب بذلك مثلاً عالياً في القدوة الحسنة، ليسير على دربه المسلمون وخاصة أصحاب المسؤولية منهم لأنهم ممن يقتدى بهم.

ولقد كان إسهام النبي ﷺ في بناء المسجد دافعاً قويًّا للصحابة ليواصلوا العمل،كما جاء في قول أحدهم:

لــئن قعدنــا والنبي يـعمــل ذاك إذاً لَلْـعمــلُ المضـلَّل

ولقد كانوا في غاية النشاط والحماسة وهم يبنون المسجد، يصور ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لايستوي مـن يعمرالمساجدا يـدأب فيها قائما وقـاعدا

ومن يُرى عن التراب حائدا[1]

وممن أُثر عنهم التنافس في هذا العمل الصالح عمار بن ياسر رضي الله عنهما، كما أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي ﷺ قال: « أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المسجد فجعلنا ننقل لبنة لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين، فَتَترَّب رأسه، قال: فحدثني أصحابي ولم أسمعه من رسول الله ﷺ أنه جعل ينفض رأسه ويقول:

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٤٧.

ويحك ياابن سمية تقتلك الفئة الباغية» [1].

وهذه الجملة رواها الإمام مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لعمار: « تقتلك الفئة الباغية »[2].

وهذا من دلائل النبوة فقد قتل عمار في الفتنة التي كانت في عهد علي رضي الله عنه.

وهكذا وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد هذه الرحلة الشاقة المحفوفة بالمخاطر، وقد يقول قائل: لماذا يتعرض رسول الله ﷺ لهذه المخاطر والمشاقِّ والمواقف المخيفة والله قادر على أن يحمله إلى المدينة في لمح البصر ؟!

فيقال: إن الله تعالى قادر – وهو القادر على كل شيء – أن يحمل رسوله ﷺ على البراق الذي حمله ليلة الإسراء، وعلى ماهو أعظم وأسرع من ذلك، ولكن الله تعالى جعل نبيه ﷺ قدوة عُظْمَى للناس، فلذلك شرع له فعل الأسباب التي يفعلها الناس عادة.

ولو تمت الهجرة بخارق للعادة لم تحصل تلك المواقف العالية والعبر العظيمة التي استفدناها من هذه الهجرة المباركة ولم تكن تلك

(١) مسند أحمد ٣/ ٥.

(٢) صحيح مسلم، الفتن، رقم ٢٩١٦ (٤/ ٢٢٣٦).

الدروس العالية التي تم بها إسلام من أسلم وظلت دروسا خالدة مع الزمن تُقوِّي الإيمان وتبعث الثقة واليقين.

هذا وإن أحداث الهجرة من أولها إلى آخرها دليل على قوة توكل النبي ﷺ على ربه جل وعلا، فحينما خرج من بيته وحده لم يتردد ولم يخامره شعور بالخوف من المشركين لقوة يقينه بأن الله تعالى معه بنصره وتأييده، وحينما شعر أبو بكر بوجود المشركين حول الغار وبكى خوفا على رسول الله ﷺ أجابه ﷺ بلغة الواثق بربه ثقة تامة، المتوكل عليه توكلا كاملا: يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما، لاتحزن إن الله معنا.

وحينما لحق بهما سراقة بن مالك كان ﷺ رابط الجأش ثابت الجنان، وهذا مظهر من مظاهر التوكل التام على الله تعالى.

ولقد كانت أحداث الهجرة مثالا حيّا في الجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله تعالى، فقد قام النبي ﷺ بفعل الأسباب الممكنة حينما اختفى هو وصاحبه في الغار، وكان مصاحبا للتوكل على الله تعالى من أول لحظة خطا فيها خطوات الهجرة إلى نهايتها.

وحينما أنهى رسول الله ﷺ فعل الأسباب الممكنة واستقر في الغار مع صاحبه تمحَّضَ التفكير للتوكل على الله تعالى لأنه قد انتهى دور الأسباب المصاحب للتوكل، وأصبح النظر منصرفاً إلى التوكل على

الله تعالى وحده فلذلك قال النبي ﷺ لأبي بكر: « ماظنك باثنين الله ثالثهما» ولم يذكر فعل أسباب أخرى حال كونهما في الغار.

وقد كانت مدة إقامة النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة،كما أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحَى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين (١).

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، رقم ٣٩٠٢.

هجرة علي بن أبي طالب

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى: وأقام علي بن أبي طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليال وأيامها[1] حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ.

قال: فكان علي بن أبي طالب – وإنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين – يقول: كانت بقباء امرأة لازوج لها مسلمة، قال: فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابا، فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه فتأخذه. قال: فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أَمَةَ الله، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمة لازوج لك ؟ قالت:هذا سهل بن حنيف بن واهب،قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عَدَا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي رضي الله عنه يأثُرُ ذلك من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

قال ابن إسحاق: وحدثني هذا من حديث علي رضي الله عنه،

(١) يعني بعدما هاجر رسول الله ﷺ من الغار.

هندُ بن سعد بن سهل بن حنيف رضي الله عنه[1].

في هذا الخبر مواقف إسلامية عالية:

الأول: في بقاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه وحده في مكة ثلاثة أيام بعد هجرة النبي ﷺ وقد هاجر قبل ذلك المسلمون ولم يبق في مكة إلا مفتون أو محبوس، وهذا دليل على شجاعته وجسارته حيث كان مُعَرَّضا لنقمة زعماء قريش منه، ثم في سفره بعد ذلك وحده إلى المدينة.

الثاني: في اهتمامه الدقيق بأمور المسلمين، فقد لاحظ وضع تلك المرأة مع قلة إقامته في دار قومها فسألها عن أمرها، وهذا التحري الدقيق والاهتمام البالغ من نتائج التربية النبوية العالية، فأفراد المسلمين يعدُّون بالنسبة للمسلم كأفراد أسرته يغار عليهم، ويسد حاجتهم ويصلح مافسد من أمرهم.

الثالث: موقف يذكر لسهل بن حنيف رضي الله عنه جمع فيه بين عملين صالحين: تحطيم الأصنام، ودفع حطامها لتلك المرأة الفقيرة لتتخذ منه وقوداً لنارها، وما أعظم أن يجمع المسلم بين جهاد أعداء

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٩ – ١٢٠.

الإسلام وإزالة معالم الوثنية وبين الإحسان إلى المسلمين والبرِّ بهم.

الرابع: في بقاء علي رضي الله عنه على ذكر هذا العمل الصالح عقودا من الزمن وثنائه على سهل بن حنيف رضي الله عنه بعد ذلك الزمن الطويل، وإنما يقدِّر العمل الصالح وفضل أهل الفضل من كان عميق الشعور بذلك .

مثل في التضحية

(هجرة صهيب بن سنان الرومي)

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:« رأيت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرة فإما أن تكون هَجَرًا أو تكون يثرب ».

قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر رضي الله عنه، وكنت قد هممت بالخروج معه فصدني فتيان قريش فجعلت ليلتي تلك أقوم ولا أقعد، فقالوا: شغله الله عنكم ببطنه ولم أكن شاكيا، فقاموا فلحقني منهم ناس بعدما سرت بريدًا[(١)] ليردوني، فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقيَ من ذهب وتخلون سبيلي وتَفُونَ لي ؟ فتبعتهم إلى مكة فقلت لهم: احفروا تحت أسكفَّة الباب فإن تحتها الأواق، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قبل أن يتحوَّل منها - يعني قباء -فلما رآني قال: يا أبا يحيى ربح البيع، ثلاثاً، فقلت: يارسول الله ماسبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي[(٢)].

---

(١) البريد يساوي ٢٤كم تقريبًا – معجم المصطلحات والألقاب التاريخية– ص ٧٦ .

(٢) المستدرك ٣/ ٤٠٠.

وأخرجه الإمام أحمد من حديث أبي عثمان النهدي، وفيه أن كفار قريش قالوا: أتيتنا صعلوكا حقيرا ثم أصبت بين أظهرنا المال وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج أنت ومالك ؟ والله لايكون ذلك، قال: فقال صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون أنتم سبيلي ؟ قال فقالوا: نعم فخلع لهم ماله، قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ربح صهيب، ربح صهيب[1] .

وأخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث عكرمة قال: لما خرج صهيب مهاجرا اتبعه أهل مكة فنثل كنانته فأخرج منها أربعين سهما فقال: لا تصلون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهما، ثم أصير بعدُ إلى السيف فتعلمون أني رجل،وقد خلَّفت بمكة قينتين فهما لكم.

قال:وحدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس نحوه، ونزلت على النبي ﷺ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] الآية فلما رآه النبي ﷺ قال: «أبا يحيى ربح البيع» قال: وتلا عليه الآية.

---

(١) فضائل الصحابة ٢/ ٨٢٨ ، وقال محققه الدكتور وصي الله: مرسل رجاله ثقات.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه [(1)] .

وقوله «فتعلمون أني رجل» يعني رجل الحرب، وقد جاء في رواية ذكرها الحافظ ابن حجر «فقال: يامعشر قريش إني من أرماكم» [(2)] .

في هذا الأثر موقف جليل لصهيب بن سنان رضي الله عنه حيث ضحى بماله وفدى به دينه، وهو نموذج لعموم المهاجرين الذي تركوا أموالهم التي لا يمكن نقلها كالبيوت وبعض أموالهم الأخرى التي غلبهم عليها الكفار، كما تركوا مصالحهم التجارية حيث كان أهل مكة يتمتعون برحلتي الشتاء والصيف لليمن والشام ووفادة العرب على مكة.

لقد هاجروا وتركوا مصالحهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في الآخرة.

ولقد امتدح الله تعالى صهيبا وأمثاله بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وموقف جهادي رائع لصهيب، حيث أعلن الحرب ضد الكفار وهو وحده وهم جميع، وقد خضعوا له وتركوه يهاجر إبقاء على

---

(١) المستدرك ٣/ ٣٩٨.

(٢) الإصابة ٢/ ١٨٨ رقم ٤١٠٤.

أنفسهم،ورغبة في الحصول على ماله الذي دلهم عليه وتنازل عنه لهم.

وهذا دليل على أن الكفار ينظرون أَوَّلاً وقبل كل شيء إلى مصالحهم الخاصة،من وقاية أنفسهم وحصولهم على أكبر قدر ممكن من متاع الدنيا، أما النظر إلى المبادئ المقدسة عندهم فهو أمر ثانوي، بخلاف المسلمين الذين يَعُدُّون الإسلام هو المطلب الأول والقضية الكبرى كما فعل صهيب وغيره من الصحابة رضي الله عنهم، وهذا هو أحد أسرار انتصار المسلمين الساحق على الكفار رغم ضعف المسلمين الواضح من الناحية المادية.

وإلى جانب ما في هذا الأثر من موقف جليل لصهيب ﵁ فإن فيه معجزة للنبي ﷺ حيث قال لصهيب: يا أبا يحيى ربح البيع، فأخبر عن أمر غيبي، وقد عبر عن هذه المعجزة صهيب بقوله: يارسول الله ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

ونجد في عبارة النبي ﷺ معاني سامية من مواساة المنكوبين، ورفع معنوية المقهورين، فإن أولئك الرعيل المختار لو أُعطي أحدهم أضعاف أضعاف مافقد من الدنيا لم يَزِنْ عنده البشارة برضوان الله تعالى والسعادة الأخروية.

رسول الله ﷺ في المدينة

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة نزل عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه. وقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما نزل عن ناقته بادر أبو أيوب الأنصاري فاحتمل رَحْلَه فوضعه في بيته [1].

وهذا سَبْق من أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري إلى هذا الخير الكبير، فحاز شرف نزول المصطفى ﷺ في بيته، وقد ذكر ابن إسحاق قبل ذلك أن جميع الأنصار الذين مرَّ رسول الله ﷺ بدورهم كانوا يعرضون عليه النـزول عندهم فيقول « خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» يعني ناقته، حتى وصلت إلى موضع مسجده فبركت فيه[2].

وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه (أن النبي ﷺ نزل عليه، فنزل النبي ﷺ في السُّفل وأبو أيوب في العلو، قال: فانتبه أبو أيوب ليلة فقال: فوق رأس رسول الله ﷺ، فتنحَّوا فباتوا في جانب، ثم قال: للنبي ﷺ (يعني عن ذلك) فقال النبي ﷺ: السفل أرفق، فقال: لا أعلو سقيفة أنت تحتها، فتحوَّل النبي ﷺ في العلو وأبو أيوب في السفل، فكان يصنع للنبي ﷺ طعامًا، فإذا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٥.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢١ – ١٢٢.

جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه، فيتتبَّع موضع أصابعه، فصنع له طعامًا فيه ثوم، فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع النبي ﷺ فقيل له: لم يأكل، ففزع وصعد إليه فقال:

أحرام هو ؟ فقال النبي ﷺ: لا، ولكني أكرهه، قال: فإني أكره ما تكره، قال: وكان النبي ﷺ يُؤتَى) [1].

وقوله (يؤتى) يعني يأتيه الملَك، كما جاء في رواية الحاكم (إنك لست مثلي، إني يأتيني الملَك) [2].

وإن ما قام به أبو أيوب الأنصاري من إكرام الرسول ﷺ إلى هذا الحدّ يُعدُّ من مواقفه المأثورة رضي الله عنه.

وكونه ﷺ يُفضِل من الطعام دليل على أن السنة أن يأكل الإنسان قدر طاقته من الطعام وأن ذلك لا يعدُّ جحودًا للنعمة ما لم يكن في ذلك سرف أو خيلاء.

وما جاء في هذه الرواية من تبرُّك أبي أيوب بموضع أصابع النبي ﷺ من الطعام مَثلٌ من حب الصحابة الكبير لرسول الله ﷺ واعتقادهم بفضله العظيم.

(١) صحيح مسلم، رقم ٢٠٥٣، الأشربة / ٣١ (ص١٦٢٣).
(٢) المستدرك ٣/ ٤٦٠.

مثل من جهاد النفس وتحكيم العقل

(إسلام عبد الله بن سلام)

إن مواقف الصحابة رضي الله عنهم في نصرة الإسلام قد أخذت صُوَرًا متعددة، وإن إسلام عبد الله بن سلام ﵁ يتسم بطابع الانتصار في جهاد النفس وانتزاعها من سيطرة الهوى والتقليد الأعمى، فقد كان عبد الله بن سلام من علماء اليهود وسادتهم، فأيقن بأن الإسلام هو الدين الحق وعرف أنه الدين الذي بشر به أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام،فأظهر إسلامه وتحدى بذلك قومه من اليهود.

وكان من خبر إسلامه ما أخرجه الإمام محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى قال:« وكان من حديث عبد الله بن سلام - كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه، وكان حبرًا عالما - قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكَّف له»[1].

وهذا دليل على أن رسول الله ﷺ معروف بعينه لدى اليهود من الأوصاف التي كانت مُبَيَّنة في التوراة والإنجيل، وهذا من علامات نبوة رسول الله ﷺ البارزة، قال تعالى في ذلك: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

---

(١) أي ننتظره.

«قال: فكنت مُسرًّا لذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعْتُ الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرت، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيَّبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا مازدت، قال: فقلت لها: أي عمة هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به».

يعني بذلك أنهما على دين التوحيد الذي بعث الله به جميع الرسل وإن اختلفت شرائعهم فيما يتعلق بتنظيم حياة الناس.

قال: فقالت: أيْ ابن أخي أهو النبي الذي كنا نُخْبَره أنه يُبعث مع نفس الساعة ؟ قال فقلت لها: نعم، قال فقالت: فذاك إذًا.

وهذا دليل على أن بعثة النبي ﷺ معلومة لدى جميع اليهود، وليست خاصة بعلمائهم، وأنه يبعث قبيل الساعة، وهذا موافق لقول رسول الله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى » أخرجه الشيخان[1] .

« قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى

---

(١) صحيح البخاري، الرقاق رقم ٦٥٠٣ (١١/ ٣٤٧) صحيح مسلم، الجمعة رقم ٨٦٧ (ص٥٩٢).

أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا»[1].

قال: وكتمت إسلامي من يهود ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يارسول الله إن يهود قوم بُهْت[2] وإني أحب أن تُدخلني في بعض بيوتك تغيِّبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني».

وهذه شهادة من عالم كان من علماء اليهود تدل على مدى الانحدار الخلقي الذي آل إليه أمر اليهود، حيث أصبحوا لاعهد لهم ولاذمة، وإذا كانت هذه حال أسلاف اليهود وهم أقرب إلى عهد رسالتهم فكيف بخَلَفهم في هذا الزمن ؟ !

---

(١) قد جاء ذكر إسلام عبد الله بن سلام مجملا في هذه الرواية، ولكنه جاء مفصلا في رواية الإمام البخاري عن أنس بن مالك ﷺ وفيها: فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلكَ عن ثلاث لايعلمهنَّ إلا نبي: فما أوَّلُ أشراط الساعة ؟ وماأوَّل طعام أهل الجنة ؟ وما يَنـزِعُ الولدُ إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال: أخبرني بهنَّ جبريل آنفًا. قال: جبريل؟ قال: نعم. قال: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة. فقرأ هذه الآية ﴿من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾، أما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشُر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أولُ طعام أهل الجنة فزيادةُ كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزعَ الولدُ، وإذا سبقَ ماء المرأة نَزعت. قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أنك رسول الله، وسيأتي تخريجه في نهاية عرض هذا الخبر.

(٢) يعني يفترون الكذب.

قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه. ثم قال لهم: «أيُّ رجل فيكم الحصين بن سلام»[1] ؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا[2] .

قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت: يامعشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فو الله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأوصي به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت ثم وقعوا بي[3].

قال: قلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بهت أهل غدر وكذب وفجور؟ » .

وهكذا تحقق ظنه فيهم وبقيت شهادة عليهم من أحد علمائهم الذي كانوا يَعدُّونه من سادتهم.

« قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمتْ عمتي

---

(١) كان هذا اسمه قبل الإسلام.

(٢) جاء في رواية الإمام البخاري أن النبي ﷺ قال لهم: « أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا: حاشا لله ماكان ليسلم، قال: يا ابن سلام اخرج عليهم.

(٣) يعني سبوه وشتموه.

خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها »[1] .

ومما يدل على أن اليهود كانوا يعرفون رسول الله ﷺ بعينه، وأنهم تحققوا من أنه هو النبي المنتظر ما جاء في شهادة صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كنت أحَبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر لم ألقهما قط مع وَلَد لَهُمَا إلا أخذاني دونه، قالت:فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف،غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين[2] .

قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالَّين، كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى قالت: فهششت لهما كما كنت أصنع، فو الله ما التفت إليّ واحد منهما مع مابهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٥٠، وقد أخرج الإمام البيهقي رواية ابن إسحاق من طريق عبد الله بن الأجلح عن محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن يحيى بن عبد الله عن رجل من آل عبد الله بن سلام قال: كان من حديث عبد الله بن سلام. وذكر مثله – دلائل النبوة ٢/ ٥٣٠ –.
وأخرجه الإمام البخاري باختصار في صحيحه، كتاب التفسير،رقم ٤٤٨٠ (٨/ ١٦٥)، وقد قدَّمتُ رواية ابن إسحاق بالذكر لكونها أكثر تفصيلاً للواقع التاريخي للخبر، وذكرت ما في رواية البخاري من الزوائد المفيدة.

(٢) يعني في وقت الغلس وهو ظلمة آخر الليل.

هو ؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتُثْبتُه ؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله مابقيت[1]

فهذا شاهد يدل على معرفة اليهود اليقينية برسول الله ﷺ، وعلى ما جُبلت عليه قلوبهم من التنكر للحق واتباع الهوى.

أما عبد الله بن سلام رضي الله عنه فقد كان من القلائل الذين برئوا من هذه الصفات السيئة، وعمرت قلوبهم بالتجرد والطهارة من الحقد والحسد، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام مع أنه كان سيدًا من سادات اليهود، ولم يمنعه مركزه في قومه من أن يدخل في الإسلام ويكون جنديًّا من جنوده.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٥٣.

مثل من دعوة رسول الله ﷺ

(خبر عبد الله بن أبي في عدم إجابة الدعوة)

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: « أن رسول الله ﷺ ركبَ على حمار على قطيفة فَدَكية، وأردَف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يُسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفي المجلس عبد الله ابن رواحة، فلما غَشيت المجلس عَجاجةُ الدابة خَمَّرَ عبد الله بن أبي أنفَهُ بردائه ثم قال: لاتُغبِّروا علينا، فسلَّم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف فنـزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيُّها المرءُ، إنه لا أحسن مما تقولُ إن كان حقا فلا تُؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رَحلك فمن جاءك فاقصُص عليه. فقال عبدالله بن رواحة: بلى يارسول الله فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك. فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يُخفِّضُهم حتى سكنوا. ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: ياسعد ألم تسمع

ماقال أبوحُباب - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا. قال سعد بن عبادة: يارسول الله اعفُ عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء اللهُ بالحق الذي أنزلَ عليك ولقد اصطلحَ أهل هذه البحيرة على أن يُتَوِّجوهُ فيعصِّبونه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرقَ بذلك، فذلك فعل به مارأيت. فعفا عنه رسول الله ﷺ. وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفونَ عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصطبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]وقال الله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩]إلى آخر الآية-.

وكان النبي ﷺ يتأوَّل العفو ما أمرَهُ الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش قال ابن أبي بنُ سلول ومن معه من المشركين وعبَدة الأوثان: هذا أمرٌ قد

توَجَّه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فأسلموا »[1] .

هذه الواقعة جرت قبل أن يُظهر عبد الله بن أُبي الإسلام نفاقا، كما هو ظاهر في الخبر، وكان ابن أُبيٍّ قبل إظهاره الإسلام يمثل زعامة بقية الوثنيين في المدينة من قومه الخزرج ، ولما رآه النبي ﷺ جالسًا مع أصحابه اغتنم هذه الفرصة ودعاه ومن معه إلى الإسلام، ولكن ابن أُبي كان لئيما مستكبرًا فأساء الرد على رسول الله ﷺ.

وكان ﷺ حليما صبورا حكيما حينما لم يرد عليه، وقد تولى الرد عليه عبد الله بن رواحة ومن معه من المسلمين رضي الله عنهم حيث أظهروا السرور والاعتزاز بدعوة الإسلام.

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٤٥٦٦، كتاب التفسير (٨/ ٢٣٠).

موقف لأسعد بن زرارة
(أول جمعة أقيمت بالمدينة)

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن أبي أمامة سهل بن حنيف عن أبيه أبي أمامة عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي، كعب بن مالك، حين ذهب بصره، فكنتُ إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلى على أبي أمامة، أسعد بن زرارة [1]. قال: فمكث حينًا على ذلك: لايَسْمع الأذان للجُمعة إلا صَلّى عليه واستغفر له، قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لَعَجْز، ألا أسأله ماله إذا سَمع الأذان للجمعة صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة ؟ قال: فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج، فلما سَمع الأذان للجمعة صَلَّى عليه واستغفر له، قال: فقلت له: ياأبت، مالك إذا سمعتَ الأذان للجمعة صليتَ على أبي أمامة ؟ قال: فقال: أي بنُيّ، كان أوَّلَ من جَمَّع بنا بالمدينة في هَزْم النبيت، من حَرّة بني بَيَاضَة، يقال له[2]: نَقيع الخَضمات، قال: قلت: وكم أنتم يومئذ ؟ قال: أربعون رجلا[3] .

---

(١) يعني دعا له وترحم عليه.

(٢) يعني في مكان يقال له.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩ – ٥١.

وهذا موقف يذكر لأسعد بن زرارة رضي الله عنه الذي كان من أبرز الدعاة إلى الإسلام في المدينة، وكان من الستة الذين هم أول من أسلم من أهل المدينة ونقلوا الإسلام إليها، ومن الاثني عشر الذين بايعوا بيعة العقبة الأولى وفي بيته في المدينة نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي أوفده رسول الله ﷺ للدعوة في المدينة وإمامة أهلها، وكان بعد ذلك من أبرز من حضروا بيعة العقبة الثانية، وكان من النقباء الاثني عشر الذين اختارهم رسول الله ﷺ ليكونوا مسؤولين عن قومهم.

وموقف آخر لكعب بن مالك رضي الله عنه حيث ظل يذكر فضل أهل الفضل حتى أواخر حياته، ويكرر ذكر أبي أمامة أسعد بن زرارة كل جمعة ويستغفر له، وهذا دليل على عمق تخلقه بخلق الوفاء الذي يعدُّ من أبرز الأخلاق التي يقوم عليها بناء الأمم.

مثل من جهود النبي ﷺ وصحابته في جهاد المنافقين

قال محمد بن إسحاق – رحمه الله تعالى – بعد أن ذكر أسماء عدد من المنافقين:

وكان هؤلاء المنافقون يحضُرون المسجدَ فيستمعون أحاديث المُسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يومًا في المسجد منهم ناسٌ، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا.

فقام أبو أيوب ؛ خالد بن زيد بن كليب، إلى عمرو بن قيس، أحد بني غنم بن مالك ابن النجار- وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية – فأخذ برجله فسحبه، حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول: أتخرجني يا أبا أيوب من مرْبد بني ثعلبة ! ثم أقبل أبو أيوب أيضًا إلى رافع بن وديعة، أحد بني النجَّار، فلبَّبه بردائه ثم نَتَره نترًا شديدًا، ولطم وجهه، ثم أخرجه من المسجد وأبو أيوب يقول له: أفٍّ لك منافقًا خبيثًا ! أدْراجَك [1] يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ.

وقام عُمارة بن حَزم إلى زيد بن عمرو، وكان رجلاً طويل

(١) قال ابن هشام: أي ارجع من الطريق التي جئت منها.

اللحية، فأخذ بلحيته، فقاده بها قودًا عنيفًا حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عُمارة يديه جميعًا فلَدَمَه بهما في صدره لدمة خرَّ منها (١)، وقال: يقول: خدشتني يا عمارة، فقال: أبعدك الله يا منافق، فما أعدَّ الله لك من العذاب أشدَّ من ذلك، فلا تقربنَّ مسجدَ رسول الله ﷺ.

وقام أبو محمد – رجل من بني النجَّار، كان بدريًّا، وأبو محمد مسعود بن أوْس بن زيد بن أصرم بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك ابن النجار – إلى قيس بن عمرو بن سهل، وكان قيس غلامًا شابًا، وكان لا يُعْلَم في المنافقين شاب غيره، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد.

وقام رجل من بَلْخُدْرة بن الخزرج، رهط أبي سعيد الخدري، يقال له: عبد الله بن الحارث- حين أمر رسول الله ﷺ بإخراج المنافقين من المسجد – على رجل يقال له: الحارث بن عمرو ، كان ذا جمة (٢)، فأخذ بجمته فسحبه بها سحبًا عنيفًا، على ما مرَّ به من الأرض، حتى أخرجه من المسجد، قال: يقول المنافق: لقد أغلظت يا ابن الحارث، فقال له: إنك أهل لذلك، أي عدوَّ الله، لما أنزل الله فيك، فلا تقربن

(١) قال ابن هشام: اللدم الضرب ببطن الكف.

(٢) الجمة ما سقط من شعر الرأس على المنكبين.

مسجد رسول الله ﷺ، فإنك نجس.

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَيِّ بن الحارث، فأخرجه من المسجد إخراجًا عنيفًا وأفف منه، وقال: غلب عليك الشيطانُ وأمرُه.

فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين، وأمر رسول الله ﷺ بإخراجهم[1].

هذا الخبر يدل على انحطاط مستوى هؤلاء المنافقين في السلوك ؛ حيث كانوا يسخرون من المؤمنين ويهزؤون بهم.

وقد كان أمر النبي ﷺ بإخراجهم نوعًا من جهادهم وتطهيرًا للمسجد من عبثهم.

وإن ما قام به هؤلاء الصحابة من إخراج المنافقين من المسجد بعنف يعدُّ شاهدا على قوة إيمانهم وإخلاصهم لدينهم ؛ حيث إن المنافقين المذكورين من قبائلهم فلم يجاملوهم ولم تأخذهم في الله لومة لائم.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٦٨ – ١٦٩.

موقف لرسول الله ﷺ في الحكم بما أنزل الله

(حكمه على اليهود بما في توراتهم)

أخرج مسلم بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: مُرّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّما [(١)] مجلودا فدعاهم النبي ﷺ فقال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا نعم · فدعا رجلا من علمائهم[(٢)] فقال: « أنشدك بالله الذي أنزل التوارة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ » قال لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك نجده الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم فقال رسول الله ﷺ «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه » فأمر به فرجم.

فأنزل الله عز وجل﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ إلى قوله ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾ يقول: ائتوا محمدا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم

---

(١) أي مسود الوجه كما ذكر صاحب القاموس.

(٢) هو عبد الله بن صوريا الأعور كما في رواية الطبري – تفسير الطبري ٦/ ٢٣٢ -.

فاحذروا فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة:٤٤] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧] في الكفار كلها[(١)].

وهكذا عندما ضعف إيمان اليهود بدينهم رأوا أنه ليس بإمكانهم تطبيق حدود الله تعالى على جميع من يرتكبون الجرائم سواء كانوا أغنياء أو فقراء، أقوياء أو ضعفاء، فاصطلحوا فيما بينهم على حدود يمكن أن تقام على الأغنياء والأقوياء،كما تقام على الفقراء والضعفاء، وذلك كحد الزنى، حيث أبدلوا الرجم بالجلد مع تسويد الوجه كما جاء في هذه الرواية.

وكان موقف رسول الله ﷺ منهم في هذا التلاعب بشريعة الله قويا حازما حيث قال: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » وأمر بذلك الزاني فرجم.

وهكذا ضرب النبي ﷺ لأمته مثلاً عاليًا في تطبيق حدود الله تعالى على الكبير والصغير.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، رقم ١٧٠٠ (ص١٣٢٧).

مواقف لرسول الله ﷺ في بناء المجتمع الإسلامي
(صحيفة المعاهدة بين أهل المدينة)

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبيِّ ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويَثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس.

وإن المؤمنين لايتركون مُفْرحًا[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين[2]، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان وَلدَ أحدهم.

ولايَقْتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر، ولاينصر كافرًا على مؤمن، وإن

---

(١) قال ابن هشام: المُفرَح المثقل بالدين الكثير العيال.

(٢) الدَّسيعة هي العطية، وتطلق على دفع المكروه أي منْ طلب عطية أو دفع مكروه على وجه الظلم والإثم والعدوان والفساد – النهاية ٢/ ١١٧.

ذمة الله واحدة يُجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس[(١)] .

وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلا عن بَيّنة فإنه قَودٌ به[(٢)] إلا أن يرضي وليّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه[(٣)] .

وبعد: فهذا كتاب عظيم اشتمل على قضايا كثيرة بالغة الأهمية في النواحي الاجتماعية والسياسية والإدارية والجهادية وقد اكتفيت بذكر فقرات من هذه الصحيفة وهي التي لاتختص بذلك العصر، وسأقف وقفات سريعة مع هذه الفقرات لالتماس بعض المواقف النافعة.

١ - قول الرسول ﷺ عن المسلمين من أهل المدينة « إنهم أمة واحدة من دون الناس » فالمسلمون أمة متميزة على جميع الناس في جميع نواحي الكمال البشري.

أمة موحِّدة يعبدون إلها واحدا جل جلاله .. بينما يتخبط الناس في متاهات من الشرك والحيرة والضلال.

---

(١) أي يتولى بعضهم بعضا بالمحبة والنصرة دون سائر الناس.

(٢) أي من قتل مؤمنا بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله فإن القاتل يقاد به فيقتل – النهاية ٣/ ١٧٢.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٣٠ – ١٣٤، وقد ذكر هذه الصحيفة الدكتور أكرم العمري في كتابه « المجتمع المدني في عهد النبوة ص ١٠٧ ورد على من حكم عليها بأنها موضوعة ».

أمة تمتاز بأهدافها العالية، ومناهجها القويمة .. يتنافس أفرادها على أعمال الآخرة، ويسخِّرون دنياهم لآخرتهم، بينما يتنافس الناس على دنياهم.

٢- « وإن المؤمنين لايتركون مُفْرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل» فهم لايتركون المُثْقَل بالديون كثير العيال يصارع مشكلاته وحده، ويوزع فكره بين همِّ سداد الدين، وهمِّ الإنفاق على العيال، بل يسارعون إلى مد أيديهم إليه لسداد دينه، والرفع من مستواه المعيشي، ويتنافسون على هذا المطلب النبيل.

٣ – « وإن المؤمنين المتقين على من بَغَى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم ».

فالمؤمنون وصف عام يشمل من وُجد عندهم أصل الإيمان وإن لم يكن مؤثرًا على سلوكهم تأثيرًا قويًّا، بينما المتقون هم الذين بلغ عندهم الإيمان درجة التأثير القوي على سلوكهم، فَتَكَوَّن عندهم وازع ديني يدفعهم إلى امتثال الواجبات واجتناب المنهيات، وهؤلاء هم الجديرون بأن يُلقَى عليهم هذا التوجيه النبوي الكريم.

فهؤلاء المتقون يد واحدة على من بغى منهم فجاوز حدود

الاستقامة، إما بفعل مباشر منه أو بطلب شيء لا يحل له من عطية مال أو حق معنوي يكون فيه ظالما معتديًا على غيره مفسدًا بذلك مجتمع المؤمنين، فإن أيدي هؤلاء المؤمنين المتقين تتحول إلى يد واحدة تأخذ على يد الظالم ولو كان من أبنائهم حتى تردَعَه عن الظلم .

٤ – «ولا يَقتُل مؤمن مؤمنا بكافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن».

وفي هذا بيان واضح لحرمة المسلم وقيمته الكبرى، فهو إنسان كغيره من حيث التكوين، ولكنه حينما يحل الإيمان في قلبه يتبدَّل إلى إنسان آخر.

إنه يحمل الجوهرة العظمى التي لامثيل لها في حياة الناس، وهل أعظم من أنه قد انفتح له الطريق النوراني الذي بينه وبين الله تعالى ؟ !

فمهما كانت عظمة الكافر في عرف أهل الدنيا فإن دمه لا يكافيء أدنى فرد مسلم.

ولا يجوز لمؤمن أن ينصر كافرا على مؤمن، لأن ذلك يُخل بعقيدته التي من أصولها الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين.

٥ – « وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين موالي بعض دون الناس».

فأمر المؤمنين واضح لكبيرهم وصغيرهم، لأنهم إنما ينفذون

شريعة الله تعالى، وهي معلومة لكل من يدخل في مجال الجهاد فيما يتعلق بأمور السلم والحرب، ولاتتغير بتغير الأمير أو القائد، وإنما تنقسم إلى أمور واضحة لكل أفراد المسلمين المشاركين في الجهاد، وأمور فيها غموض، فهي تحتاج إلى اجتهاد من علماء الدين، فإذا كانت في الأمور الواضحة فإن الحديث عنها لايختلف سواء تحدث بها أكابر المسلمين أو أصاغرهم.

ومن هذا المنطلق استطاع ربعي بن عامر أن يحدِّد لقائد الفرس رستم مدة الهدنة يوم القادسية، وأن ينذره بالحرب في موعد معين مع أن ربعي بن عامر ليس أمير الجيش ولا من قادته، وإنما هو موفد إلى جيش الفرس، حيث قال لرستم: إن مما سنَّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لانُمكِّن الأعداء من آذاننا ولانؤجِّلَهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثا، فانظر في أمرك وأمرهم.. إلى أن قال: أنا كفيل لك بذلك عن أصحابي وعلى جميع من ترى، قال: - يعني رستم -: أسيّدهم أنت ؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم[1] .

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٠.

فقول ربعي « يجير أدناهم على أعلاهم » مأخوذ مما جاء في هذه الصحيفة.

وهذا لايعني أن يُقرِّر فرد أو أفراد من المسلمين قضايا السلم أو الحرب مع الأعداء بمقتضى رأيه أو آراء أفراد آخرين، والذي تم من ربعي بن عامر كان تطبيقا لسنة رسول الله ﷺ، وإذا لم يكن في الأمر نص شرعي فإن الأمر يكون بالشورى بين القائد وأهل الحل والعقد لأن ذلك يحتاج إلى نظر من أهل العلم والرأي، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ في هذه الصحيفة « وإن سلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم » .

٦ - « وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول،وإن المؤمنين عليه كافة،ولا يحل لهم إلا قيام عليه».

وبهذا أقر النبي ﷺ قواعد الأمن للمجتمع المسلم، فقد كان الناس في الجاهلية لايأمنون على أنفسهم، حيث كان المبدأ السائد فيهم هو الأخذ بالثأر من أي فرد من أفراد القبيلة التي اعتدى أحد أفرادها، فالإنسان لايأمن على نفسه وإن حفظ نفسه وأسرته من الاعتداء،لأن أي فرد من أفراد القبيلة يَعتدي يكون جميع أفراد القبيلة معرضين للقتل .

ولقد أبطل الإسلام مبدأ الأخذ بالثأر، وشرع القصاص من المعتدي دون أفراد قبيلته .

ويُبيِّن النبي ﷺ أن على المسلمين كـافة أن يكونوا جميعا ضد المعتدي، وأنه لايجوز لهم السكوت عنه حتى يُحكم عليه بحكم الشريعة، وإن كان من أقرب الناس إليهم.

ولاشك أن تطبيق هذا الحكم ينتجُ عنه استتباب الأمن في المجتمع، وهذا هو الذي تم في المجتمع الإسلامي منذ أن طبق المسلمون هذا الحكم.

وفد النصارى وخبر المباهلة

قال ابن إسحاق: وقَدم على رسول الله ﷺ وفْدُ نصارى نجْرَانَ[١]، ستُّون راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، في الأربعة عشرَ منهم ثلاثةُ نفر إليهم يؤول أمْرُهم: العاقب، أميرُ القوم وذو رَأيهم، وصاحب مشُورتهم والذي لايصدُرون إلا عن رأيه واسمُه عبد المسيح، والسيّد ثمالُهم[٢] وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل أُسقفهم[٣] وحبرهم وإمامهم وصاحب مدرَاسهم.

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، حتى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه وملوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

فلما وجَّهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له موجِّهًا إلى رسول الله ﷺ، وإلى جَنْبه أخٌ له، يقال له: كُوز بن

(١) نجران مدينة تقع جنوب غرب السعودية على بعد ٩١٠كم جنوب شرقي مكة- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية – ص ٣١٤ .

(٢) أي قوامهم وغياثهم.

(٣) أي زعيمهم الديني.

عَلقمة[1]، فعثرت بغلة أبي حارثة، فقال كوز: تعس الأبْعد يريد رسول الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست فقال ولمَ يا أخي ؟ قال: والله إنه للنَّبي الذي كنّا ننتظرهُ، فقال له كوز: ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرَّفونا ومَوَّلونا وأكرمونا، وقد أبَوْا إلاّ خِلاَفه، فلو فعلتُ نزعوا منّا كلَّ ماترى، فأضمر عليها منه أخوه كوز بن عَلقمة، حتى أسلم بعد ذلك، فهو كان يُحدّث عنه هذا الحديث فيما بلغني.

وهكذا كان كثير من علماء النصارى واليهود يعتقدون في رسول الله ﷺ أنه النبي المنتظر الذي بشَّر به أنبياؤهم، ولكن لم ينفعهم هذا الاعتقاد ولم يُعَدُّوا به مسلمين لأنهم لم يدخلوا في الإسلام.

قال ابن هشام: وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتبًا عندهم، فكلما مات رئيسٌ منهم فأفضت الرياسة إلى غيره، ختم على تلك الكتب خاتمًا مع الخواتم التي كانت قبله ولم يَكسرها، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي فعثر، فقال له ابنه: تعس الأبعدُ ! يريد النبي ﷺ، فقال له أبوه: لاتفعل، فإنه نبي، واسمه في

(١) قال ابن هشام: ويقال: كُرْز.

الوضائع، يعني في الكتب، فلما مات لم تكن لابنه همَّة إلا أن شد فكسر الخواتم، فوجد فيها ذكر النبي ﷺ، فأسلم فحُسن إسلامُه وحج، وهو الذي يقول:

إليك تَعْدو قَلقًا وَضينُها[1] مُعْتَرِضًا في بطنها جَنينُها

مُخالفًا دينَ النصارى دينُها[2]

ومن هذا الخبر وأمثاله يتبين لنا أن كثيرًا من علماء أهل الكتاب كانوا يعـرفون الرسول ﷺ ويعلمون انطباق الصفات التي جاءت في كتبهم عليه، كما جاء في قول الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:١٩٧] فمنهم من هداه الله تعالى كهذا الرجل وكعبد الله بن سلام، ومنهم من اتبعوا أهواءهم وهم الأكثر.

ومن هذا نعلم خطورة اتباع الهوى حيث يقود صاحبه إلى الشقاء الدائم في حياة الخلود ويحرمه من النعيم الخالد في تلك الدار، فما أشقى هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم وألغوا تحكيم عقولهم !

---

(١) قال ابن هشام: الوضين الحزام.

(٢) وقد أخرج هذا الخبر الإمام البيهقي من طريق شيخه الحاكم بإسناده عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال. حدثنا بريدة بن سفيان عن ابن البيلماني عن كوز بن علقمة – دلائل النبوة ٥/ ٣٨٢ – ٣٨٣.

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات، جُبَب وأرْدية، في جَمال رجال بني الحارث بين كعب. قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: دعُوهم فصلَّوا إلى المشرق.

ثم ذكر ابن إسحاق أسماء زعمائهم الأربعة عشر، وذكر شيئًا من اعتقادهم، ثم ذكر نزول سورة آل عمران فيهم من أولها، إلى آية المباهلة وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] (١).

إلى أن ذكر آخر هذه الآيات التي نزلت فيهم وهي قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ

(١) قال ابن هشام: قال أبو عبيدة: نبتهل ندعو باللعنة.

ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

قال: فدعاهم إلى النَّصَف وقطع عنهم الحجة.

فلما أتى رسول الله ﷺ الخبرُ من الله عنهم، والفَصْلُ من القضاء بينه وبينهم، وأُمر بما أمر به من مُلاعنتهم إنْ ردّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا له: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن تفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَوا بالعاقب وكان ذا رأيهم، فقالوا: ياعبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال: والله يامعشر النصارى لقد عَرَفتم إن محمدًا لنبي مُرْسل، ولقد جاءكم بالفصل من خَبَر صاحبكم، ولقد عَلمتم ما لاَعن قومٌ نبيًّا قطُّ فبقى كبيرُهم، ولانَبَت صغيرُهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة إلى بلادكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم، فأتَوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نُلاَعنك، وأن نَتْركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك تَرْضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضًى .

قال محمدُ بن جعفر: فقال رسول الله ﷺ ائْتوني العشيّةَ أبعثْ معكم القويَّ الأمين، قال: فكان عمرُ بن الخطاب يقول: ما أحببت

الإمارة قطُّ حبِّي إياها يومئذ، رجاءَ أن أكون صاحبها، فرُحْتُ إلى الظُّهر مهجِّرًا[1]، فلما صلى بنا رسولُ الله ﷺ الظهر سَلَّم، ثم نَظر عن يمينه وعن يساره، فجعلت أتطاول له ليَراني، فلم يَزَلْ يلتمس ببَصره حتى رأى أبا عُبيدة بن الجرّاح، فدعاه فقال: اخْرُج معهم فاقض بينهم بالحقّ فيما اختلفوا فيه. قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة»[2].

وهذه منقبة عظمى لأبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه حيث حاز على الوصفين اللازمين للقيام بأي عمل من الأعمال، وهما القوة والأمانة كما قال الله تعالى حكاية عن ابنة شعيب: ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦] فالقوة تعني المقدرة على تحمل المسؤولية وأدائها ويدخل في ذلك الخبرة الكافية في العمل، والأمانة تعني الاستعداد الكامل لتنفيذ الحق، والتجرد الكامل من اتباع الهوى.

---

(١) يعني مبكرًا.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٧ – ٢٥٥ وأخرج هذا الخبر مختصرًا الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، رقم ٤٣٨٠ (٨/ ٩٣).

موقف لسعد بن معاذ في تحدي الكفار

أخرج الإمام أبوعبد الله البخاري من حديث عبد الله بن مسعود أن سعد بن معاذ حدثه أنه كان صديقا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا فنـزل على أمية بمكة فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك ؟فقال: هذا سعد،فقال له أبو جهل:ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ! أما والله لولا أنك مع أبي صفوان مارجعت إلى أهلك سالما، فقال له سعد–ورفع صوته عليه-:أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ماهو أشد عليك: طريقك على المدينة، فقال له أمية:لاترفع صوتك ياسعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا عنك يا أمية فو الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنهم قاتلوك، قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا وفي رواية قال: فو الله مايكذب محمد إذا حدث.

فلما رجع أمية إلى أهله قال: ياأم صفوان ألم تَرَيْ ما قال لي سعد؟ قالت: وماقال لك ؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتليَّ، فقلت

له: بمكة ؟ قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج فأتاه أبو جهل فقال:يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني فو الله لأشترين أجود بعير بمكة-يعني لينجو عليه إذا أراد – ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ قال: لا أريد أن أجوز معهم إلا قريبا، فلما خرج أمية أخذ لاينـزل منـزلا إلا عقل بعيره فلم يزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر»[(١)] .

وهكذا رأينا سعد بن معاذ رضي الله عنه يظهر الاعتزاز بإسلامه ويتحدى الكفار فيطوف حول الكعبة نهارًا، وإنها لمغامرة جريئة لأنه سيد الأوس من الأنصار وأعظمهم نصرًا للإسلام وإيواء لرسول الله ﷺ،وإن في مجادلته أبا جهل مع ماعرف عنه من التصلب في عداء المسلمين دلالة ظاهرة على قوة إيمان سعد ورسوخ يقينه.

وفي تهديده بقطع الطريق على تجار قريش إن منعوه من الطواف دليل على أهمية استيلاء المسلمين على المواقع المهمة التي تتوقف

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٩٥٠ و ٣٦٣٢.

مصالح الأعداء على أمنها وسلامتها.

وفي واقعنا المعاصر نجد أن أكثر الحروب تقوم على المصالح الاقتصادية، فالدول التي تستولي على قدر أكبر من القوة المالية تكون هي الأقوى في الهيمنة على الأرض والسيطرة على الناس، ولكن هذه الدول القوية لاتقوم عادة إلا على وجود أمم تتسم بالضعف والجهل بالمصالح المادية، وطرقها المتشعبة، فتغتنم ذلك الأمم المتفتحة نحو الدنيا.

والامة الإسلامية اليوم لو توافر لها الوعي الصحيح والإيمان القوي فإنها تستطيع أن تشل حركة الأمم القوية الطاغية المعتدية على حقوق الأمم الأخرى.

وبذلك فإن تلك الأمم الطاغية تخضع وتتنازل عن كثير من مظاهر طغيانها.

بل إن الأمر في هذا الزمن أيسر بكثير مما كان عليه في الأزمنة السابقة، لأن حياة الأمم القوية تقوم على تصدير المنتجات للأمم الأخرى، فلو أن هذه الأمم المستوردة أوقفت استيراد السلع من الأمم الطاغية لاستطاعت أن تقضي على كثير من مصانعها وأن تشل حياتها، وهذا العمل ميسور، باستطاعة أي أمة أن تطبقه، خصوصًا مع وجود التنافس الشديد بين الدول المصدرة، وليس كل هذه الدول

تحمل العدوان للمسلمين، فبإمكان المسلمين أن يتاجروا مع الدول المسالمة لهم.

وقول سعد « دعنا عنك يا أمية فو الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول إنهم قاتلوك» براعة منه في صرف اهتمام الرجلين عن قضية طوافه التي يدور حولها النـزاع إلى موضوع يهمهما أكثر من ذلك، فاشتغلا به وتركا موضوع الجدال الأول.

وهو قبل ذلك توفيق من الله تعالى، حيث ألهم سعدًا هذه الفكرة التي كان بها خلاصه من ذلك المأزق، وإنما يترتب توفيق الله تعالى على تقوى العبد المبنية على الإيمان والإخلاص كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ [الطلاق: ٢] وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ [الطلاق: ٤]، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩]، وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولاشك أن الصحابة رضي الله عنهم قد حظوا من الإيمان والتقوى بحظ وافر.

مثل من تسامح النبي ﷺ واهتمامه بالدعوة

(فداء أبي العاص بن الربيع)

قال ابن إسحاق: وحدّثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عــن أبيه عباد، عن عائشة، قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسرائهم،بعثت زينبُ بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال،وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها[١]،قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال:إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها،وتردوا عليها مالها، فافعلوا، فقالوا: نعم،يارسول الله فأطلقوه،وردّوا عليها الذي كان لها[٢].

في هذا الخبر نجد أن النبي ﷺ منَّ على صهره أبي العاص بن الربيع فأطلقه بغير فداء، وردَّ القلادة التي بعثت بها زوجته زينب بنت النبي ﷺ لفدائه وهذا الموقف إلى جانب ما يظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه ﷺعلى ابنته، فهو يحمل في طياته مقصدًا آخر أهمّ،

---

(١) ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ زوّج أبا العاص بن الربيع قبل الإسلام، وأن زينب بقيت في ذمته وهو مشرك؛ لأنه ﷺ لايستطيع وهو بمكة أن ينفذ الأحكام الشرعية التي تتعلق بالكفار، ثم خرج أبو العاص يوم بدر وأُسر مع من أسر.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٤٧ – ٣٤٨، وإسناده حسن وأخرجه الإمام أحمد من طريق بن إسحاق بهذا الإسناد، وذكر مثله، الفتح الرباني: ١٤/ ١٠٠ – ١٠١.

وهو أنه كان يتألفه للإسلام بذلك لما عرف عنه من العقل السديد والرأي الرشيد، فقد كان النبي ﷺ يثني عليه وهو على شركه بحسن المعاملة.

وبمقابل هذا العطف نجد أن النبي ﷺ قد تشدد مع عمه العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه كما أخرج الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، قال:« والله لاتذرون منه درهما» [1]،وكما أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الذي أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو وهو كعب بن عمرو أحد بني سلمة فقال له رسول الله ﷺ: «كيف أسرته يا أبا اليسر ؟» قال: لقد أعانني عليه رجل ما رأيته بعد ولاقبل هيئته كذا هيئته كذا قال فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم» وقال للعباس: «ياعباس، افد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن جحدم أحد بني الحارث ابن فهر» قال: فإني كنت مسلمًا قبل ذلك وإنما استكرهوني قال: «الله

---

(١) صحيح البخاري، المغازي، ٧/ ٣٢١، رقم: ٤٠١٨.

أعلم بشأنك إن يك ما تدَّعي حقًّا فالله يجزيك بذلك فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك»، وقد كان رسول الله ﷺ قد أخذ معه عشرين أوقية ذهب فقال: يارسول الله احسبها لي من فدائي قال:« لا ذلك شيء أعطانا الله منك» قال: فإنه ليس لي مال قال:« فأين المال الذي وضعته بمكة حين خرجت عند أم الفضل وليس معكما غيركما أحد فقلت إن أُصبت في سفري هذا فللفضل كذا،ولُقثَم كذا، ولعبد الله كذا ؟» قال: فو الذي بعثك بالحق ما علم به أحد من الناس غيري وغيرها وإني أعلم أنك رسول الله، ذكره الحافظ الهيثمي وقال: فيه راوٍ لم يسمَّ وبقية رجاله ثقات (١).

وهذا يعني أن النبي ﷺ لم يراع أبا العاص بن الربيع لمجرد كونه صهره،وإنما كان ذلك لغرض ديني وهو محاولة اجتذابه إلى الإسلام.

وقد عامله النبي ﷺ بمثل ذلك من التسامح كما سيأتي، مما كان سببًا في دخوله في الإسلام رضي الله عنه.

---

(١) مجمع الزوائد: ٦/ ٨٥ – ٨٦.

مثل من الصبر الجميل

هجرة زينب بنت رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق: وكان رسولُ الله ﷺ قد أخذ عليه [1]، أو وَعد رسولَ الله ﷺ ذلك، أن يُخَلِّي سبيلَ زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه في إطلاقه [يعني لما أسر يوم بدر]، ولم يَظْهَر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيُعْلَم ماهو، إلا أنه لمّا خرج أبو العاص إلى مكة وخُلّي سبيلُه، بعث رسولُ الله زيدَ بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه، فقال: كونا ببطن يَأجَجَ [2] حتى تمرّ بكما زينبُ، فَتصَحباها حتى تَأتياني بها، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بَدْر بشهر أو شَيْعه [3] فلما قدم أبو العاص مكة أمَرها باللّحوق بأبيها فخرجت تجهَّز.

قال ابن إسحاق: فحدّثني عبد الله بن أبي بكر قال: حُدِّثت عن زينب أنها قالت:بينا أنا أتجهّز بمكة للُّحوق بأبي لقيتْني هندُ بنت عُتبة، فقالت: يابنت محمد، ألم يبلغني أنّك تريدين اللحوق بأبيك ؟ فقلت: ماأردْتُ ذلك، فقالت: أي ابنة عمي، لاتفعلي، إن كانت لك حاجةٌ

---

(١) أي على صهره أبي العاص بن الربيع، وكان آنذاك مايزال على كفره وقد أسر ببدر كما سبق ثم أسلم كما سيأتي.

(٢) هو مكان قرب مكة بينه وبين التنعيم ميلان.

(٣) أي نحوه.

بمتاع ممَّا يرْفُق بك في سفرك، أو بمال تَتَبلَّغين به إلى أبيك، فإن عندي حاجَتك، فلا تَضْطَني منّي[1]،فإنه لايدخل بين النساء مابين الرجال. قالت: والله ماأراها قالت ذلك إلا لتفْعل، قالت: ولكني خفْتُها، فأنكرتُ أن أكون أُريد ذلك وتجهّزت.

فلما فرغتْ بنتُ رسول الله ﷺ من جهازها قدَّم لها حَمُوها كنانةُ ابن الرّبيع أخو زَوجها بعيرًا فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهارًا يقود بها وهي في هودج لها، وتحدّث بذلك رجالٌ من قريش فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طُوى، فكان أول من سبق إليها هَبَّار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزّى الفهْري، فروّعها هبَّار بالرمح وهي في هَوْدجها، وكانت المرأةُ حاملاً – فيما يزعمون – فلما ريعَتْ طَرحتْ ذا بطْنها وبرك حموها كنانةُ ونثر كنانته، ثم قال: والله لايدنو مني رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهمًا، فتكَرْكر الناسُ عنه.

وأتى أبو سفيان في جلَّة من قُريش، فقال: أيها الرجل، كفّ عنا نَبْلك حتى نكلّمك، فكفّ،فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تُصبْ،خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانيةً وقد عرفت

---

(١) أي لاتستحي مني.

مصيبتنا ونكبتنا ومادخل علينا من محمد، فيظنّ الناسُ إذا خرجتَ بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذلّ أصابنا عن مُصيبتنا التي كانت،وأنّ ذلك منا ضَعف ووَهن، ولعمري مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة،ومالنا في ذلك من ثؤْرة[1] ولكن ارجع بالمرأة،حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناسُ أن قد ردَدْناها فسُلَّها سرّا وألْحقها بأبيها.

قال: ففعل، فأقامت ليالي، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه فقَدما بها على رسول الله ﷺ.

ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتْهم هندُ بنت عتبة، فقالت لهم:

أفي السَّلْم أعْيَارٌ جَـــفاءً وَغلْظَةً
وفي الحرب أشباه النِّساء العَوارك[2]

وقال كنانةُ بن الربيع في أمر زَينب، حين دَفعها إلى الرجلين:

---

(١) أي طلب ثأر وإدراكه.

(٢) الأعيار جمع عير بفتح العين وهو الحمار، والعوارك الحُيَّض، يقال: عركت المرأة إذا حاضت.

عَجْبتُ لهبّـار وأوْباش قَـوْمــــه

يُريـدون إخـفـــــاري ببنت محمد

ولست أبالي ماحَييتُ عديدهــم

وما استجمعت قبضًا يدي بالمهند[1]

وأخرجه الإمام أبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذي لها، فقالوا: نعم.

ثم ذكر نحو رواية ابن إسحاق مختصرا[2].

وهذا موقف عظيم من رسول الله ﷺ، فقد كان هو الحاكم والآمر والناهي، وكان باستطاعته أن يأمر بفك أسره ورد تلك القلادة من غير أن يعرض الأمر لأخذ موافقة الصحابة رضي الله عنهم، ولكن الله تعالى اصطفى نبيه ﷺ ليكون ممثلا للقمة في مكارم الأخلاق، حيث إنه القدوة العليا لأمته في تنفيذ شريعة الله تعالى.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤٨ – ٣٥٢.

(٢) سنن أبي داود، رقم ٢٦٩٢، الجهاد (٣/ ١٤٠).

وإذا كان هذا السلوك منه وهو نبي معصوم فكيف بالمسؤولين من البشر العاديين إذا استبدوا بالأمر من غير مشورة ولا اعتبار لأصول السياسية الشرعية ؟!

في هذا الخبر بيان لما كان يتعرض له الصحابة رضي الله عنهم من الأذى والإرهاب من الكفار، فقد نال ذلك حتى النساء مع أن العرب كانوا يحترمون النساء ويترفعون عن أذيتهن.

لقد تعرضت زينب بنت رسول الله ﷺ لذلك الأذى والإرهاب على يد أولئك السفهاء الجفاة،وإن كل مايصيب أحد أفراد الأسرة النبوية يُعدُّ إيذاء لرسول الله ﷺ،فكم تحمَّل من الأذى في نفسه وأسرته!

ولقد كان أولئك الذين خرجوا لصد زينب رضي الله عنها جبناء في غاية النذالة حيث أظهروا شجاعتهم في صد امرأة لاحول لها ولاقوة.

ولقد أجادت هند بنت عتبة في وصفهم حيث شبهتهم بالحمير في السلم وبالنساء في الحرب، كما أن لها موقفا مشكورًا حيث عرضت الخدمة والمال على زينب لما سمعت بعزمها على الهجرة.

وموقف شهامة يذكر لكنانة بن الربيع حيث تحدى أولئك الجبناء أن يقتربوا منه فتراجعوا بينما أقدم أحدهم على ترويع امرأة في هودجها.

موقف للصحابة بعد أحد
في الرد على المنافقين واليهود

قال الواقدي في سياق رواية له: ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة عند نكبةٍ قد أصابت أصحابه، وأصيب رسول الله ﷺ في نفسه.

فجعل ابن أُبي والمنافقون معه يشمَتون ويُسرُّون بما أصابهم ويُظهرون أقبح القول،ورجع من رجع من أصحابه وعامتهم جريحٌ، ورجع عبد الله بن عبد الله بن أُبي وهو جريح، فبات يكوي الجراحة بالنار حتى ذهب الليل، وجعل أبوه يقول: ما كان خروجك معه إلى هذا الوجه برأي ! عصاني محمد وأطاع الولدان، والله لكأني كنت أنظر إلى هذا، فقال ابنه: الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خيرٌ.

وأظهرت اليهود القول السيئ،فقالوا:ما محمد إلا طالب مُلك، ما أصيب هكذا نبي قط، أصيب في بدنه وأصيب في أصحابه ! وجعل المنافقون يُخذِّلون عن رسول الله ﷺ أصحابه ويأمرونهم بالتفرق عن رسول الله ﷺ، وجعل المنافقون يقولون لأصحاب رسول الله ﷺ: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل، حتى سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك في أماكن، فمشى إلى رسول الله ﷺ ؛ ليستأذنه في قتل من سمع ذلك من اليهود والمنافقين، فقال رسول الله ﷺ: « يا عمر، إن الله

مُظهر دينه ومُعزُّ نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم »، قال: فهؤلاء المنافقون يارسول الله! فقال رسول الله ﷺ: « أليس يُظهرون شهادة ألا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » قال: بلى يا رسول الله، وإنما يفعلون ذلك تعوُّذًا من السيف، فقد بان لهم أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة، فقال رسول الله ﷺ: «نُهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، يا ابن الخطاب إن قريشًا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن [1]».

في هذا الخبر أمثلة مما صدر من المنافقين واليهود من الشماتة بالمسلمين في مصابهم بأحد، فقد أظهر عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول نفاقه في تحسير المسلمين وتوهين رأيهم حينما خرجوا لقتال عدوهم والتَّبَجُّح بترديد رأيه الذي أبداه قبل المعركة حيث أشار بعدم الخروج، ولكن ابنه عبد الله رضي الله عنه رد عليه ردَّ المؤمن التقي الذي يكل الأمور كلها إلى الله تعالى حيث أبان لأبيه أن ما أصاب المسلمين إنما هو بقضاء الله تعالى وقدره، والمؤمن الحق يرضى بقضاء الله تعالى وقدره ويصبر على بلائه، وبذلك أسكت أباه الذي لا

(١) مفازي الواقدي: ١/ ٣١٧–٣١٨.

يستطيع أن يحاوره في هذا المنهج الذي لا يتصوره على الحقيقة لأنه لا يؤمن به بقلبه ولا يستطيع أن يظهر كفره بذلك لأنه قد ارتضى النفاق منهجًا له في الحياة.

ونجد في هذا الخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسوؤه ما يسمع من المنافقين واليهود من نفَثَات الحقد والضغينة وعبارات التَّشفِّي من المؤمنين فيمشي إلى رسول الله ﷺ يستأذنه في قتل من سمع منهم ذلك الكلام السيء، ولكن النبي ﷺ يبين له أن الله تعالى مظهر دينه ومعزٌّ نبيه ولو كره ذلك اليهود والمنافقون وأظهروا عداءهم بالحرب النفسية التي يتقنها الجبناء عادة ويرون فيها عزاء لأنفسهم المريضة من تخلفهم عن الجهاد الذي يعشقه الرجال الأبطال.

كما أبان له أن لليهود ذمة وأنه لا يجوز نقض العهد إلا إذا بدر منهم العداء الحربي، وأن المنافقين قد أظهروا الإسلام وأن الله تعالى نهاه عن قتل من نطق بالشهادتين.

ونظرًا لكون المؤمنين الصادقين – ومنهم عمر – يَحُزُّ في نفوسهم أن يروا الكفار من اليهود والمنافقين يسرحون ويمرحون في المدينة ويأخذون حريتهم في الكلام الذي يسوء المؤمنين، مع ما أصابهم به أعداؤهم من كفار مكة فإن النبي ﷺ بشَّر عمر ببشرى تَطْمئن لها

قلوب المؤمنين حيث أفاده بأن كفار مكة لن ينالوا من المسلمين مثل ما نالوا ذلك اليوم وأن الله تعالى سيفتح لهم مكة وستنتهي دولة الكفار فيها، فكأن النبي ﷺ أراد أن يقول لعمر أبشر فإن المنافقين واليهود لن يفرحوا علينا ولن يشمتوا بنا بعد اليوم لأننا لن نصاب بمثل ما أُصبنا به في أحد.

وهكذا يضع رسول الله الأمور مواضعها فلا يستجيب لطلب عمر لَمَا يترتب عليه من نتائج سيئة على المسلمين في المستقبل، ولكنه في الوقت نفسه لا يتركه في تأجج نفسي واضطراب فكري، بل يُعزِّيه ويواسيه – هو وأصحابه- بما يرفع من نفوسهم شبح تكرر المأساة وتكرر شماتة الأعداء، وكونها إصابة واحدة وتنتهي وينتهي معها تشفِّي الأعداء يُسلِّي النفوس ويقوي فيها الصبر والتهوين من شأن الأعداء في حروبهم القتالية والنفسية.

مثل من نفاق ابن أُبي ومواقف لبعض الأنصار

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه: قالوا: فكان لعبد الله بن أُبي مقام يقومه كل جمعة شرفًا له لا يريد تركه، فلما رجع رسول الله ﷺ من أحد إلى المدينة جلس على المنبر يوم جمعة، فقام ابن أبي فقال: هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، قد أكرمكم الله به، انصروه وأطيعوه، فلما صنع بأحد ما صنع قام ؛ ليفعل ذلك، فقام إليه المسلمون، فقالوا: اجلس ياعدو الله ! وقام إليه أبو أيوب وعبادة بن الصامت، وكانا أشد من كان عليه ممن حضر، ولم يقم إليه أحد من المهاجرين، فجعل أبو أيوب يأخذ بلحيته، وعبادة بن الصامت يدفع في رقبته، ويقولان له: لست لهذا المقام بأهل! فخرج بعدما أرسلاه، وهو يتخطى رقاب الناس وهو يقول: كأنما قلت هُجْرا [1]، قمت لأشد أمره ! فلقيه مُعوِّذ ابن عفراء فقال: مالك ؟قال:قمت ذلك المقام الذي كنت أقوم أولاً، فقام إليَّ رجال من قومي، فكان أشدهم عليَّ عبادة، وخالد بن زيد. فقال له: ارجع فيستغفر لك رسول الله. فقال: والله ما أبغي يستغفر لي. فنزلت هذه الآية: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول

(١) أي: قبيحًا من الكلام.

الله..﴾ (١) الآية، قال: ولكأني أنظر إلى ابنه جالس في الناس، ما يشدُّ الطرف إليه.فجعل يقول:أخرجني محمد من مِرْبد سهل وسُهيل (٢).

في هذا الخبر صورة من صور النفاق التي كان عبد الله بن أُبي وجماعته من المنافقين يجيدونها ويتظاهرون بها.

وقد كانوا جميعًا يؤدون تكاليف الإسلام الظاهرة كالصلاة، ويحرصون على أدائها في المسجد أحيانًا؛ ليراهم المؤمنون، ولقد كان هذا الأمر محتملاً منهم ؛ لأن تلك الأمور واجبات ظاهرة لابد أن يؤدوها وإلا اتُّهموا في دينهم، أما أن يتحولوا من مرحلة الالتزام الشخصي إلى مرحلة الدعوة إلى الإسلام، فهذا ما أنكره بشدة على ابن أُبي جماعته من الأنصار وقد حصل منه ما حصل يوم أحد.

ولقد كان موقفًا مشكورًا من أبي أيوب خالد بن زيد وعبادة بن الصامت الأنصاريَّين ومن كان معهما من الأنصار؛ حيث أسكتوا ابن أُبي وجروه وأخرجوه من المسجد بقوةٍ، وأبانوا له بأنه ليس بأهل أن

---

(١) تكملتها: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]، وهذه السورة نزلت بعد ذلك عقب غزوة بني المصطلق، كماسيأتي،فيحتمل تكرر نزول الآية.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٣١٨ – ٣١٩، وأخرجه ابن إسحاق من حديث الإمام الزهري، وذكره نحوه،سيرة ابن هشام:١/ ٦٤-٦٥، والمربد:هو المكان الذي يُجفف فيه التمر.

يصل إلى مرتبة الدعاة وقد جرى منه ما جرى.

وهذا يدل على براءة الأنصار رضي الله عنهم من الولاء لأعداء الإسلام وإن كانوا من قبائلهم، وهذا من كمال إيمانهم ورسوخ يقينهم رضي الله عنهم.

ونجد في نهاية الخبر مثلاً من حقد المنافقين على الإسلام ومشاعره العظيمة ؛ حيث يقول ابن أبي: «أخرجني محمد من مربد سهل وسهيل »، ولم يقل:من المسجد ؛ لأنه لا يعترف بالمسجد ويتمنى زواله ؛ ليعود مكانه مربدًا كما كان.

مواقف لأصحاب بعثة الرجيع [1]

أخرج الإمام البخاري من حديث ابن شهاب الزهري قال أخبرني عمرُو بن جارية الثقفيُّ حليفُ بني زُهرة، وكان من أصحاب أبي هريرة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال « بعث رسول الله ﷺ عشرة عينا وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب، حتى إذا كانوا بالهدأة بين عُسفان ومكة [2] ذُكروا لحَيٍّ من هُذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منـزل نزلوه، فقالوا: تمرُ يثرب، فاتبعوا آثارهم. فلما حَسَّ بهم عاصمٌ وأصحابهُ لجأوا إلى مَوضع. فأحاطَ بهم القوم فقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم، ولكمُ العهدُ والميثاق أن لا نقتل منكم أحدًا.

فقال عاصمُ بن ثابت: أيها القوم، أما أنا فلا أنزلُ في ذمة كافر.

---

(١) الرجيع اسم مكان في بلاد هذيل، كانت الوقعة بقربه قال البلادي: ويعرف اليوم بالوطيَّه (الوطأة) وهو ماء شرق عسفان يسار الخارج من عسفان إلى مكة، يفرق طريقه على ثلاثة عشر كيلا من عسفان ويبعد عن الطريق قرابة سبعة أكيال في لحف حرة الجابرية – معجم معالم الحجاز ٤/ ٣٥ –.

(٢) الهَدْأَة اسم مكان لهذيل قرب الرجيع.

ثم قال: اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ. فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما [(١)]، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق، منهم خُبيبٌ وزيدُ بن الدَّثنة ورجل آخر [(٢)]. فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيِّهم فربطوهم بها، قال الرجل الثالث: هذا أولُ الغدر، والله لا أصحبُكم، إن لي بهؤلاء أسوة –يريدُ القتلى– فجرَّروه وعالجوه، فأبى أن يَصحبهم [(٣)].

فانطُلق بخبيب وزيد ابن الدَّثنَّة حتى باعوهما بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خُبيبًا – وكان خبيبُ هو قتل الحارث بن عامر يومَ بدر – فلبث خبيبٌ عندهم أسيرًا حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحدُّ بها، فأعارته، فدرج بُنَيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاه، فوجدته مُجْلسَه على فخذه والموسى بيده. قالت: ففزعتُ فزعةً عرَفها خُبيب. فقال: أتخشين أن أقتله ؟ ماكنتُ لأفعل ذلك.

قالت: والله مارأيتُ أسيرًا قطُّ خيرًا من خبيب، والله لقد

---

(١) جاء في نسخة البخاري التي اختارها الحافظ ابن حجر « فقتلوا عاصمًا في سبعة » قال: أي في جملة سبعة.

(٢) هو عبد الله بن طارق كما في رواية ابن إسحاق.

(٣) جاء في رواية ابن إسحاق « ثم أخذ سيفه فاستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه».

وجدته يومًا يأكُلُ قطفًا من عنب في يده وإنه لموثقٌ بالحديد، وما بمكة من ثمرة. وكانت تقول: إنه لرزقٌ رزقه الله خبيبًا.

فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب: دَعُوني أصلي ركعتين، فتركوهُ فركع ركعتين فقال: والله لولا أن تحسبوا أنَّ مابي جزعٌ لزدت. ثم قال اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولاتُبق منهم أحدًا. ثم أنشأ يقول:

فلستُ أبالي حين أُقْتَلُ مسلمًا ... على أيِّ جنب كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يُبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه أبو سرْوعة عُقبة بن الحارث فقتله. وكان خبيبٌ هو سَنَّ لكل مسلم قُتل صبرًا الصلاة.

وأَخبر – يعني النبي ﷺ - أصحابه يوم أصيبوا خبرهم.

وبعث ناسٌ من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أنه قُتل أن يؤتَوا بشيء منه يُعرف- وكان قتل رجلا عظيمًا من عظمائهم – فبعث الله لعاصم مثل الظُّلة من الدَّبْر فحَمتْهُ من رُسُلهم، فلم يقدروا أن يَقطعوا منه شيئًا » [1].

---

(١) صحيح البخاري، المغازي رقم ٣٩٨٩ و ٤٠٨٦ (٧/ ٣٠٨، ٣٧٨).

وأخرجه ابن إسحاق بزيادات واختلاف في بعض سياقه [1].

وقد جاء في رواية ابن إسحاق أن المشركين قالوا للمسلمين: إنا والله مانريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لانقتلكم.

فأما مرَثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير،وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لانقْبل من مُشرك عهدًا ولاعقدا أبدا، فقال عاصم بن ثابت:

ما علَّتي وأنــا جَلْدٌ نابــل   والقَـوْسُ فيــها وتـرٌ عنابلُ [2]

تَـزلُّ عـن صفْحتها المعابـل [3]   المــوتُ حقٌ والحياةُ باطل

وكــلُّ ماحَمَّ الإلــه نــازل   بالمرء، والمــرءُ إلـيه آئل

إن لم أقاتلكم فأمي هابل [4]

وقال عاصم بن ثابت أيضًا:

أبـو سُليمــان ومثْلِيَ رامَى   وكــان قوْمي معشرًا كراما

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١٥٦ – ١٦٦.

(٢) أي غليظ.

(٣) أي النصال العريضه الطويلة.

(٤) قال ابن هشام: هابل: ثاكل.

وكان عاصم بن ثابت يكنى: أبا سليمان ثم قاتل القوم عاصم حتى قُتل وقُتل صاحباه.

فلما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه، ليبيعوه من سُلافة بنت سَعد بن شُهيد، وكانت قد نذَرت حين أصاب ابنيها يوم أُحد: لئن قَدَرَتْ على رأس عاصم لتشربن في قحفه[1] الخمر، فمنعته الدَّبْر[2]،فلما حالت بَيْنه وبينهم الدبْرُ قالوا: دعُوه حتى يُمسي فتذهب عنه، فنأخذه، فبعث الله الوادي[3]، فاحتمل عاصما، فذهب به[4].

وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدا أن لايمسَّه مشرك، ولايمس مُشركًا أبدًا، تنجُّسا، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدّبْر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نَذَر أن لايمسَّه مشركٌ، ولايمسّ مُشركًا أبدًا في حياته، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته.

قال ابن إسحاق: وأما زيد بن الدَّثنة فابتاعه صَفوان بن أُميَّة

(١) القحف العظم الذي فوق الدماغ.

(٢) جمع دبُور، يعني صارت الدبابير تلسعهم فحمته منهم.

(٣) أي أجرى الله الوادي بالسيل.

(٤) وجاء في رواية الواقدي: فلما جاء الليل بعث الله عليه سيلا – وكنا مانرى في السماء سحابا في وجه من الوجوه – فاحتمله فذهب به فلم يصلوا إليه.

ليقتله بأبيه أميَّة بن خلف، وبعث به صفوان بن أُمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قُريش، فيهم أبو سفيان ابن حرب، فقال له أبو سفيان حين قُدِّم ليُقتل: أنشُدُك الله يازيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نَضْرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحبّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكةٌ تُؤذيه، وأني جالس في أهلي. قال: يقول أبو سفيان:مارأيت من الناس أحدًا يُحبّ أحدًا كحبّ أصحاب محمد محمدًا،ثم قتله نسطاس، يرحمه الله.

قال ابن إسحاق: وكان مما قيل في ذلك من الشعر، قول خُبيب ابن عديّ حين بلغه أن القومَ قد اجتمعوا لصَلبه.

لقد جمَّع الأحــزابُ حـولي وألَّبـوا

قبائلهم واستجمعوا كـلّ مـجــــمع

وكلُّهمُ مـُبدي العـــداوة جــاهدٌ

عَـلَيّ لأنـي في وَثــــــاق بمـضْيع

وقــد جمــعوا أبناءَهم ونسـاءَهم

وقُرِّبتُ مـــن جـــــذع طَـويل مُمنَّع

إلى الله أشكـو غـُرْبتي ثـــم كرْبتي

وما أرْصَد الأحزاب لي عـند مصرعي

فذا العرش صبرِّني على مايُـرادُ بي

فقد بَضَعوا لحمي وقد يـاس مطمَعي

وذلك في ذات الآلــه وإن يـــشأ

يُبارك عـلى أوصــــــال شـلْو مُمـزَّع

وقد خيَّروني الكفْر والمـوتُ دونـه

وقد هَمَلت عيناي مـــــن غير مجزع

ومـا بــي حذارُ الـموت إني لميتٌ

ولـكنْ حـذَاري جَحْم نــــار مُلفِّع

فـــو الله ما أرجـُو إذا مـتّ مُسْلما

عَلَى أيّ جَنْب كان في الله مصــرعي

فَلَـستُ بِمـبدٍ للعَـــدُوّ تَخَشُّـعـا

ولاجـزَعـا إني إلى الله مَـرْجعـــي[1]

في هذا الخبر مواقف وعبر فمن ذلك:

أولاً: خروج هذه السرية بهذا العدد القليل إلى تلك المسافة

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ١٥٧ – ١٦٧، وأخرجه الواقدي عن عدد من الشيوخ وذكره نحوه – مغازي الواقدي ١/ ٣٥٤ – ٣٦٣ –.
وذكر أن الوقعة في شهر صفر سنة أربع من الهجرة.

البعيدة يُعدُّ مغامرة جريئة وتضحية كبيرة.

وقد كانت مهمتهم التجسس على الأعداء كما جاء في هذه الرواية، وذلك لما تنامَى إلى أسماع النبي ﷺ وأصحابه من أخبار بعض القبائل التي تتحدث بغزو المدينة، ومن ذلك ما كان في خبر بني أسد وخالد بن نبيح الهذلي، فكان لابد من المغامرة بعدد محدود من المسلمين ليوافوا رسول الله ﷺ ومستشاريه بأخبار الأعداء قبل أن يتجمعوا ويصعب القضاء عليهم.

وقد جاء في رواية ابن إسحاق مايفيد بأن لهذه السرية مهمةً دعوية، وفي ذلك يقول عاصم بن عمر بن قتادة: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة، فقالوا: يارسول الله إن فينا إسلاما فابعث نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين ويُقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير رواية البخاري، ثم قال: وقد خالفه محمد بن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة بن الزبير في بعض ذلك، ولنذكر كلام ابن إسحاق ليُعرف ما بينهما من التفاوت والاختلاف، على أن ابن إسحاق إمام في هذا الشأن غير مدافع، كما قال الشافعي

رحمه الله: من أراد المغازي فهو عيال على محمد بن إسحاق[1].

لكن يمكن الجمع بين الروايتين باحتمال أن النبي ﷺ قد بعث أفراد تلك السرية للمهمتين معا، وأن إحدى المهمتين علنية وهي المهمة الدعوية التي ذكرها عاصم بن عمر في رواية ابن إسحاق، والأخرى سرية وهي مهمة التجسس على الأعداء، فذكر عاصم عن أشياخه من الأنصار المهمة المعلنة، ووعى أبو هريرة المهمة السرية عمن أخبره من الصحابة حيث لم يهاجر إلى المدينة إلا في العام السابع فحدث بها، ولعله رأى هو أو من حدثه أنها المهمة الأساسية فاكتفى بذكرها، ويكون من أخبر عاصم بن عمر بن قتادة بالمهمة العلنية لم يعلم بالمهمة السرية والله أعلم.

هذا هو أهم الاختلافات بين الروايتين، وهناك اختلافات أخرى منها أن أمير السرية في رواية البخاري هو عاصم بن ثابت، وفي رواية ابن إسحاق مرثد بن أبي مرثد، ومنها أن عدد أفراد السرية في رواية البخاري عشرة، وفي رواية ابن إسحاق ستة، لكن رواية البخاري هي المقدمة في ذلك لأنها أصح.

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٦٦.

ثانيًا: موقف جليل لعاصم بن ثابت وجماعته رضي الله عنهم حيث أبوا أن يستسلموا وأن ينـزلوا على ذمة الكفار، وتصدوا لقتال مائة من الرماة، وقُتل بنبال العدو سبعة من العشرة فيهم أميرهم عاصم بن ثابت، وبقي ثلاثة هم خبيب بن عدي وزيد بن الدَّثِنَّة، وعبد الله بن طارق، فاختاروا الاستسلام بعد قتل أصحابهم، ثم حاول المقاومة بعد ذلك عبد الله بن طارق فقتلوه وبقي خبيب وزيد، وكان بقاؤهما خيرا للمسلمين حيث سطرا في الأيام الأخيرة من حياتهما مواقف عالية في الصبر على الأذى واحتساب الأجر عند الله تعالى وإظهار عزة الإسلام.

ثالثًا: في أشعار عاصم بن ثابت التي ذكرها ابن إسحاق في روايته تَظهر عزة الإسلام والقوة في تحدي أهل الباطل.

وما جرى له من حماية الدبابير ومنعها المشركين من الدنو من جثته، ثم مجيء السيل وحمل جسده ودفنه عبرة عظيمة، حيث كان هذا الصحابي الجليل نذر أن لايمس جسده مشرك تنجُّسا، وجاء في رواية الواقدي أنه بعد أن قاتل القوم قال: اللهم حَمَيْت دينك أول النهار فاحْم لي لحمي آخره.

فقد أكرم الله هذا الولي الصالح فاستجاب دعاءه فلم يعبث

المشركون بجسده، ولم تتمكن سلافة بنت سعد بن شُهَيد من شفاء غيظها منه بشرب الخمر في قحف رأسه.

ولقد كانت هذه الكرامة آية أظهرها الله تعالى لأولئك الأعراب، حيث عجزوا عن الوصول إلى جسد عاصم مرتين، ولئن قالوا بأن الدبابير جاءت صُدفة فكيف يقولون في السيل الذي جاء ومافي السماء قطعة سحاب ؟ ! وكيف يجتمع الأمران على سبيل الصدفة ؟

لقد كان فيما جرى لهم من عاصم عبرة، لو اعتبروا بها لقادتهم إلى الإسلام، ولكفَّروا عن ذنبهم الكبير بإطلاق الأسرى الثلاثة واتخاذهم أئمة هدى يتعلمون الإسلام منهم، ولكنهم أصحاب هوى، والدين الذي يخضعون له هو مصالحهم الدنيوية، فقد قاموا بذلك العمل الشنيع من أجل أن يستأسر لهم أفراد السرية ثم يبيعوهم من قريش، ولقد حرصوا على أخذ رأس عاصم لضخامة الجُعل الذي جعلته سلافة لمن يأتي لها برأسه، كما جاء في رواية الواقدي أنها جعلت لمن جاء برأس عاصم مائة ناقة، وكان عاصم قتل ابنيها الحارث ومسافعا كما جاء في رواية الواقدي وذلك في غزوة أحد.

وهكذا تضيع الفضيلة وتُفقد الكرامة حينما تسيطر النظرة المادية على تفكير الإنسان، وإذا خلا قلبه من الإيمان بالله تعالى الذي يسمو

بفكره نحو الحياة الآخرة فإن تفكيره يكون مقصورا على الحياة الدنيا.. من أجلها يحب ويبغض، ومن أجلها يوالي ويعادي، ويقسو قلبه ويتجبر حينما يغلب غيره ويكون في موطن القوة، ويضعف ويستخذي حينما يُغلَب ويكون تحت رحمة غيره.

رابعًا: جرى لخُبيب بن عدي رضي الله عنه وهو في محبسه مواقف وعبر، فمن ذلك خبره مع بُنيّ المرأة التي كان محبوسا عندها حينما فزعت لما رأته معه والموسى بيده فقال « أتخشين أن أقتله؟ ماكنت لأفعل ذلك » وجاء في رواية الواقدي: «ماكنت لأقتله وما نستحل في ديننا الغدر» وهذا مثل من عظمة الصحابة رضي الله عنهم حيث يطبقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم وإن كانوا قد ظلموهم، وهذا دليل على وعيهم وكمال إيمانهم.

ومن ذلك تجمُّله بالصبر وعدم إشفاقه من القتل، وفي ذلك تقول ماوية مولاة بني عبد مناف التي كان محبوسا عندها: « فقلت له: ياخبيب هل لك من حاجة؟ قال:لا، إلا أن تسقيني العذب ولاتطعميني مما ذبح على النُّصُب، وتخبريني إذا أرادوا قتلي، قالت: فلما انسلخ الأشهر الحرم وأجمعوا على قتله أتيته فأخبرته، فو الله ما رأيته اكترث لذلك». ذكره الواقدي في روايته وذكر أن ماوية هذه قد

أسلمت فيما بَعْد وحسن إسلامها.

ومن جلَده وصبره الجميل قوله لهم « دعوني أصلي ركعتين فتركوه فركع ركعتين فقال: والله لولا أن تحسبوا أن مابي جزع لزدت » وقوله في شعره الذي جاء في هذه الروايات:

فلست أبالي حين أُقتل مسلما ... على أي جَنْب كان لله مصرعي

إلى أن قال:

فلست بُمبْدٍ للعدو تخشعا ... ولاجزعا إني إلى الله مرجعي

ولاشك أن هذا الجَلَد القوي والصبر الجميل يغيظ الأعداء لأنه يُضعف من مفعول كيدهم.

وفي صلاة خبيب قبل القتل يروي الواقدي بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أول من سنَّ الركعتين عند القتل خبيب.

وهذا موقف يذكر له رضي الله عنه حيث كانت الصلاة هي آخر عمل قدَّمه قبل موته.

وجاء في رواية الواقدي أنهم ساوموه ليرجع عن دينه فأبى عليهم، وفي ذلك يقول فيما يرويه عن شيوخه: قالوا: فلما صلى الركعتين حملوه إلى الخشبة، ثم وجهوه إلى المدينة وأوثقوه رباطا، ثم قالوا: ارجع عن الإسلام نُخَلِّ سبيلك، قال: لا والله ما أحب أني

رجعت عن الإسلام وأن لي مافي الأرض جميعا.

وهذا مشهد من مشاهد الإيمان والفداء، حيث تعلو النفوس الزكية عن الاستجابة لرغبات الأجسام، فتضرب الأمثلة الحية للموازين العادلة والمفاهيم العالية، فما في الأرض جميعا من متاع لايساوي شيئا في جانب الهداية إلى الصراط المستقيم، والبقاء على قيد الحياة مطلب رخيص إذا قورن بالثبات على الإيمان والاستشهاد في سبيله، وقد جاء هذا المعنى في كلام خبيب كما في رواية الواقدي «فجعلوا يقولون: ارجع ياخبيب، قال: لا أرجع أبدا، قالوا: أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنَّك، قال: إن قتلي في الله لقليل».

وجاء في إحدى روايات البخاري: أن خبيبا لما قُتل مكث ساعة يوحد الله ويشهد أن محمدًا رسول الله، ثم ذكر الراوي قول الأخنس ابن شريق: لو ترك ذكر محمد على حال لتركه على هذه الحال، ما رأينا قط والدا يَجِدُ بولد ما يجد أصحاب محمد بمحمد ﷺ.

ومن ذلك ما أكرمه الله تعالى به من العنب الذي وصل إليه وهو موثق بالحديد ولم يكن بمكة آنذاك شيء من العنب، وهذه الكرامة ساقها الله تعالى إليه ليثبته ولتعظم طمأنينته بأن الله تعالى معه وأنه قد رضي عنه، فإن شاء جل وعلا لَهُ الحياة فسينالها رغم ماهو فيه من

حبس وقيود، وإن شاء أن يتخذه شهيدًا فهذا غاية ما يتمناه المؤمن الصادق.

ولقد كان في إشاعة هذا الخبر بين المشركين آية تهديهم إلى الإيمان بهذا الدين الذي كان سببا في ظهور تلك الكرامة الخارقة للعادة على يد خبيب ولكنهم لم يكونوا متجردين من الهوى، ومن كان منهم قد تأثر بهذه العبرة وأمثالها فإنه لايستطيع أن يظهر مشاعره خشيةً من زعماء الكفار.

خامسًا: تبين لنا في رواية ابن إسحاق أنه حينما قَدَّم المشركون زيد بن الدثنة رضي الله عنه للقتل قال له أبو سفيان: أَنشُدُك الله يازيد أتحب أن محمدًا عندنا الآن نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي، قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا.

وهذا تعبير بليغ عن حب الصحابة الشديد لرسول الله ﷺ الذي يصل إلى فدائه بأنفسهم فضلاً عن أموالهم، ولقد جاء في رواية للواقدي مثل ذلك عن خبيب بن عدي رضي الله عنه.

ولقد اعترف بذلك زعماء الكفار في ذلك العصر كما في هذا

الخبر عن أبي سفيان وفي خبر خبيب صدر عن الأخنس بن شريق [(١)].

وصدور هذا الاعتراف من الزعماء يدل على شهرة ذلك إلى الحد الذي لايستطيعون إخفاءه.

وإذا نظرنا إلى حب الصحابة لرسول الله ﷺ باعتباره زعيما لتجمع ديني كما يراه الكفار المعاصرون له الذين لايؤمنون بكونه رسولا فإن ذلك يبعث فيهم الإحباط واليأس من إمكانية القضاء عليه وعلى تجمعه لاستحالة وجود أهم عناصر الفشل والانهزام وهو ضعف الثقة بين الزعيم وجنوده، كما أن اعتراف زعماء الكفار بعدم وجود زعيم يحبه جنوده كحب المسلمين لرسول الله ﷺ يجب أن يقودهم إلى التفكير المتأمل في هذا الموضوع، لمعرفة سبب انفراد النبي ﷺ من بين الزعماء بهذه الميزة العظيمة، وبذلك فإن ذلك يفرض عليهم الإيمان بكونه رسولاً من عند الله تعالى، لأن هذه هي الخصوصية البارزة، وكونه ﷺ يتمتع بأعلى المواهب الإنسانية إنما هو من لوازم الرسالة، ولم يكن النبي ﷺ ينسب لنفسه أي تفوق في تلك المواهب وإنما كان الشيء الوحيد الذي يدعو إليه هو الإيمان بكونه مرسلاً من الله تعالى، ولكن الكفار كانوا في سبات عميق وحُجُب

---

(١) ينبغي أن يعلم أن أبا سفيان قد أسلم عام الفتح وحسن إسلامه وذكر الحافظ ابن حجر الخلاف في إسلام الأخنس ورجح إسلامه – الإصابة ١/ ٣٩ رقم ٦١ –.

كثيفة من اتباع هوى النفوس وتقديس ميراث الآباء والأجداد والاعتزاز بالمجد الدنيوي، فلم يُعملوا أفكارهم في المقارنة بين المقدمات والنتائج، فكانوا يطلقون المقدمات التي تُلزمهم بنتائجها ولكنهم لايبحثون في أسباب تلك المقدمات ولا يُلزمون أنفسَهم بنتائجها.

سادسًا: في هذا الخبر بُذلت دماء زكية في سبيل الله تعالى، وبعضها قُتل أصحابها صبرًا وعلى مشهد يضم جمعًا كبيرًا من الناس، وهذه الدماء الزكية تُعدُّ من أهم الأسباب التي تُغَذِّي الدعوة الإسلامية وتدفع بها إلى الأمام، لأن الذين يحضرون هذه المشاهد أو تُروى لهم يعلمون أن وراءها هدفًا كبيرًا ساميًا هو نصرة الإسلام، وبذلك يعلمون بأن هذا الدين الذي يحمل أتباعه على بذل النفوس طواعية وبشوق بالغ من أجله، والصبر الطويل الجميل على الأذى في سبيله.. يعلمون أنه الدين الحق الذي يجب الإيمان به واتباعه.

ولاشك أن هذا الحادث الجلل قد ترك أثرًا واضحًا على مفكري قريش، حيث دفعهم إلى الميل نحو الإسلام والتعاطف مع المسلمين، إضافةً إلى الأحداث الأخرى المشابهة، مِمَّا جعل دخولهم في الإسلام سريعًا بعد فتح مكة المكرمة.

وكانت سرية الرجيع في شهر صفر سنة ثلاث للهجرة.

مواقف من أصحاب بعثة بئر مَعُونة[1]

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بقية شوّال وذا القعدة وذا الحجة – وَوَلِي تلك الحجة المشركون – والمحرم، ثم بعث رسولُ الله ﷺ أصحاب بئر معونة في صفر، على رأس أربعة أشهر من أحُد [2].

وكان من حديثهم، كما حدثني أبي إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله ابن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وغيره من أهل العلم قالوا: قدم أبو بَراء عامر بن مالك ابن جعفر مُلاعب الأسنَّة على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يامحمد،لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك ؛ فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد ؛ قال أنا لهم جار،فابْعَثْهُمْ فليدْعُوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة، المُعْنق

---

(١) بئر معونة تقع شرق المدينة وغرب مهد الذهب – معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية – ص ٥٣ .

(٢) يعني في السنة الرابعة للهجرة.

ليموت[1]،في أربعين رجلا من أصحابه [2]،من خيار المسلمين، منهم: الحارث بن الصُّمَّة، وحرام بن مِلْحان أخو بني عدي بن النَّجَّار، وعروة بن أسماء بن الصَّلت السلمي ونافع بن بُدَيل بن وَرْقاء الخُزاعيّ، وعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر الصدِّيق، في رجال مُسمَّين من خيار المسلمين. فساروا حتى نزلوا ببئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحَرة بني سُليم، كلا البلدين منها قريب، وهي إلى حرة بني سُليم أقرب.

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملْحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدوِّ الله عامر بن الطفيل ؛ فلما أتاه لَم ينظُر في كتابه حتى عدا على الرجل

(١) المعنق: المسرع، وإنما سمي بذلك لإسراعه إلى الشهادة، واللام في «ليموت» للعاقبة، أي إن عاقبة خروجهم الموت.

(٢) جاء في رواية الإمام البخاري ومسلم أن عددهم سبعون ويمكن الجمع بين الروايتين بأن الأربعين هم القراء الذين وكل إليهم النبي ﷺ مهمة الدعوة، والثلاثين أتباع لهم يساعدونهم في المهام الجهادية من الحراسة والحماية والدفاع، فيكون بعض الرواة ذكروا العدد الكامل وبعضهم ذكر عدد الذين أنيطت بهم المهمة المذكورة، ولعل الحافظ ابن حجر يشير إلى ذلك حينما قال في الجمع بين الروايتين بعدما ذكر خبر ابن إسحاق: ويمكن الجمع بينه وبين الذي في الصحيح بأن الأربعين كانوا رؤساء وبقية العدة أتباعا – فتح الباري ٧/ ٣٨٧ –.

فقتله [١]، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى مادعاهم إليه، وقالوا: لن نُخْفَرَ أبا بَراء، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا ؛ فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُلَيم من عُصيَّة ورِعْل وذَكْوان، فأجابوه إلى ذلك، فخَرجوا حتى غَشُوا القَوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى قُتلوا من عند آخرهم، يرحمهم الله، إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتُث [٢] من بين القتلى، فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيدًا، رحمه الله.

وكان في سَرْح [٣] القوم عمرو بن أُمية الضَّمْري، ورجل من الأنصار،أحد بني عمرو بن عوف [٤]. فلم يُنبئهما بمُصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العَسكر، فقالا: والله إن لهذه الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيلُ التي أصابتهم واقفة. فقال

(١) جاء في رواية البخاري « فأومأوا إلى رجل فأتاه من خلفه فطعنه » فتكون نسبة القتل إلى عامر لأنه هو الذي أمر بذلك.

(٢) ارتث على البناء المجهول، أي حمل من المعركة رثيثا أي جريحا وبه رمق.

(٣) السرح: الماشية في حال ذهابها إلى المرعى.

(٤) قال ابن هشام: هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح.

الأنصاري لعمرو بن أُمية: ماترى ؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ، فنخبره الخبر ؛ فقال الأنصاري: ماكنتُ لأرغَبَ بنفسي عن مَوْطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، وماكنت لتُخْبرني عنه الرجال ؛ ثم قاتل القومَ حتى قُتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرًا، فلما أخبرهم أنه من مُضَر أطلقه عامر بن الطفيل، وجز ناصيته ؛ وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

فخرج عمرو بن أُمية حتى إذا كان بالقَرْقرة من صَدر قناة، أقبل رجلان من بني عامر[1] حتى نزلا معه في ظل هو فيه. وإنَّ مع العامريَّيْن عَقدٌ من رسول الله ﷺ وجوار، لم يَعلم به عمرو بن أُمية، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما ؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما، حتى إذا ناما، عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤْرةً من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو بن أُمية على رسول الله ﷺ، فأخبره الخَبر، قال رسول الله ﷺ: لقد قتلت قتيلين، لأَدِينَّهما !

ثم قال رسول الله ﷺ: هذا عمل أبي بَراء، قد كنت لهذا كارهًا

---

(١) قال ابن هشام: ثم من بني كلاب، وذكر أبو عمرو المدني أنهما من بني سليم.

مُتَخَوفًا. فبلغ ذلك أبا براء، فشقّ عليه إخفارُ عامر إيَّاه، وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره ؛ وكان فيمن أصيب عامر بن فُهيرة.

قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عُروة، عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول: مَنْ رجل منهم لما قُتل رأيته رُفع بين السماء والأرض،حتى رأيت السماء من دونه ؟قالوا:هو عامر بن فُهيرة [1].

قال ابن إسحاق: وقد حدثني بعض بني جَبار بن سَلْمى بن مالك بن جعفر، قال – وكان جبَّار فيمن حضرها يومئذ مع عامر ثم أسلم – قال: فكان يقول: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنتُ رجلا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه فنظرتُ إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول: فُزْتُ والله ! فقلت في نفسي: مافاز ! ألستُ قد قتلتُ الرجلَ ! قال: سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لَعمْر الله.

قال ابن إسحاق: وقال حسَّان بن ثابت يحرّض بني أبي بَراء على عامر بن الطفيل:

---

(١) جاء ذلك في رواية الإمام البخاري وفيه أن عامر بن الطفيل سأل عنه عمرو بن أمية الضمري – صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٠٩٣ (٧/ ٣٨٨).

بَني أمِّ البنينَ ألـم يـرَعْـكـمْ   وأنتم مـن ذَوائب أهـل نَجْدِ
تهَكُّم عـامـر بـأبي بَـراءِ   لِيُخْفرَهُ، ومـا خَطَأٌ كَعَـمْدِ
ألا أبْلغْ ربيـعةَ ذا المسـاعـي   فما أحدثْتَ فـي الحَدثان بعدي
أبوك أبو الحُـروب أبو بَـراء   وخالُك ماجدٌ حكَم بـن سَعْدِ

قال ابن إسحاق:فحمل ربيعةُ بن عامر بن مالك على عامر بن الطفيل فطعنه بالرمح، فوقع في فخذه، فأشْواه[(١)]، ووقع عن فرسه، فقال: هذا عمل أبي بَراء، إن أمُتْ فَدمي لعمِّي. فلا يُتْبعَنَّ به، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أُتِيَ إليّ[(٢)].

وجاء في إحدى روايات الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « لما طُعن حرام بن ملحان – وكان خاله – يوم بئر معونة قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه ثم قال: فزت ورب الكعبة »[(٣)].

---

(١) أي أخطأ مقتله.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٢١٢ – ٢١٧، وأخرجه الإمام البخاري في عدة روايات مختصرة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه – صحيح البخاري، المغازي رقم ٤٠٨٨ – ٤٠٩٢ (٧/ ٣٨٥) –، وأخرجه الإمام مسلم من حديث أنس رضي الله عنه مختصرا – صحيح مسلم، الإمارة، رقم ٦٧٧(ص١٥١١)–، وأخرجه الإمام ابن جرير الطبري من حديث ابن إسحاق بإسناد ابن هشام، ثم أخرجه عن ابن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس بن مالك، ثم أخرجه من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري عن أنس بن مالك.. وذكر نحوه – تاريخ الطبري ٢/ ٥٤٥ – ٥٥٠ –.

(٣) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٠٩٢ (٧/ ٣٨٦).

وجاء في رواية مسلم من حديث أنس بن مالك « فقال رسول الله ﷺ لأصحابه » إن إخوانكم قد قتلوا،وإنهم قالوا: اللهم بلِّغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا»[(١)].

وفي رواية للبخاري من حديث أنس بن مالك قال : « دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحا حين يدعو على رعل ولحيان وعُصَيَّة، عصت الله ورسوله ﷺ قال أنس: فأنزل الله تعالى لنبيه في الذين قُتلوا أصحابِ بئر معونة قرآنا قرأناه، ثم نسخ بعد: بلِّغوا قومنا فقد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه » [(٢)].

وقوله « يدعو على رعل ولحيان وعُصَيَّة » وفي رواية البخاري يدعو على رعل وذكوان ويقول: عصية عصت الله ورسوله، فأما بنو رعْل وذكوان وعصية فهم فروع من قبيلة سُلَيم وهم الذين قتلوا الصحابه في بئر معونة، وأما بنو لحيان فقد قتلوا الصحابة في بئر الرجيع كما سبق وكانت الحادثتان في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة، فدعا عليهم رسول الله ﷺ جميعا.

مواقف وعبر من هذا الخبر:

أحداث هذه السرية وسرية بئر الرجيع ونتائجهما تختلف عن

---

(١) صحيح مسلم، الإمارة رقم ٦٧٧ (ص١٥١١).

(٢) صحيح البخاري، المغازي، رقم ٤٠٩٥ (٧/ ٣٨٩).

أحداث ونتائج الغزوات والسرايا في العهد النبوي، فقد ألفنا في كل الغزوات والسرايا أن نرى انتصارات المسلمين الظاهرة مع ما يصيبهم من قتل أو جراح،ولكننا في هاتين السريتين رأينا استئصالا كاملا للمسلمين.

والحقيقة أن معايير الانتصار والانهزام لاتخضع لحجم الخسائر المادية التي من ضمنها وقوع الضحايا وإنما تخضع لمدى الثبات على المبادئ التي قامت الحروب من أجلها أو التراجع في هذا الأمر، ومن ذلك معرفة مدى الحماس في تمثيل هذه المبادئ أو الفتور في تمثيلها، وشدة التلاحم بين القائد وجنوده أو ضعف ذلك، ومدى التماسك بين أفراد الجماعة قوة أو ضعفا، إضافة إلى مقدار التضحية بالنفس والمال من أجل خدمة المبادئ.

وإذا نظرنا إلى واقع المسلمين في العهد النبوي نجد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في ثبات دائم على المبادئ السامية التي من أجلها قطعوا الوشائج مع الأقارب والأصدقاء والحلفاء الذين لم يدخلوا في الإسلام، ونجد أن الانتصار المادي لايبطرهم ولايطغيهم، وأن الإصابات المادية لاتضعفهم ولاتحطم معنويتهم، وأن حماسهم في الدفاع عن الإسلام ثابت على قوته، وأن طاعتهم لقائدهم ﷺ تُعدُّ

مضرب الأمثال، حتى اعترف بذلك الأعداء أنفسهم، وأن سلوكهم الاجتماعي في قمة التفوق الأخلاقي حيث يُؤثر بعضهم بعضا بأمور الحياة الدنيا، وأن أسمى أمانيهم أن ينالوا الشهادة في سبيل الله تعالى، وهذا يعني أنهم في انتصار دائم وإن واجهوا الخسائر المادية في بعض لقاءاتهم مع أعدائهم.

نعم،لو أن أفراد هاتين السريتين ألْقَوا بأنفسهم لأعدائهم وتخلوا عن دينهم الذي من أجله خرجوا لكان ذلك هزيمة واضحة لدولة الإسلام، وانتكاسة كبرى للدعوة الإسلامية، ولكن أنَّى يكون ذلك وهم يتغنَّون بالشهادة ويقول الواحد منهم إذا قُتل«فزت ورب الكعبة »!

إن أعظم انتصار لدعوة الإسلام أن يجود أفرادها بدمائهم الزكية من أجلها.

إن الإسلام دين عظيم، ولايُفْدَى العظيم إلا بالعظيم، ولا أعظم من أن يجود الإنسان بدمه فداء لدينه، فلذلك كان استشهاد هؤلاء العظماء نصرًا عظيمًا للإسلام.

إن بعض النفوس تظل في شك من مصداقية هذه الدعوة ومدى ثباتها أمام الأعاصير العاتية، حتى ترى قَسَمات الفرح بادية على وجوه أفرادها وهم يواجهون الموت في سبيلها.

وإن المشهد العالي الذي مثَّله حرام بن ملحان رضي الله عنه وقد اخترق الرمح ظهره حتى خرج من صدره وأصبح يتلقى الدم بيديه ويمسح به وجهه ورأسه ويقول « فزت ورب الكعبة ».. إن هذا المشهد يجعل أقسى القلوب وأعظمها تحجرًا يتأثر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الذين لاتصفَرُّ وجوههم فزعا من الموت وإنما يعلوها البشر والسرور، وتغشاها السكينة والطمأنينة. ولقد كان لبعض هذه المشاهد أثر في إسلام بعض مرتكبي هذه الجريمة فيما بعد كما جاء في أخبار هذه السرية.

ونجد من المواقف العالية في هذا الخبر أن رسول الله ﷺ وَدَى ذينك الرجلين العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري لكونهما يحملان عقدًا منه ﷺ ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثِّل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يَعدَّ عمل عمرو بن أمية جزءًا من الانتقام الذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون، ولكن ماذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين من قومهم ؟!

إن هذا يُعدُّ مثلا من الرقي الأخلاقي الذي بلغه المسلمون في ظل تطبيقهم توجيهات الإسلام العالية.

هجرة أم كلثوم بنت عقبة

قال الواقدي: قالوا[(١)] [أي شيوخ الواقدي] لا نَعلَم قُرشية بين أبويها مسلمةً مهاجرة إلى الله إلا أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، كانت تحدث تقول: كنتُ أخرجُ إلى باديةٍ لنا بها أهلي فأُقيم فيهم الثلاث والأربع، وهي من ناحية التنعيم – أو قالت بالحصحاص[(٢)] – ثم أرجع إلى أهلي فلا ينكرون ذهابي، حتى أجمعتُ السير،فخرجتُ يومًا من مكة كأني أريد البادية التي كُنت فيها، فلما رجع من تبعني خرجتُ حتى انتهيتُ إلى الطريق، فإذا رجل من خزاعة فقال: أين تُريدين ؟ فقلت: حاجتي، فما مسألتُك ومن أنت ؟ فقال: رجلٌ من خُزاعة. فلما ذكر خزاعة اطمأننت إليه؛ لدخول خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، وعقده، فقلتُ: إني امرأة من قُريش أريد اللُّحوق برسول الله، ولا علم لي بالطريق، فقال: أهل الليل والنهار[(٣)]،أنا صاحبك حتى أوردك، ثم جاءني ببعير فركبتُه، فكان يقود بي البعير، لا والله ما يكلمني كلمة. حتى إذا أناخ البعير تنحى عني، فإذا نزلتُ جاء إلى

---

(١) يعني الرواة الذين روى عنهم أخبارًا سابقة.

(٢) ويروى أيضًا «الحصاص»، وهو موضع بالحجاز (معجم ما استعجم، ص ٢٨٩).

(٣) ربما أراد بذلك: نحن أهل الليل والنهار، العارفون بمسالك الطريق ليلاً ونهارًا.

البعير فقيده في الشجرة وتنحى عني في الشجرة، حتى [إذا] كان الرواح جذع[1] البعير فقرَّبه وولى عني، فإذا ركبته أخذ برأسه فلم يلتفت وراءَه حتى ننزل ؛ فلم يزل كذلك حتى قدمنا المدينة، فجزاه الله خيرًا من صاحب، فكانت تقول: نعم الحيُّ خزاعة، قالت: فدخلتُ على أم سلمة زوج النبي ﷺ وأنا منتقبة فما عرفتني حتى انتسبتُ وكشفتُ النقاب فالتزمتني وقالت: هاجرت إلى الله وإلى رسوله ؟ فقلت: نعم، وأنا أخاف أن يردني رسول الله ﷺ إلى المشركين كما رَدّ غيري من الرجال؛ أبا جَنْدل بن سُهَيل، وأبا بصير، وحالُ الرجال يا أُم سلمة ليس كحال النساء، والقومُ مُصبحي، قد طالت غيبتي عنهم اليوم ثمانية أيام منذ فارقتهم، فهم يبحثون قدر ما كنتُ أغيب ثم يطلبونني، فإن لم يجدوني رحلوا إلي فساروا ثلاثا. فدخل رسول الله على أم سلمة فأخبرته أم سلمة خبر أم كلثوم، فرحب بها رسول الله ﷺ، وقالت أم كلثوم: يارسول الله إني فررتُ بديني إليك فامنعني ولاتردني إليهم يفتنوني ويعذبوني، فلا صبر لي على العذاب، إنما أنا امرأة وضعف النساء إلى ما تعرف ؛ وقد رأيتك رددت رجلين

---

(١) أي قاده

إلى المشركين حتى امتنع أحدهما، وأنا امرأة! فقال رسول الله ﷺ: إن الله نقض العهد في النساء، وأنزل الله فيهن «الممتحنة»، وحكم في ذلك بحكم رضوه كلهم، فكان رسول الله ﷺ يَرُدُّ من جاء من الرجال، ولا يَرُدُ من جاءه من النساء، وقدم أخواها من الغد، الوليد وعُمارة ابنا عُقبة بن أبي معيط، فقالا: يامحمد، أوف لنا بشرطنا وما عاهدتنا عليه.فقال:قد نقض الله! فانصرفا [١].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير هذه القصة مختصرة من حديث عبد الله ابن أبي أحمد بن جحش رحمه الله تعالى [٢].

فهذه قصة عجيبة، فيها مغامرة من هذه المرأة التي حملها إيمانها القوي وتضجرها من أقاربها المشركين الذين يعذبونها ويحاولون فتنتها عن دينها، فهي بين مخاطر السفر من مكة إلى المدينة وبين شبح ردِّها إلى قومها في مكة تنفيذًا لأحد بنود صلح الحديبية الذي يقضي بأن من جاء إلى المسلمين من المشركين يُردُّ إليهم، ولكن عندها بصيص من أمل ؛ وذلك في أنها لكونها امرأة لن ينطبق عليها ما ينطبق على الرجال وأن النبي ﷺ لن يردَّها إلى قومها المشركين، وقد تبددت

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٢٩ – ٦٣١، والتعليقات بعضها من هامش الكتاب.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٢.

مخاوفها حينما علمت أن النبي ﷺ لن يردها وأن رحمة الله تعالى قد سبقت في حل مشكلتها ومثيلاتها، فنزلت الآية التي تستثنى النساء من عموم اتفاقية الصلح، وهو قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وفي هذا الخبر موقف مشرِّف لذلك الرجل الخزاعي الذي رافق هذه المرأة إلى المدينة، فأزال عنها همَّ مواجهة مخاطر السفر.

إسلام عمرو بن العاص

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي، عن حبيب بن أبي أوس الثقفي، قال: حدثني عمرو بن العاص منْ فيه، قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قُريش، كانوا يرون رأيي، ويَسْمعون مني، فقلت لهم: تعلَّموا والله إني أرى أمرَ محمد يعلو الأمور علوّا مُنكرا، وإني قد رأيت أمرًا، فما ترون فيه ؟ قالوا وماذا رأيت ؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمدٌ عَلَى قومنا كنا عند النجاشي، فإنا أن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإن ظهر قوُمنا فنحن مَنْ قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، قالوا: إن هذا لرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهْديه له، وكان أحبَّ مايُهدَى إليه من أرضنا الأَدَم(1) . فجمعنا له أدَمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

فو الله إنا لعنده إذ جاءَه عمرو بن أمية الضَّمُري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قال:فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري،

---

(1) يعني الجلد.

لو قد دخلتُ على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه، فضربتُ عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قُريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسولَ محمد. قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبا بصديقي، أهديت إليّ من بلادك شيئًا ؟ قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدمًا كثيرًا، قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب،ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننتُ أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقًا منه: ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسولَ رجل يأتيه الناموس الأكبر[1] الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ ! قال: قلت: أيها الملك، أكذاك هو ؟ قال: ويحك ياعمرو أطعْني واتبعه،فإنه والله لعلَى الحقّ،وليظهرنَّ على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام، قال: نعم: فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد

(١) يعني جبريل عليه السلام.

حال رأيي عما كان عليه،وكتمتُ أصحابي إسلامي.

ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيتُ خالدَ بن الوليد، وذلك قُبيل الفتح، وهو مُقبل من مكة، فقلت: أين ياأبا سُليمان؟ قال: والله لقد استقام المَنْسم[1]، وإن الرجل لنبيّ، أذهبُ والله فأسلم، فحتى متى ؟ قال: قلت:والله ماجئتُ إلا لأسلم، قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوتُ، فقلت: يارسول الله، إني أبايعك على أن يُغفر لي ماتقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال: رسول الله ﷺ ياعمرو بايع، فإن الإسلام يجُبُّ ما كان قبله، وإن الهجرة تجبُّ ماكان قبلها، قال: فبايعته، ثم انصرفت[2] .

وذكره الحافظ الهيثمي بمثل رواية ابن إسحاق وقال: رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال: حدثني عمرو بن العاص من فيه إلى أذني، ورجالهما ثقات[3] .

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه، وأضاف في إحدى رواياته أن

---

(١) هذا مثل يضرب لظهور الأمر ووضوحه بحيث لم يبق فيه لبس ولاشك.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٥١ – ٣٥٤.

(٣) مجمع الزوائد ٩/ ٣٥٠ – ٣٥١.

ذلك كان لهلال شهر صفر سنة ثمان[1] .

في هذا الخبر مواقف منها:

أولاً: موقف للنجاشي رحمه الله تعالى حينما غضب لرسول الله ﷺ غضبا شديدًا بلغ منه أنه ضرب أنفه تلك الضربة المنكرة، وهذا دليل على قوة إيمانه بالإسلام، وقد أتبع الإنكار العملي بالإنكار القولي حيث قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر لتقتله؟

وكان لقوة إنكار النجاشي القولي والعملي أثر على عمرو بن العاص رضي الله عنه حيث أزال من نفسه الشك في نبوة رسول الله ﷺ، ثم لما رأى النجاشي زوال الشك عن عمرو بادر إلى دعوته إلى الإسلام فأسلم على يديه، ونال بذلك النجاشي أجرًا عظيمًا حيث جذب إلى الإسلام رجلا من عظماء قريش.

لقد كان عمرو بن العاص من دهاة العرب وحكمائهم ولقد أدرك بثاقب بصره أن دينًا يعرف أحقيته العجم البعيدون عن موطن الرسالة، الغرباء عن لغة هذا الدين لاينبغي لمثله أن يجهله.

ثانيًا: سهولة إسلام عمرو وسرعة استجابته لـمَّا تبين له الحق،

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٤١ – ٧٤٥.

وهذا دليل على تجرد قلبه من الهوى المنحرف، فحينما عرف طريق الحق سار فيه، ولو كان صاحب هوى لظل على هواه حتى مع معرفة الحق.

لقد كان إسلام عمرو بن العاص نصرًا كبيرًا للإسلام والمسلمين فلقد سخَّر عقله الكبير ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام، وخسر الكفار بإسلامه خسارة كبيرة لأنهم كانوا يُعدُّونه لعظائم الأمور التي تحتاج إلى دهاء ومقدرة على التأثير وخاصة فيما يتعلق بعدائهم مع المسلمين.

إسلام خالد بن الوليد

أخرج الواقدي من حديث يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن هشام قال: سمعت أبي يُحدث يقول: قال خالد ابن الوليد: لما أراد الله بي من الخير ما أراد قذف في قلبي حُبَّ الإسلام.وحضرني رُشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمد، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء وأنَّ محمدًا سيظهر .

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسْفان،فقمتُ بإزائه وتعرّضت له، فصلَّى بأصحابه الظهر آمنًا منَّا، فهممنا أن نغير عليه، ثم لم يُعزَم لنا – وكانت فيه خيرةٌ – فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهُموم فصلَّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منِّي مَوقعًا وقلت:الرجل ممنوع! وافترقنا وعدل عن سَنَن خيلنا وأخذ ذات اليمين.

فلما صالح قُرَيشًا بالحديبية ودافعَتْه قُريشٌ بالرَّواح قلت في نفسي: أي شيء بقي ؟ أين المذهب إلى النَّجاشي ؟ فقد اتبعَ محمدًا، وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرجُ من ديني إلى

نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعًا، أو أقيم في داري فيمن بقي ؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ عُمرة القَضيَّة، فتغيبتُ فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عُمرة القَضية، فطلبني فلم يجدني فكتب إليّ كتابًا فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذَهاب رأيك عن الإسلام وعَقْلُك عَقْلُك! ومثل الإسلام جَهلَه أحدٌ ؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال: أين خالد ؟ فقلت: يأتي الله به · فقال: ما مثله جَهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيرًا له، ولقدّمْناه على غيره · فاستدركْ يا أخي ما فاتك، فقد فاتَتْكَ مواطنُ صالحة.

قال: فلما جاءَني كتابه نشطتُ للخروج، وزادني رغبةً في الإسلام وسرّني مقالةُ رسول الله ﷺ. قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت إنَّ هذه لَرُؤيا. فلما قدمتُ المدينة قلت: لأذكرنَّها لأبي بكر. قال: فذكرتُها فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضِّيق الذي كنت فيه من الشرك.

فلما أجمعتُ الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى رسول الله ؟ فلقيتُ صفوان بن أُمية فقلت: يا أبا وهب، أما ترى

مانحن فيه؟ إنما نحن أَكَلَةُ رأس[1]، وقد ظهر محمد على العرب والعَجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه فإنَّ شرف محمد لنا شرفٌ. فأبى أشدَّ الإباء وقال: لو لم يبق غيري من قُريش ما اتبعته أبدًا. فافترقنا وقلت: هذا رجلٌ مَوتور يطلب وترًا، قد قُتل أبوه وأخوه ببدر . فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطو ماذكرتُ لك . قال: لا أذكره .

وخرجتُ إلى منـزلي فأمرت براحلتي تُخرج إليّ، فخرجتُ بها إلى أن ألقى عثمان بن طلحة فقلت: إنَّ هذا لي لصديقٌ ولو ذكرتُ له ما أريد! ثم ذكرت من قُتل من آبائه فكرهتُ أذكِّره، ثم قلت: وماعليَّ وأنا راحلٌ من ساعتي. فذكرتُ له ما صار الأمر إليه فقلت: إنما نحن بمنـزلة ثعلب في جُحْر،لو صُبَّ عليه ذَنوبٌ[2] من ماء لخرج. قال:وقلت له نحوًا مما قلت لصاحبيه، فأسرع الإجابة وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفَخٍّ مُناخةُ.

قال: فاتَّعدتُ أنا وهو بيأْجَج، إن سبقني أقام وإن سبقتُه أقمتُ عليه.قال:فادَّلجنا سَحَرًا فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأْجَج، فغدونا

(١) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل. (الصحاح، ص ١٦٢٤).
(٢) الذنوب: الدلو العظيمة (النهاية، ج٢، ص٥١).

حتى انتهينا إلى الهَدَّة، فنجد عمرو بن العاص بها فقال: مرحبًا بالقوم! فقلنا: وبك ! قال: أين مسيركم ؟ قلنا: ما أخرجك ؟ قال: فما الذي أخرجكم ؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ. قال: وذلك الذي أقدمني .

قال: فاصطحبْنا جميعًا حتى قدمنا المدينة فأنخنا بظاهر الحَرَّة ركابنا، فأُخبر بنا رسولُ الله ﷺ فسُرَّ بنا، فلبستُ من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي فقال: أسرعْ فإنَّ رسول الله ﷺ قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك وهو ينتظركم. فأسرعتُ المشي فطلعت عليه، فما زال يتبسّم إليّ حتى وقفت عليه، فسلَّمت عليه بالنبوة فرد علي السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال: الحمد لله الذي هَداك ! قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوت ألا يُسلمك إلا إلى الخير .قلت:يارسول الله قد رأيتَ ماكنتُ أشهدُ من تلك المواطن عليك مُعاندًا عن الحق فادعُ الله أن يغفرها لي فقال رسول الله ﷺ:الإسلام يجُبّ ما كان قبله،قلت:يارسول الله، على ذلك ؟ فقال: اللهم اغفر لخالد كلّ ما أوضع فيه من صَدٍّ عن سبيلك . قال خالد: وتقدّم عمرو، وعثمان، فبايعا رسول الله ﷺ.

وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، فو الله ما كان رسول الله ﷺ من

يوم أسلمت يعدل بي أحدًا من أصحابه فيما حَزَبه[1] .

في هذا الخبر مواقف وعبر منها :

أولاً: في قول خالد عن المواطن التي شهدها ضد الإسلام « وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء » في قوله هذا عبرة لكل الذين يحاربون الإسلام، فقد كان يحارب المسلمين وهو يعلم في قرارة نفسه أنهم سيظهرون بقيادة رسول الله ﷺ، فهذا الشعور في نفسه يعدُّ مظهرا من مظاهر الانهزام الداخلي الذي يكون لدى بعض النفوس التي لديها قبول للخير، ولكنها تعيش تحت ضغوط قوية، تمنعها من قبوله.. وفي ذلك كبت للطاقات وإهدار للكفاءات، حيث يُرغم الإنسان نفسه على الدخول في أمور لايؤمن بها ولايتحمس لها الحماس الكافي لبذل الجهد، فيعطي في الدفاع قليلا من طاقته، ويبقى معطلا لايستفاد منه كثيرا، ونستطيع أن ندرك هذا بالمقارنة بين ما أنتجه خالد في مجاله الذي برز فيه وهو القيادة الحربية في السنوات التي سبقت إسلامه وبين إنتاجه في السنوات التي تلت إسلامه، وسنجد أن نسبة نجاحه قبل الإسلام ضئيلة جدا.

ثانيًا: لما أراد النبي ﷺ دعوة خالد بن الوليد إلى الإسلام على يد

---

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٧٤٥-٧٤٩.

أخيه الوليد أثنى عليه بقوله « ما مثله جهل الإسلام ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقدَّمناه على غيره » لقد وصف رسول الله ﷺ خالدا بسداد الرأي ورجاحة العقل، وتعجَّب كيف يجهل الإسلام من وهبه الله تعالى مثل هذا العقل والرأي، ثم وعد أخاه بأنه لو أسلم لكان له شأن ولقدَّمه على غيره.

لقد كان لهذه الكلمات البليغة أعظم الأثر في تحول قلب خالد وتوجهه نحو الإسلام، ولقد كان رسول الله ﷺ موفقا كل التوفيق في فهم توجهات النفوس ومواطن قيادها، فلقد أدرك حب خالد للزعامة والقيادة فوعد بتمكينه من ذلك وتقديمه على غيره في هذا المجال، إلى جانب الإشادة بفكره وعقله.

لقد انتزع النبي ﷺ بهذه الكلمات كل الجواذب التي تجعل خالدا يظل على الشرك الذي لم يكن مقتنعا به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادة وتصدُّر، فلما كان ما هيأه له المشركون سيحصل له إذا دخل في الإسلام، واطمأن بأنه لو أسلم لن يكون في آخر القائمة ولن يكون مهملا شجعه ذلك على قطع وساوس الشيطان ورجح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام فعزم على الدخول فيه.

وهكذا كسب المسلمون إلى صفهم زعيما كبيرًا من زعماء مكة

وعلما من أعلامها، وكتب الله تعالى على يديه صفحات بيضاء من تاريخ المسلمين الجهادي في أواخر حياة النبي ﷺ وفي عهد أبي بكر وأول عهد عمر رضي الله عنهما.

ولقد كان إسلام خالد مع إسلام عمرو بن العاص أعظم خذلان واجهه المشركون في مكة، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ لما جاءه البشير يبشره بإسلامهما « لقد أعطت مكة المقادة بعد هذين ».

إسلام أبي العاص بن الربيع

قال ابن إسحاق: وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زَيْنب عند رسول الله ﷺ بالمدينة،حتى فرّق بينهما الإسلام،حتى إذا كان قُبيل الفتح، خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام،وكان رجلا مأمونا، بمال له وأموال لرجال من قريش، أبْضعوها معه،فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً،لقيتْه سرية لرسول الله ﷺ(1) ،فأصابوا ما معه،وأعجزهم هاربًا.

فلما قَدمت السرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصُّبح - كما حدثني يزيد بن رومان - فكبر وكبر الناس معه، صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، قال: فلما سلم رسولُ الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، هل

(١) لم يكن هناك سرايا ولا قتال بين المسلمين ومشركي مكة بين صلح الحديبية وفتح مكة، وإنما الذين أخذوا تجارة أبي العاص هم جماعة أبي بصير وأبي جندل التي فرت من قريش، كما جاء في رواية البيهقي لخبر تلك الجماعة، دلائل النبوة: ٤/ ١٧٤. ويفهم من هذا الخبر أن هجومهم على تلك القافلة كان في آخر مقامهم في «العيص» ؛ حيث قدموا إلى المدينة بأمر النبي ﷺ لما طلبت قريش ذلك، فكان هذا الحوار معهم حول ردِّ ما أخذوه من أبي العاص بن الربيع.

سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا: نعم، قال: أما والذي نفسُ محمد بيده ماعلمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم، إنه يُجير على المسلمين أدناهم، ثم انصرف رسولُ الله ﷺ، فدخل على ابنته، فقال: أي بُنية، أكْرمي مثواه، ولايخْلُصنّ إليك، فإنك لاتحلين له.

قال ابن إسحاق: وحدّثني عبدُ الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص، فقال لهم: إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتردّوا عليه الذي له،فإنّا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحقّ به، فقالوا: يارسول الله، بل نردّه عليه، فردّوه عليه، حتى إن الرجل ليأتي بالدّلْو ويأتي الرجل بالشنّة وبالإداوة(١)، حتى إن أحدهم ليأتي بالشِّظاظ (٢)، حتى ردوا عليه ماله بأسره، لايفقد منه شيئًا.

ثم احتمل إلى مكة، فأدّى إلى كل ذي مال من قُريش ماله، ومن كان أبضع معه، ثم قال: يامعشر قُريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا: لا فجزاك الله خيرًا ! فقد وجدناك وفيًّا كريمًا،

---

(١) الشنة والشن بفتح الشين: القربة القديمة، والإداوة بكسر الهمزة: الإناء الذي يُتوضأ به.

(٢) الشظاظ بوزن كتاب: عود يشد به فم الغرارة.

قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما مَنعني من الإسلام عنده إلا تخوُّف أن تظنّوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أدّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت. ثم خرج حتى قَدم على رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: وحدثني داود بن الحُصين عن عكرمة عن ابن عباس، قال: ردّ عليه رسولُ الله ﷺ زينب على النكاح الأول لم يُحدث شيئًا بعد ست سنين.

قال ابن هشام: وحدّثني أبو عُبيدة أنّ أبا العاص بن الرَّبيع لّما قدم من الشام ومعه أموال المشركين قيل له: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين ؟ فقال أبو العاص: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي(١).

وأخرج هذا الخبر الحاكم من خبر محمد بن إسحاق ولم يحكم عليه(٢).

في هذا الخبر مواقف:

أولاً: اهتمام النبي ﷺ بدعوة الرجال الذين يرى لهم من مكارم

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٥٣ – ٣٥٦.

(٢) المستدرك: ٣/ ٢٣٦ – ٢٣٧.

الأخلاق ما يؤهلهم للدخول في الإسلام، ومن ذلك اهتمامه بأبي العاص بن الربيع، وكانت دعوته إياه إلى الإسلام عن طريق المعاملة الكريمة حيث تشفَّع له عند أولئك المرابطين الذين استولوا على جميع ما معه من تجارة، وهم جماعة أبي بصير. وهذه المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ لأبي العاص كان لها أبلغ الأثر في انجذابه إلى الإسلام.

ثانيًا: في هذا الخبر دليل على قوة إيمان أبي بصير وأبي جندل ومن معهما من المسلمين المرابطين في « العيص » وتجردهم من الهوى حيث قبلوا وساطة النبي ﷺ لأبي العاص فردوا عليه كل ما أخذوا منه من غير تلكؤ ولاتردد، ولاشك أن الذين أظهروا الإسلام أمام عتاة الكفار وتحملوا قيودهم وتعذيبهم من أجل الله تعالى لن يغريهم بريق الدنيا وإن قوي لَمَعَانه، وما خرجوا من مكة ليجعلوا من أنفسهم عصابة هدفها الاستيلاء على أموال الناس، وإنما اضطروا إلى اعتراض تجارة قريش ليتخذوا من ذلك وسيلة للضغط عليها كي تتنازل عن شرطها الجائر بلزوم رد كل من خرج منهم إلى المسلمين وإن كان مسلما.

ثالثًا: ظهر في هذا الخبر نماذج من مكارم الأخلاق التي كان يتمتع بها أبو العاص بن الربيع، فمن ذلك أنه قام برد الأمانات التي

تحملها لقريش مع أنه كان يريد مفارقتهم، وكان معتزًّا بالإسلام مدركا أنه دين مكارم الأخلاق والمعاملة الحسنة، فلذلك لما قيل له: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين ؟ قال: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة....................	٥
أهم المؤرخين الذين اعتمدت كتبهم.........	٩
أخبار النبي ﷺ قبل البعثة.................	١٦
إشراقه النور الإلهي (بدء الوحي)........	٣٨
أول من أسلم..............................	٤٣
إسلام أبي بكر واهتمامه بالدعوة..........	٤٧
دعوة بني عبد المطلب.....................	٥١
مثل من ثبات الصحابة على دينهم..........	٥٣
مثل من الثبات على الشدائد (إسلام خالد بن سعيد بن العاص).........	٥٥
مثل من الدعوة الناجحة (إسلام عمرو بن عبسة السلمي)	٥٧
مواقف في الدعوة وإيثار الإسلام (قدوم أسرة زيد بن حارثة لطلبه)	٦١
مثل من مساومة أهل الباطل وإصرار أهل الحق.........	٦٧

الموضوع	الصفحة

مثل من ثبات النبي ﷺ

(شكوى قريش لأبي طالب) ٩٨

مثل من تضحية الصحابة في سبيل الله

(استعداد الزبير للدفاع عن رسول الله ﷺ)............ ١٠٥

نموذج من الجرأة في قول الحق

(ابن مسعود يتحدى الكفار)........................ ١٠٦

إسلام أبي ذر الغفاري وتحدي الكفار...................... ١١١

مواقف عالية من صبر النبي ﷺ على الأذى.................. ١١٧

مواقف من صبر الصحابة على الأذى....................... ١٤١

هجرة الحبشة الأولى ١٦١

هجرة الحبشة الثانية ١٦٣

مثل من التنافس في العمل الصالح

(عثمان بن مظعون يرد جوار المشركين)................... ١٩٦

مثل من العزة والشهامة

(إسلام حمزة بن عبد المطلب)............................ ٢٠٢

إسلام طليب بن عمير وجهاده في الدعوة..................... ٢٠٧

الموضوع	الصفحة

مثل أعلى للتحول بعد الهداية
(إسلام عمر بن الخطاب)........................ ٢١٠
مثل من الصبر على الشدائد
(حصار الشعب)................................ ٢٣٧
صبر جميل وعزيمة نافذة
(وفاة الحاميين: خديجة وأبي طالب)............... ٢٥٥
مواقف وعبر في دعوة أهل الطائف.................... ٢٥٨
مثل أعلى للشجاعة في قول الحق
(خبر الإسراء برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس)............ ٢٨٢
مثل من الالتزام بتطبيق الإسلام
(بيعة العقبة الأولى)................................ ٢٩٣
فهم دقيق وإيمان عميق وتضحية خالدة
(بيعة العقبة الثانية)................................ ٢٩٧
الهجرة إلى المدينة النبوية............................. ٣٢١
هجرة أبي سلمة ومثل من الصبر الجميل.................. ٣٢٦
هجرة عمر وخبره مع عياش بن أبي ربيعة.................. ٣٣٠

الموضوع	الصفحة
مثل عظيم من الإيثار والتوكل على الله..................	٣٣٧
الهجرة النبوية........................	٣٤٠
خبر سراقة بن مالك المدلجي..................	٣٦٥
نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم معبد..........	٣٧٣
خبر الراعي مع رسول الله ﷺ..................	٣٨١
خبر اللصين ومواقف لرسول الله ﷺ................	٣٨٢
وصول النبي ﷺ إلى المدينة..................	٣٨٥
هجرة علي بن أبي طالب....................	٣٩٣
هجرة صهيب بن سنان....................	٣٩٦
رسول الله ﷺ في المدينة..................	٤٠٠
مثل من جهاد النفس وتحكيم العقل	٤٠٢
(إسلام عبد الله بن سلام)	
مثل من دعوة رسول الله ﷺ	٤٠٨
(خبر عبد الله بن أبيٍّ في عدم إجابة الدعوة)	
موقف لأسعد بن زرارة....................	٤١١
(أول جمعة أقيمت بالمدينة)	

الموضوع	الصفحة
مثل من جهود النبي ﷺ وصحابته في جهاد المنافقين......	٤١٣
موقف لرسول الله ﷺ في الحكم بما أنزل الله............	٤١٦
(حكمه على اليهود بما في توراتهم)	
موقف لرسول الله ﷺ في بناء المجتمع الإسلامي..........	٤١٨
(صحيفة المعاهدة بين أهل المدينة)	
وفد النصارى وخبر المباهلة..............	٤٢٥
موقف لسعد بن معاذ في تحدي الكفار..............	٤٣١
مثل من تسامح النبي ﷺ واهتمامه بالدعوة..........	٤٣٥
(فداء أبي العاص بن الربيع)	
مثل من الصبر الجميل..................	٤٣٨
(هجرة زينب بنت رسول الله ﷺ)	
موقف للصحابة في الرد على المنافقين واليهود..........	٤٤٣
مثل من نفاق ابن أبيٍّ ومواقف لبعض الأنصار............	٤٤٧
مواقف لأصحاب بعثة الرجيع...............	٤٥٠
مواقف لأصحاب بعثة بئر معونة...............	٤٦٧
هجرة أم كلثوم بنت عقبة................	٤٧٧

الموضوع	الصفحة
إسلام عمرو بن العاص..............................	٤٨١
إسلام خالد بن الوليد..............................	٤٨٦
إسلام أبي العاص بن الربيع..............................	٤٩٣
فهرس الموضوعات	٤٩٩